

وَقَفَّائِهِ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

(من سورة البقرة إلى سورة النمل)



أ.د. عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْعُمَرِيُّ

أُسْتَاذُ الدِّرَاسَاتِ الْعُلْيَا (سَابِقاً)
بِجَامِعَةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالرِّيَاضِ

١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

وقفات مع النبي محمد ﷺ في القرآن الكريم

وقفات مع النبي محمد ﷺ في القرآن الكريم

الجزء الأول

(من سورة البقرة إلى سورة النمل)

إعداد

أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري

أستاذ الدراسات العليا (سابقاً)

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

حقوق الطباعة والنشر محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

١٤٤٨هـ / ٢٠٢٦م

الرياض: هاتف: ٢٧٤٦٦٧٧ ١١ ٩٦٦ + - ٢٧٤٦٦٨٨ ١١ ٩٦٦ +

E. mail: azizomary@hotmail.com

يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، بإذن خطي من المؤلف. والكتاب متوفر بصيغة (PDF) مجاناً على الموقع الإلكتروني (<http://omaryforum.com>).



إهداء

إلى كلِّ مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وتعلَّم القرآنَ وعلمه ، وأكثر من الصلاة على النبي محمد ﷺ ، أو كان سبباً في ذلك؛ أهدي هذا الكتاب.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١١
سورة البقرة	١٧
سورة آل عمران	٤٣
سورة النساء	٨٧
سورة المائدة	١٢١
سورة الأنعام	١٥١
سورة الأعراف	١٩١
سورة الأنفال	٢٠٩
سورة التوبة	٢٤٣
سورة يونس	٣٠٥
سورة هود	٢٣٧
سورة يوسف	٣٤٣
سورة الرعد	٣٤٥
سورة إبراهيم	٢٥٥
سورة الحجر	٢٦٣
سورة النحل	٣٧٣
سورة الإسراء	٢٨٣
سورة الكهف	٤٢٣
سورة مريم	٤٤١

الموضوع	الصفحة
سورة طه	٤٥٥
سورة الأنبياء	٤٦٣
سورة الحج	٤٧١
سورة المؤمنون	٤٨٣
سورة النور	٤٩١
سورة الفرقان	٥٠٥
سورة الشعراء	٥٢١
سورة النمل	٥٢٥

مقدمة

الحمد لله الذي بعث نبيه محمدًا ﷺ رحمةً للعالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء]. وخاتمًا للنبيين، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (١٠) [الأحزاب].

ووجهه ربه ﷺ في قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٦) [الزمر].

وعلى آله الطيبين وأزواجه أمهات المؤمنين، وصحابته الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين الذين قال ﷺ عنهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنكُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَجَرِّبُونَ وَالَّذِينَ تَبِعُوا مِنْكُمْ فِي أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَجَرِّبُونَ وَالَّذِينَ تَبِعُوا مِنْكُمْ فِي أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَجَرِّبُونَ وَالَّذِينَ تَبِعُوا مِنْكُمْ فِي أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَجَرِّبُونَ﴾ (١٠٠) [التوبة]. وبعد:

حينما كنت أبحث في سيرة رسول الله ﷺ لاحظت كثرة ارتباط حياته ﷺ بالقرآن الكريم، وتعليمه وتأديبه والبيان له وللأمة معه، من خلال الآيات الكريمة ومدح الله له والثناء عليه في جوانب إيمانية وأخلاقية وبيان مكانته وما يحمله من هدى والدفاع عنه والرد على خصومه، والإشارة إلى شيء من الحوادث في حياته، أو الإجابة على أسئلة الناس حوله مسلمهم وكافرهم وغير ذلك مما يرتبط به ﷺ.

وقد تعجبت من تفصيلات ذلك في الآيات والسور، وبحثت عن الكتب

والأبحاث حول هذا الموضوع، فوجدتها في الغالب غير مستقصية ولا كافية من وجهة نظري - مع احترامي وتقديري لكل من بحث الموضوع -، مع أنها أعمال جيدة، لكنها في الغالب محدودة، وإن تقاربت في العنوان، فكثير منها يحمل موضوعات محددة وقليلة، تغطي جزءاً من الموضوع العام الذي أهدف إليه.

فقررت أن أقرأ القرآن الكريم من أوله إلى آخره، قراءة خاصة متأنية، راصداً ما يرتبط بالرسول ﷺ من آيات وتوجيهات قرآنية متعددة وبمناسبات مختلفة، منذ مبعثه ﷺ إلى وفاته، فوجدت ما يقارب الألفين وخمس مئة وأربعين (٢٥٤٠) آية قرآنية ذات ارتباط به ﷺ وبحياته وأخباره والدفاع عنه، ودعوته وتوجيهه وتعليمه، عصمته وتزكياته وأخلاقه وغزواته، وبيت النبوة، ووفاته ومبعثه ﷺ، مع ارتباط آيات أخرى ذات الصلة المباشرة به ﷺ واستكمالاً لها. وهذا يزيد على ثلث الآيات القرآنية.

واعتمدت في فهمها وتفسيرها على ما أورده الطبري وابن كثير رحمهما في تفسيرهما بالدرجة الأولى، كما رجعت إلى غيرهما من كتب التفسير عند الحاجة، وقمت بتخريج الأحاديث التي أشارت إليها كتب التفسير من كتب الصحاح والسنن مباشرة، ما أمكن، حسب طبقات موثقة لدي.

وقد استعمل كلمة (انظر) في الروايات الحديثية إذا تعددت واتفقت في المعنى واختلفت في اللفظ، كما هو حاصل في الكثير من روايات السنة.

وقد استبعدت بعض الروايات التي رأيت ضعفها، بعد دراسة من خلال الكتب المتخصصة، وإن استشهاد بها ابن كثير أو الطبري، وغيرهما. مما اجتهدت ورأيت عدم خدمتها للموضوع. مع تصريفي واختصاره فيما أورده دون الإخلال بالمعنى.

وقد احترت في الإبقاء على الآيات المعنية حسب ترتيب السور، أم أوزعها حسب الموضوعات، ولعلي أجعلها في إصدارين أحدهما حسب ترتيب السور، والآخر حسب الموضوعات - بإذن الله - وإن كان الثاني الخاص بالموضوعات يحتاج إلى اجتهاد خاص في تحديد موضوعها، أو في ترتيب تلك الموضوعات ووقت طويل للعمل. أسأل الله أن يوفقني فيه وفي غيره.

وقد حرصت على الصلاة على النبي ﷺ في كل موضع ورد فيه ذكره، مع السلام على الأنبياء ﷺ حين ذكرهم، كما حرصت على الترضي عن أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم، وقد احترت في بعض من أسلم منهم متأخراً ﷺ، حين الحديث عنهم قبل إسلامهم ﷺ، فرأيت أن أسكت عن الترضي فيما يرتبط بما قبل إسلامهم، خشية الخلط على القراء، مثل ما جرى بين أبي سفيان ﷺ وبين عمر ﷺ يوم أُحُد، وذلك قبل إسلام أبي سفيان ﷺ.

وجاءت الموضوعات متنوعةً من خلال الآيات، رغم توزعها بين السور ومنها:

نشأته ﷺ (سورة الشرح - سورة الضحى).
تكليفه ﷺ بالرسالة والتبليغ. طمأنته ﷺ وتثبيته.
تشريف النبي ﷺ وتكريمه. وأخلاقه ﷺ. وشبابه ﷺ. ومبعثه ونبوته وحمله الرسالة ﷺ. والبشارة والندارة في حياته ﷺ.
زوجاته ﷺ وبيته وآله وأصحابه ﷺ. ودنياه ﷺ. وحياته، وأمه. وبشريته ﷺ. وأسمائه ﷺ. وعبوديته لله ﷻ. حماية الله سبحانه وتعالى له ودفاعه عنه ﷺ. صفاته ﷺ. عدله ﷺ. الإسراء والمعراج به ﷺ. هجرته ﷺ. معاركه ومغازيه وجهاده ﷺ. صبره ﷺ. عبادته ﷺ. صلاته ونسكه ﷺ. قبلته ﷺ. استغفاره ﷺ.

ذكره ﷺ. صومه ﷺ. حجه ﷺ. جهاده ﷺ. حياته ﷺ مع القرآن الكريم. حبه ﷺ. رزقه ﷺ. فرحه ﷺ. حزنه ﷺ. حياؤه ﷺ. سؤال الناس له ﷺ وجوابهم. إيذاؤه ﷺ. حوار مع المشركين وأهل الكتاب ﷺ. عتابه وتربيته ﷺ. تعليمه ﷺ. الحكم والقضاء والعدل في حياته ﷺ. طاعته ﷺ. حقوقه وخصائصه ﷺ. ولايته ﷺ. صفاته ﷺ. الصلاة عليه ﷺ. معيشته ﷺ حفظ الله له ﷺ. تشييته ﷺ. إخباره ﷺ بالأنبياء السابقين ﷺ وأممهم. تعريفه بالآيات الكونية ﷺ. الوصايا له ﷺ. الشريعة والأحكام في حياته ﷺ. الحديث له ﷺ عن القرآن والتزليل ﷺ. وفاته ﷺ آخرته ﷺ. جنته ﷺ.

وقد حاولت جاهداً متابعة الألفاظ الواردة في الآيات المعنية بالرسول ﷺ ومتابعة مرات تكرارها، وعدد الآيات الواردة فيها، وقد ساعدني في ذلك برامج القرآن الكريم الحاسوبية، في البحث، وفي ضبط الآيات واستنساخها، وكذلك الوصول للأحاديث ذات الصلة، مع عدم اعتمادي المباشر على الحاسب فيها وإنما أضبطها من نسخ ورقية معتمدة لدي ولدى الباحثين غيري.

وقد لاحظت ارتباط الآيات بعضها ببعض، وبما سبقها في كثير من الأحيان أو ما تلاها، مما يدعو لإيرادها مع ما سبقها أو لحقها من أجل مزيد من الفهم والترابط، وبالتالي إيراد ما يرتبط بها من تفسير ومعنى.

والحديث لرسول الله ﷺ من ربه في ألفاظ متعددة، ومن الأمثلة للألفاظ الموجهة للنبي ﷺ أو عنه.

ألم تعلم (٤) في مواضع (٤) آيات. ألم تر في (٣١) موضعاً في (٣١) آية.

إليك (٧٧) في (٧٥) آية. يشير (٦) مواضع (٥) آيات يشيراً (٤) مواضع (٤)

آيات. ترى (١٢) موضعاً في (١٢) آية. تقول (١١) موضعاً في (١١) آية. الرسول (٤٥) موضع في (٤٣) آية. رسوله (١٤) موضعاً في (١٤) آية. عليك (٤٥) موضعاً موجهة للرسول ﷺ. عليك (٥٧) مرة في (٥٢) آية. عندك (٤) مرات في (٤) آيات. فقل (١٨) موضعاً في (١٨) آية. قل مرت في (٢٩٤) موضعاً من القرآن خلال (٢٧٤) آية. قليلك (٣) مواضع في (٣) آيات. لعلك في موضعين من (٢) آية. محمد (٤) مواضع في (٤) آيات. مرسل (٣٠) موضعاً في (٢٨) آية. نذير (٢٩) موضع في (٢٨) آية نذيراً (٤) مواضع في (٤) آيات. نفسك (٨) مواضع في (٨) آيات مما يخصه. يا أيها الرسول في موضعين (٢). يا أيها النبي (١٣) موضعاً في (١٣) آية. يسألك في موضعين من (٢) آيتين. يسألونك في (٩) مواضع من (٨) آيات. يستفتونك في موضع واحد (١).

ولا شك أن ما وُجّه لرسول الله ﷺ من آيات وتكليف ووصايا ربانية في غالبها للأمة جمعاء، بل للإنسانية في كثير من الأحيان.

وفي كل ما ورد من آيات قرآنية تكريم له من ربه ﷻ، وتذكير للعباد بمهمته وحقوقه وضرورة الأخذ عنه ﷺ. وقد احترت كثيراً في اختيار عنوان للكتاب يجمع ما أشارت إليه الآيات سواء ما وجه له ﷺ أم ما وجه للناس عنه ﷺ واستقرت على العنوان المصاحب: **"وقفات مع النبي ﷺ في القرآن الكريم"**.

أجد نفسي مدينًا بالشكر والتقدير لأخي وأستاذي معالي الدكتور علي ابن إبراهيم النملة، على مراجعته وتوجيهه طوال عملي في هذا الكتاب. كما أشكر الأستاذ مصعب بشير على ما بذله من جهد في الإخراج والعناية ومتابعة إجراءات الطباعة.

فلهم، ولكل من أسدى إليّ نصحاً أو قدم لي عوناً، خالص الدعاء بأن
يجزيهم الله عني خير الجزاء.

وأسأل الله لنا ولهم مرافقة نبيه ﷺ في الجنة، وأن يجعلنا من أحبائه
وأتباعه، ويحشرنا في زمرة، ويوردنا حوضه.
والله المستعان وعليه وحده التكلان.

عبدالعزیز بن إبراهيم العُمري

مكة المكرمة، الرياض

جمادى الآخرة ١٤٤٧هـ

سورة البقرة

حرصه ﷺ أن يؤمن الناس به:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) [البقرة].

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكنتموا الحق سواء عليهم إنذارك يا محمد ﷺ لهم أم عدمه فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به. فمن كفر وضل فلا مُسعد له ومن أضله الله فلا هادي له فلا تحزن عليهم ... وكان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له من الله السعادة، ولا يضل إلا من سبقت له من الله الشقاوة.^(١)

تحدي الكفار أن يأتوا بشيء من مثل ما جاء به ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣) [البقرة].

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ (فأتوا بسورة) من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فأتوا بمثل ما جاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فإنكم لا تستطيعون

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/١٤١ - ١٤٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨.

ذلك. وقد تحدى الله تعالى المشككين بذلك في غير موضع من القرآن.^(١)

بشارته ﷺ للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤) وَيَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ [البقرة].

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله ﷺ من العذاب والنكال عطف يذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، وأمر الرسول ﷺ ببشارتهم بالجنة وما فيها...^(٢)

معرفة أهل الكتاب به وبما جاء به ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨١) [البقرة].

جاءهم الكتاب وهو القرآن الكريم الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة، وكان اليهود من قبل مجيء محمد ﷺ بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه ﷺ على أعدائهم من مشركي يثرب إذا قاتلوهم يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، ... فلما بعث الله رسوله ﷺ من قريش اتبعه الأنصار وكفر به يهود. فقال الله تعالى: ﴿فلما

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/ ٢٠٠ - ٢٠٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ١٠٠ - ١٠١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/ ٢٠٣ - ٢١٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ١٠٣.

جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴿٩٣﴾.

وقد قال لهم الأنصار: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا **بمحمد ﷺ** ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال بعض علماء بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، ما هو الذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله فيهم الآية. ^(١)

إخباره ﷺ بطبيعة يهود:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^(٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ^(٩٥) وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسُ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضَخٍ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ [البقرة].

يا محمد قل لهم - يعني يهود - ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي بعلمهم بصدقك بما عندهم من العلم بك ومع ذلك كفروا، فالحياة عندهم غالية لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت، ولهذا أشار تعالى لما فيهم من حرص على طول الحياة لعاقبتهم الخاسرة. ^(٢)

جوابه ﷺ بأمر الله لليهود أعداء الملائكة:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/٤٥٤ - ٤٥٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٥٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/٤٦٩ - ٤٧٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٦١ - ١٦٣.

وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ [البقرة].

في الآيات جوابٌ لليهود من بني إسرائيل على لسانه ﷺ، حيث زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم.

ورد: أنه حضرت عصابة من اليهود لرسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال ما نسألك، عن ما لا يعلمه إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: ((سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم عن شيء فعرفتموه لتتابعنني على الإسلام)) فقالوا: ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: ((سلوا عما شئتم)) ومما قالوا: حدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: ((فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه))، قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواء من الملائكة تابعناك وصدقناك، قال: ((فما يمنعكم أن تصدقوه))؟ قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ - إلى قوله تعالى -: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فعندها باؤوا بغضب على غضب.^(١)

وضوح الآيات المنزلة عليه ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [البقرة].

أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات، دالات على نبوتك، وتلك الآيات مما في كتاب الله من خفايا علم اليهود وأخبارهم وأوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أخبارهم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/٤٦٧ - ٤٨٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٦٣.

وعلماءهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم، التي كانت في التوراة، فأطلع الله عباده في كتابه الذي أنزل على نبيه محمد ﷺ، فكان في ذلك الآيات البينات لمن أنصف نفسه؛ إذ كان في فطرة سليمة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات، التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر، وأنت أمة لم تقرأ كتاباً، فذلك عليهم حجة لو كانوا يعقلون.

روي أن ابن سوريا الفطيووني، وهو من يهود، قال لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك، فأنزل الله في ذلك من قوله تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾^(١).

معرفة اليهود به ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كُتُبَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]

لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة، فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بما لم يوافق القرآن، فذلك قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. مع أن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه، وجحدوا بكتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها، كما أنهم لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ ويطرحونه. أي نقض فريق منهم لما في كتبهم. والنبذ هو الطرح والإلقاء. مع أن خبره عندهم ويعرفون صدقه ﷺ.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/٤٨٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٦٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/٤٨٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٦٧ - ١٦٨.

توجيه للمؤمنين في الأدب معه ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾ [البقرة].

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يقولوا كاليهود حيث كانوا يأتون الكلام بتورية لما يقصدونه من التتقيص، من حق رسول الله ﷺ، عليهم لعائن الله، فإذا أرادوا أن يقولوا للرسول اسمع لنا يقولون راعنا ويورون بالرعونة وكأنهم يقولون أرعنا سمعك، ويقصدون راعنا وتعني خشناً صعباً سخرية بالنبي ﷺ.

وروي أنه كان رجل من اليهود يأتي النبي ﷺ فإذا لقيه فكلمه قال: أرعني سمعك واسمع غير مسمع، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا، فنبه الله ﷻ المؤمنين أن لا يقولوا راعنا، فهي كلمة كره الله تعالى أن يقولوها لنبيه ﷺ.^(١)

أدب السؤال معه ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١٠٨﴾ [البقرة].

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل حدوثها كما قال، فلعله أن يُحرم من أجل تلك المسألة.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/٥١٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٨٠.

كما خاف عليهم حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء ﷺ، واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم، والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت.

تأكيد نبوته ﷺ وعدم رضا أهل الكتاب لذلك:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)﴾ [البقرة].

تأكيد على رسالة محمد ﷺ وأنها واضحة جلية بشيراً ونذيراً، وأصحاب الجحيم حسابهم على الله ﷻ. عرف ذلك أهل الكتاب ومنهم اليهود والنصارى الذين لم يرضهم ذلك ولم يرضوا عن رسول الله ﷺ: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾، وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك، فذع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وابتعد عن أهوائهم واطلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق. والخطاب والأمر للرسول والأمر له ولأمرته إلى يوم القيامة.^(١)

دعوة إبراهيم عليه السلام ونبوة محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة].

الإسلام دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وهما أجداد النبي ﷺ. وكانت دعوة

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/٥٦٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٩٢ - ١٩٣.

إبراهيم ﷺ لذريته من إسماعيل في مكة المكرمة بأن يكون فيهم رسولٌ منهم،^(١) من ذرية إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله في بعث محمد ﷺ رسولاً إليهم. وقد قال رسول الله ﷺ: ((إني عبد الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين)).^(٢)

شهادته ﷺ على الأمة والناس:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَإِمْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرْءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣).

تؤكد الآيات أن الرسول ﷺ شهيدٌ على أمته، والأمة شهيدة على الأمم يوم القيامة، وقد خصها ﷺ بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب.^(٣)

قال رسول الله ﷺ: ((يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال فذلك

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/٦٠٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢١١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/٦٠٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢١١ - ٢١٢؛ (والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٤/١٢٧).

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢١٧.

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.^(١)

توجيهه للقبلة (مكة) وإرضاء الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

كان ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء فأُنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فأُنزل الله تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

ومن المعلوم أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً تقريباً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يحول نحو الكعبة، فنزلت ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ فصرف إلى الكعبة.^(٢)

قبلة محمد ﷺ ومخالفة أهل الكتاب له:

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

يخبر تعالى عن اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وصدقه ونبوته وما يدعو إليه من توحيد، وأنه لو أقام كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم، وهنا إخبار عن شدة متابعة

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب "إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه"، ج ٤/ ١٠٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/ ٢٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٢١٨.

الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضاً مستمسك بأمر الله ﷻ وطاعته واتباع مرضاته، وألاً يتبع أهواءهم وكونه متوجهاً إلى بيت المقدس حيناً، إنما ذلك عن أمر الله تعالى. كما أن توجهه للكعبة عن أمره ﷻ. ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق بعد العلم به.^(١)

تأكيد الله ﷻ لمعرفة أهل الكتاب له ﷻ:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٦١) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ [البقرة].

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون محمدًا ﷺ وصحة ما جاءهم به ﷺ من رسالة، كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب بهذا المثل في صحة الشيء.

يروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمدًا كما تعرف ولدك؟ قال، نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته وعرفته، وأبني لا أدري ما كان من أمه.

وقد يكون المراد ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ من بين أبناء الناس كلهم، لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه مع أبناء الناس كلهم.

ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والمعرفة ﴿ليكتُمون الحق﴾ أي ليكتُمون عن الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ ﴿وهم يعلمون﴾، ثم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/٢٧: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢١٩ - ٢٢٠.

ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين معه وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مريّة فيه ولا شك، فقال: ﴿الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾^(١).

أمره بالتوجه للمسجد الحرام في قبلته ﷺ والأمة معه:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا لِمَنْ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١٥٠) [البقرة].

أمر متعدد ومباشر من الله ﷻ لنبيه ﷺ ولأمة معه باستقبال المسجد الحرام قبله من جميع أقطار الأرض، والتكرار ثلاث مرات، قيل: الأول لمن هو مشاهد الكعبة، والثاني لمن هو في مكة غائب عنها، والثالث لمن هو في بقية البلدان.

وفي هذا المقام تأكيد إجابته إلى طلبه ﷺ بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها. كما ذكر أنه الحق من الله وارتضاءه ﷻ، حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ، فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرضيه.

فالله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً؛ لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة، فامتثل أمر الله في ذلك أيضاً. فهو ﷻ مطيع لله في جميع أحواله،

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/ ٢٨ - ٣٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٢٢٠.

لا يخرج عن أمر الله طرفة عين وأمته تبع له.^(١)

التأكيد على أنه ﷺ معلم الأمة وشكر الله وذكره:

قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ (١٥٢) [البقرة].

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبيّنات ويزكيهم، أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية يسفّهون بالعقول الغراء، فانتقلوا ببركة رسالته إلى حال الأولياء وسجاياء العلماء. فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة يعرف قدر نعمة بعث الله محمداً ﷺ. ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، وقال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾.^(٢)

أمره ﷺ ببشارة الصابرين:

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٥) ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧) [البقرة].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١/٣٣ - ٣٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/٣٩ - ٤١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢٢١ - ٢٢٢.

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده، ويمتحنهم تارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع، فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه، ولهذا قال لباس الجوع والخوف. وقال هاهنا: ﴿بشيء من الخوف والجوع﴾ أي بقليل من ذلك ﴿ونقص من الأموال﴾ أي ذهاب بعضها ﴿والأنفس﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحاب ﴿والثمرات﴾ أي لا تغل الحقائق والمزارع كعاداتها، فمن صبر أثابه الله، ومن قنط أحل به عقابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وبشر الصابرين﴾.

ثم بين تعالى من الصابرين الذين شكرهم فقال: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ أي تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء سبحانه، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة. فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك، فقال: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ أي ثناء من الله عليهم وأمنة من العذاب ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾، فهذان العدلان ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ فهذه العلاوة وهي ما توضع بين العدلين، وهي زيادة في الحمل، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً.

وقد وردت في ثواب الاسترجاع وهو قول الله تعالى: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة.

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به. قال: لا يصيب أحداً من

المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبتة ثم يقول: اللهم أجرني في مصيبتني وأخلف لي خيراً منها إلا فعل ذلك به. قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه. فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أجرني في مصيبتني وأخلف لي خيراً منها، ثم رجعت إلى نفسي، فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً لي، فغسلت يدي من القرظ وأذنت له، فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا يكون بك الرغبة، لكنني امرأة في غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن وأنا ذات عيال، فقال: أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله ﷻ عنك. وأما ما ذكرت من السن قد أصابني مثل الذي أصابك. وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي. قالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ، فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت أم سلمة: بعد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه: رسول الله ﷺ.^(١)

عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله: يا ملك الموت قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرّة عينه وثمره فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع. قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد.^(٢)

أمره ﷺ بإجابة السائلين عن الدعاء:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٤/٢٧؛ وانظر: صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، ج ٤/٣٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/١٦٤ - ١٦٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢٤٠؛ (والحديث من رواية الإمام أحمد في مسنده، ج ٤/٤١٥).

فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٨﴾ [البقرة].

الخطاب للرسول ﷺ ولعمامة أمته بأن الله يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

روي أن أعرابياً قال: يا رسول الله ﷺ، أقریب ربنا فنناجیه، أم بعيد فننادیه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ إذا أمرتهم أن يدعوني فدعوني وقيل: جواباً لبعض من سأل من الناس لو نعلم أي ساعة ندعو الله؟ فنزلت ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(١).

أمره ﷺ بإجابة السائلين عن الأهلة:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة] ﴿١٨٩﴾

أمر ﷺ بالإجابة على سؤال الناس عن الأهلة، حيث قالوا: يا رسول الله ﷺ لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ﴾ يقول جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم، ومحل دينهم، وتجارتهم وديونهم.

روي عن ابن عمر رضيهما الله عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً)). وفي رواية فاقدروا له^(٢).

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/ ١٦٤ - ١٦٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٢٤٠.

(٢) انظر: الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، ص ٣٥٩، برقم: ١٧٣٩/١.

وانظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر

وقوله ﷺ: ﴿وليس البربان تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من أبوابها﴾ عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿وليس البربان تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من أبوابها﴾. وعنه قال: كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه، فنزلت هذه الآية، كما يفهم منها مداخل المواقيت والعبادات وبداياتها.^(١)

تحذيره ﷺ من المفسدين المتكبرين:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ﴾ (٢٤) ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۖ﴾ (٢٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ۖ﴾ (٢٦) [البقرة].

الخطاب موجه للرسول ﷺ وللأمة معه تنبيه لنوع من المنافقين يظهرهم الإسلام وفي باطنهم خلاف ذلك، ومنهم من تكلموا في حبيب بن عدي وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم، وذلك عام في المنافقين كلهم. ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق. وهكذا المنافق في حال خصومته، يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفتری ويفجر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ

رمضان، ج ٢/٢٢٧؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، ج ٣/١٢٢.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/١٩٢ - ١٩٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢٤٧ - ٢٤٨.

والنسل والله لا يحب الفساد ﴿١﴾، أي هو أعوج المقال سيء الفعال، فذلك قوله وهذا فعله، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة، والسعي - هاهنا - هو القصد والعمل لما يؤدي للفساد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق، امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم.^(١)

أمره ﷺ بإجابة السائلين عن النفقة وأولوياتها:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٥).

ردت الآية على سؤال الصحابة لرسول الله ﷺ: ماذا ينفقون؟ فبين لهم تعالى ذلك في الآية، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أي اصرفوها في هذه الوجوه، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، أي مهما صدر منكم من فعل معروف، فإن الله يعلمه وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة.^(٢)

أمره ﷺ بإجابة السائلين عن الشهر الحرام:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/ ٣٢٤ - ٣٣٤: ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/ ٣٥٥ - ٣٥٨: ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٢٧٠.

يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ [البقرة].

السؤال لرسول الله ﷺ ارتبط بما روي: أن رسول الله ﷺ بعث سرية، وكانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن جحش الأسدي، وفيهم عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان السلمي حليف لبني نوفل، وسهيل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب، وكتب لابن جحش كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى ينزل بطن (ملل).^(١) فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه ((أن سر حتى تنزل بطن نخلة))، فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص، فإنني موص وماض لأمر رسول الله ﷺ، فسار، فتخلف عنه سعد بن أبي وقاص وعتبة، أضلا راحلة لهما فتخلفا يطلبانها، وسار ابن جحش إلى بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسان والمغيرة بن عثمان وعمرو بن الحضرمي وعبد الله بن المغيرة، وانفلت [المغيرة] وقتل عمرو، فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب رسول الله ﷺ، فلما رجعوا إلى المدينة بأسيرين وما أصابوا من المال، أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين عليه فقال النبي ﷺ: ((حتى ننظر ما فعل صاحبانا))، فلما رجع سعد ﷺ وصاحبه فادى بالأسيرين، ففجر عليه المشركون. وقالوا: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب، فقال: دخل شهر رجب، وأنزل الله يعير أهل مكة من المشركين وما يفعلون بقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾ لا يحل وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام حين

(١) بطن ملل: ملل واد بطريق مكة على أحد وعشرين ميلاً من المدينة. (ياقوت الحموي،

معجم البلدان، ج ٥/١٩٤.

كفرتم بالله وصددتم عن محمد ﷺ وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمداً ﷺ وأصحابه من مكة أكبر من القتل عند الله.^(١)

أمره ﷺ بإجابة السائلين عن الخمر والميسر:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُ فَأَخُوهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة].

أجاب الله ﷻ نبيه ﷺ عن سؤال الناس عن الخمر والميسر، وهو القمار، وعن اليتامى، فكان الجواب له ﷻ وللأمة إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى عن الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾، أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن ولذة الشرب والتجارة فيها.

ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة، لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾. وكانت هذه الآية مهمة لتحريم الخمر على البتات، قال عمر رضي الله عنه لما قرئت عليه: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ. إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/ ٣٥٩ - ٣٦٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٢٧١.

وعن الصلاة فهل أنتم منتهون؟

وقوله ﷺ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يَنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾، ورد أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله. إن لنا أرقاء وأهلين فما ننفق من أموالنا، فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يَنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ وهي ما يفضل عن حاجتك وأهلك.^(١)

أمره ﷺ بإجابة السائلين عن الحيض:

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

عن أنس رضي الله عنه، ((أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾ حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله ﷺ: "اصنعوا كل شيء إلا النكاح"، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً، إلا خالفنا فيه. جاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر، فقالا: يا رسول الله إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجتمعن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما فسقاها فعرفا أن لم يجد عليهما)).^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/٣٦٩ - ٣٨٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢٧٣ - ٢٧٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/٣٩٢ - ٤٠٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٢٧٦ - ٢٧٧.

انظر: صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها، ج ١/١٦٩.

إخباره ﷺ بقصة داود مع جالوت:

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة].

لما واجه حزب الإيمان، وهم قليل من أصحاب طالوت، عدوهم من أصحاب جالوت، وهم عدد كثير ﴿قالوا: ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي أنزل علينا صبراً من عندك ﴿وثبت أقدامنا﴾ أي في لقاء الأعداء، ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿وقتل داود جالوت﴾.

﴿وآتاه الله الملك﴾ الذي كان بيد طالوت صهره ﴿والحكمة﴾، ومنها النبوة وما يصدر عن الأنبياء من سنن ﴿وعلمه مما يشاء﴾ مما يشاء الله من العلم الذي اختص به ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾، أي لولا أن الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا.

وقوله تعالى: ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ أي ذو من عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، ثم قال تعالى له ﷺ: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾، أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك يا محمد من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر

المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل، ﴿وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدٌ﴾ (من المرسلين) وهذا توكيد وتوطئة للقسم.^(١)

إخباره ﷺ بمحاجة إبراهيم للملك:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قص الله على نبيه ﷺ الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل النمرود بن كنعان من أكبر من ملك في الدنيا.

ومعنى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا مُحَمَّدٌ ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾، أي وجود ربه، ذلك أنه أنكر أن يكون ثمَّ إله غيره، ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلاً، على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ دليل على وجوده، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له. عند ذلك قال النمرود: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾. - أتى برجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما - فيقتل، وأمر بالعفو عن الآخر، فذلك معنى الإحياء والإماتة - في نظره - فأراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة. فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود، فهذه الشمس

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢/٦٣٩ - ٦٤٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣١٤ - ٣١٥.

تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إليها كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب؟ فظهر عجزه، وبُهِت، وقامت عليه الحجة.^(١)

التأكيد له ﷺ أن الهداية من الله:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظْلُمُونَ﴾ [البقرة].

الخطاب موجه للرسول ﷺ وللأمة معه، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يكرهون أن يعطوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿ليس عليك هداهم﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين والمتصدق إذا تصدق على أي أحد ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب البر، أو فاجر، أو مستحق، أو غيره، وهو مثاب على قصده، ومستند هذا تمام الآية ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.^(٢)

التأكيد على إيمانه ومن معه ﷺ:

قال تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة].

الآية فيها تأكيد إيمان الرسول ﷺ بما أنزل إليه من ربه.

قال رسول الله ﷺ: ((من قرأ بالآيتين - من آخر سورة البقرة في ليلة

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٢٥ - ٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٣٢٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٩٤ - ٩٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٣٣١ - ٣٣٢.

كفتاه)).^(١)

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش)).^(٢)

وورد أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت عليه هذه الآية: ((ويحقُّ له أن يؤمن)).^(٣)

وقوله تعالى: ﴿والمؤمنون﴾ عطف على الرسول. ثم أخبر الله تعالى عن الجميع فقال تعالى: ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، وقوله تعالى: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه، ﴿غفرانك ربنا﴾ سؤال للمغفرة والرحمة واللطف.

روي عن حكيم بن جابر قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ قال جبريل: إن الله قد أحسن الشاء عليك وعلى أمتك فسل تعطه، فسأل ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ إلى آخر هذه الآية.

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن، ج ٦/١١٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٥/١٨٠.

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه)، ج ١/٨٠ - ٨١.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا يكلف أحدًا فوق طاقته. وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/١٥٢ - ١٥٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٤٦ - ٣٤٨.

سورة آل عمران

أنزل عليه ﷺ الكتاب كما أنزل على من قبله من الأنبياء:

قال تعالى: ﴿الَمْ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ (٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٥)﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق، أي لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله، وقوله تعالى: ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهي تصدقه بما أخبرته به وبشرت سابقاً، وهو يصدقها؛ لأنه طابق ما أخبرته به، وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه.

وقوله تعالى: ﴿وأنزل التوراة﴾ أي على موسى بن عمران، ﴿والإنجيل﴾ أي على عيسى ابن مريم، ﴿من قبل﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿هدى للناس﴾ أي في زمانهما. ﴿وأنزل الفرقان﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغي والرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيانات والدلائل الواضحات، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/١٦٢ - ١٦٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٤٩.

إخباره ﷺ بمصير الكفار:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ تَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَبْسُ الْمِهَادُ ۚ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلِيهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ ۗ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝١٣﴾ [آل عمران].

أمر محمد ﷺ بأن يقول للمشركين كما في هذه الآية: ﴿أنهم سيغلبون ويحشرون إلى جهنم﴾.

روى ابن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال: ((يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً)). فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتا لعرفت أنا نحن الناس، وأنت لم تلق مثلنا، فأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ تَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَبْسُ الْمِهَادُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾. قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها اليهود القائلون ما قلتُم ﴿آيَةٌ﴾، أي دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعلٍ أمره ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ أي طائفتين ﴿الَّتَقَتَا﴾ أي للقتال ﴿فِئَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر، وقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِّثْلِيهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ أي يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأى أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رآوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ١٩١ - ١٩٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٣٥٤ - ٣٥٥؛

إخباره ﷺ بما هو خير من متاع الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ۝١٤ قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝١٥﴾ [آل عمران].

يخبر تعالى عما زُيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد، وحب المال للفخر والخيلاء، والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء، مذموم، وكل ذلك مما جبل الناس على حبه من أمور الدنيا.

ثم تطلب الآيات منه ﷺ أن يخبر العباد بخير من ذلك ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ أي قل يا محمد للناس: أخبركم بخير مما زُيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة، ثم أخبر عن ذلك فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بين أرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد لا ييغون عنها حولاً، ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الدنس والخبث والأذى، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي يحل عليهم رضوانه ﷻ، وهو من أعظم ما أعطاهم مع النعيم المقيم، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

انظر: سنن أبي داود، كتاب الخراج الإمارة والفیء، باب کیف كان إخراج اليهود من المدينة، ص ٥٣٨، حديث: رقم: ٣٠٠١؛ وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٢/٦٠٨ - ٦٠٩؛ ابن هشام ج ٣/٤٧.

يعطي كلا بحسب ما يستحقه ويريده ﷺ من العطاء. ^(١)

إخباره بصحة الإسلام وأمره ﷺ بتسليم وجهه لله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلِيسُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ^(١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ^(٢٠) [آل عمران].

إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى خُتِموا بمحمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل وبالتالي انحصر الدين المتقبل عنده في الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. وهو دين الأنبياء جميعاً، وخاتمهم محمد ﷺ.

ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتاب عليهم، فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي اختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرههم، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي من جحد ما أنزل الله في كتابه على رسوله ﷺ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه. ^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ١٩٨ - ٢٠٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٢١١ - ٢١٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٣٥٨.

تحذيره ﷺ من إغراض اليهود:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (آل عمران: ٢٣).

الله تعالى ينكر على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابتهم للذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما.^(١)

أمره ﷺ بالدعاء مع حكم الأهليه:

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ٢٦) ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٢٧).

﴿قل﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له، ومفوضاً إليه، ومتوكلاً عليه ﴿اللهم مالك الملك﴾ أي لك الملك كله ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ أي أنت المعطي، وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن.

وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي، خاتم الأنبياء ورسول الله إلى جميع الثقليين: الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٢١٧ - ٢١٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٥٩.

من الأنبياء، ولا رسولاً من الرسل في العلم بالله وشريعته، وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشف له عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وأظهر دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع ﷺ (١).

أمره ﷺ بإخبارهم بكمال علم الله:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ تَخْفَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُونَ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران).

أمر الله ﷺ نبيه ﷺ أن يخبر عباده أنه يعلم السرائر والضمائر البواطن والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات. وجميع ما في الأرض والسموات لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، ﴿والله على كل شيء قدير﴾ وقدرته نافذة في جميع ذلك. (٢).

إخباره ﷺ بأن محبة الله تقتضي اتباع نبيه ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران).

الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على طريقة وسنة محمد ﷺ بأنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي ودينه في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٢٢٠ - ٢٢٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٣٦٠.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٣٦١.

رسول الله ﷺ أنه قال: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)).^(١)

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي يحصل لكم ما طلبتم من محبتكم إياه ومحبته إياكم، وهو أعظم من الأول، وقيل زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، والله غفور رحيم أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله من بركة اتباعه.^(٢)

أمره ﷺ بطاعة رسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ آل عمران.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أمر واضح وصريح بطاعة الرسول ﷺ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ دل على أن مخالفته كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل الذي لو كان الأنبياء، بل المرسلون، بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته.^(٣) مصداقاً لحديثه ﷺ: ((والذي نفسي بيده لو أن موسى كان فيكم حياً ما وسعه إلا أن تبعني)).^(٤)

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب النجش، ومن قال: لا يجوز ذلك البيع، ج ٢/٢٤؛ صحيح مسلم، كتاب الاقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، ج ٥/١٣٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٢٣١ - ٢٣٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٦١.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٢٣٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٦١.

(٤) انظر: حديث جابر عند الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/٣٨٧؛ وانظر: الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ١/١٧٩.

إخباره ﷺ بأنباء الغيب:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤) [آل عمران].

قال تعالى لرسوله ﷺ بعد ما أطلعه على جلية الأمر: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي نقصه عليك يا محمد ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبر عنهم معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر.

قال زكريا: ادفعوها لي فإن خالتها تحتي، فقالوا: لا تطيب أنفسنا، هي ابنة إمامنا، فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها التوراة، ففزعوا (فكفلها زكريا).

إخباره ﷺ بالآيات:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨) [آل عمران].

أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره. وهو مما قاله تعالى وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك.^(١)

إخباره ﷺ بالحق عن عيسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) [آل عمران].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٢٦٥ - ٢٦٨، ٢٩٢ - ٢٩٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٦٥،

﴿إن مثل عيسى عند الله﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿كمثل آدم﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾. فالذي خلق آدم من غير أب أو أم قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأخرى، وإن جاز إدعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى. ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً. فالرب ﷻ أراد أن يظهر قدرته لخلقته حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى. ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ أي هذا هو القول الحق من ربك يا محمد في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.^(١)

دعوته ﷺ للمحاجين من النصاري للمباهلة:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران].

أمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ أي نحضرهم في حال المباهلة ﴿ثم نبتهل﴾ أي ندعو بلعن الكاذب ﴿فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾ أي منا أو منكم.

وكان سبب نزول آية المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٢٩٣ - ٢٩٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٣٦٩.

نصارى نجران، قدموا المدينة فجعلوا يحاجون في عيسى عليه السلام ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًّا عليهم. وقد كانوا يعرفون أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه مما علموه من الكتب المتقدمة، ولكن حملهم جهلهم على الاستمرار في النصرانية.

فهم يدافعون عن قولهم بأنه ثالث ثلاثة، فلما كلمه ﷺ حبران من نجران، قال لهما رسول الله ﷺ: ((أسلما))، قالا: قد أسلمنا، قال: ((إنكما لم تسلما فأسلما))، قالا: بلى قد أسلمنا قبلك. قال: ((كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعائكما لله ولدًا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير)). قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه. ثم انصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب وهو من رؤسائهم، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لآعن قوم نبيًّا قط، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه الاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا محمدًا وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلًا

من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا ، فإنكم عندنا رضا. فقال رسول الله ﷺ : ((أتتوني العشيّة أبعث معكم القوي الأمين)). فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً ، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر ، سلم ثم نظر عن يمينه وشماله ، فجعلت أتناول له ليراني ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه ، فقال: ((اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه)). قال عمر رضي الله عنه: فذهب بها أبو عبيدة.^(١)

وفي رواية البخاري رحمه الله عن حذيفة رضي الله عنه قال: ((لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين)) ، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال: ((قم يا أبا عبيدة ابن الجراح)) فلما قام قال رسول الله ﷺ: ((هذا أمين هذه الأمة)).^(٢)

فرجع رسول الله ﷺ فلم يلاعنهم حتى إذا كان من الغد أتوه ، فكتب لهم كتاباً.^(٣)

دعوته ﷺ للنصارى إلى توحيد الله والاتفاق عليه:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١٦) آل عمران.

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين" ، ج ٤/ ٩٠٢: ابن القيم ، زاد المعاد ، ج ١/ ٣٧١.

(٢) انظر: صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب قصة أهل نجران ، ج ٥/ ١٢٠: وصحيح

مسلم ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، ج ٧/ ١٢٩.

(٣) انظر: الطبري ، تفسيره ، ج ٣/ ٦٩٥ - ٢٩٦: ابن كثير ، تفسيره ، ج ١/ ٣٦٩ - ٣٧١.

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم. حيث أمر رسول الله ﷺ بمخاطبتهم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾، والكلمة تطلق على الجملة المفيدة، ثم وصفها سبحانه بقوله ﴿سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، أي عدل وإنصاف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرهما تعالى بقوله تعالى: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، أي فإن تولوا عن هذه الدعوة فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.

وقد كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم واستشهد ببعض الآية.

((بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين.^(١) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾)).^(٢)

إسلام إبراهيم وبعده عن النصرانية واليهودية وتبعية محمد ﷺ له:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ

(١) والأريسيين هم المستضعفين من الفلاحين وعامة الناس.

(٢) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، ج ١/٥؛

انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٢٩٩ - ٣٠٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٧٣؛ وكتابي "رسول

الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٧٠٩.

وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ [آل عمران].

ينكر ﷺ على اليهود والنصارى حاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام، ودعوى كل طائفة أنه كان منهم. ورد أنه اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية، أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى؟ وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ الآية. وهذا إنكار عليهم، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون. فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجليتها. ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أي موحداً مخلصاً بعيداً عن الشرك قاصداً إلى الإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى: أحق الناس بالولاية لإبراهيم الخليل

الذين اتبعوه على دينه وهذا النبي، يعني محمدًا ﷺ، والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن لكل نبي ولاية من النبيين، وإن وليي منهم أبي و خليل ربي إبراهيم عليه السلام))، ثم قرأ: ﴿إِنْ أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

إخباره ﷺ بأن الهدى من الله وبرحمته:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ هَدًى اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ (٧٣) يُخْنِصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي لا تطمئنوا إلا لمن تبع دينكم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ هَدًى﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يهود يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم، ويساووكم فيه ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند

(١) انظر سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة آل عمران)، ج ٥/٢٢٣، حديث رقم: ٢٩٩٥؛

انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٣٠٢ - ٣٠٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٧٣.

ربكم، أي يتخذوه حجة عليكم؛ بما في أيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة، وتتركب الحجة في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، أخبرهم يا محمد أن الأمور كلها تحت تصرفه ﷺ، فهو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿أَيَّ اخْتَصَّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَا يُجَدُّ وَلَا يُوصَفُ بِمَا شَرَفَ بِهِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَهَذَا كَمُ بِهِ إِلَى أَكْمَلِ الشَّرَائِعِ﴾^(١).

إخباره ﷺ بمستوى الأمانة لدى أهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦) [آل عمران].

يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة، ويحذر الرسول ﷺ والمؤمنين من الاغترار بهم، كما أن منهم ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقَنْطَارٍ﴾ أي من المال ﴿يؤده إليك﴾، أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليه ﴿ومنهم من إِنْ تَأْمَنُهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾، أي بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقه، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ﴾ أي إنما

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٣١١ - ٣١٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٧٣ - ٣٧٤.

حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم غير اليهود من العرب وغيرهم، قال الله تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ في كل شيء.

ثم قال تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده وأتقى﴾ أي لكن من أوفى بعهده وأتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك، واتقى محارم الله، واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﷺ فإن الله يحب المتقين^(١).

أخذ الميثاق على النبيين للإيمان بمحمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران].

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم إلى عيسى عليه السلام. لما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته، ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾، أي مما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﷻ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقدرتم وأخذتم على ذلكم إصري ﷻ، يعني عهدي وميثاقي الشديد المؤكد بالإيمان بالأنبياء ومنهم خاتمهم محمد ﷺ ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٣١٥ - ٣١٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٣٧٤.

الشاهدين فمن تولى بعد ذلك ﴿أي عن هذا العهد والميثاق﴾ فأولئك هم الفاسقون ﴿١﴾.

روى علي بن أبي طالب وابن عمه ابن عباس ؓ: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث الله محمدًا ﷺ وهو حي ليؤمنن به وينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

وعن عبد الله بن ثابت ؓ قال ﷺ: ((والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ؑ، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين))^(١).

عن جابر ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني)). وفي بعض الأحاديث ((لو كان موسى وعيسى حين لما وسعهما إلا اتباعي)).^(٢)

فمحمد ﷺ خاتم الأنبياء، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء حينما اجتمعوا ببيت المقدس، وهو الشفيع في المحشر في الشفاعة لله ﷻ تحت العرش لفصل والقضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا به ﷺ.^(٣)

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/٤٧٠.

(٢) انظر: حديث الشفاعة عند البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ج ٨/٢٠٠. كما رواه غيره من المحدثين.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٣٢٨ - ٣٣٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٧٧ - ٣٧٨.

أمره ﷺ بالإيمان بما أنزل على الأنبياء قبله:

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥) [آل عمران].

يقول تعالى منكرًا على من أراد دينًا سوى دين الله الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي ﴿له أسلم من في السماوات والأرض﴾ طوعًا وكرهًا، فالؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهًا، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع. ﴿واليه يرجعون﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلا بعمله.

ثم قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني القرآن، ﴿وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب﴾ أي من الصحف والوحي، ﴿والأسباط﴾ وهم من أولاد - يعقوب - الاثني عشر، ﴿وما أوتي موسى وعيسى﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل، ﴿والنبيون من ربهم﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ يعني: نؤمن بجميعهم ﴿ونحن له مسلمون﴾ فالرسول ﷺ والمؤمنون معه يؤمنون بكل نبي أرسل، وكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية، أي من سلك طريقًا سوى ما شرعه الله لنبيه ﷺ فلن يقبل منه ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ (١).

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٣٣٤ - ٣٣٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٣٧٨.

كفر اليهود بعد شهادتهم أن الرسول حق:

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩) [آل عمران].

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول ﷺ ووضح لهم الأمر ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي يلعنهم الله ويلعنهم خلقه، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة، ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل لي من توبة؟ فنزلت ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٣٣٨ - ٣٤١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٧٨ - ٣٧٩.

قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿آل عمران﴾.

﴿قل صدق الله﴾ أي قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به وفيما شرعه في القرآن، ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾، أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية.^(١)

أمره بالإخبار بشهادة الله عليهم ومعرفتهم به ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنۢ ءَامَنَ تَبَغُّوهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿آل عمران﴾.

تعنيف من الله تعالى على لسان نبيه ﷺ للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصددهم عن سبيل الله بكل طاقتهم، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ حق من الله، بما عندهم من العلم من الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشروا به ونوهوا عنه من ذكر النبي الأمي خاتم الأنبياء، ورسول رب العالمين ﷺ، وقد توعدهم الله على ذلك، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ومعاملتهم الرسول محمد ﷺ المبشر به بالكذب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، وسيجزئهم على ذلك.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٣٥٣ - ٣٥٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٨١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٣٧٠ - ٣٧٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٨٥.

التأكيد على أنه ﷺ جاء بأيات الله الحق:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٨)
 ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (١٠٩) [آل عمران].

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمد ﷺ ﴿بالحق﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾، أي ليس بظالم لهم، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور؛ لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يظلم أحداً من خلقه. ولهذا قال تعالى: ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي الجميع ملك له وعبيد ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي هو وحده الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة. (١)

حديث عن توجهه ﷺ لغزوة أحد:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢١)
 ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٢) [آل عمران].

حين غدا رسول الله ﷺ لغزوة أحد من شوال سنة ثلاث من الهجرة. وسببها أن المشركين حين قتل أشرافهم يوم بدر قال أبناء من قتل ورؤساء من بقي لأبي سفيان: أرصد هذه الأموال لقتال محمد ﷺ فأنفقوها في ذلك، فجمعوا الجموع وأقبلوا في ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من جبل أحد تلقاء المدينة، فاستشار رسول الله ﷺ الناس: «أخرج إليهم أم يمكث بالمدينة» فأشار عبدالله بن أبي بالمقام بالمدينة، وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٣٨٨ - ٣٨٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٨٨.

بدرًا بالخروج إليهم. فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم وقالوا: لعننا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إن شئت أن نمكث، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يرجع حتى يحكم الله له» فسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كانوا بالشوط رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش مغضبًا؛ لكونه لم يرجع إلى قوله. واستمر رسول الله ﷺ سائرًا حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: «لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال». وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال في سبع مئة من أصحابه. وأمر على الرماة عبد الله ابن جبيرة والرماة يومئذ خمسون رجلاً، فقال لهم: «انضحوا الخيل عنا ولا تؤتينا من قبلكم، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا. وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم». وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وأعطى اللواء مصعب بن عمير وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مئتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل. ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار، ثم كان ترتيب الجيش أول النهار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ بِبِئْرِ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، أي تنزلهم منازلهم، وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم عند القتال.^(١)

التذكير بنصره ﷺ في غزوة بدر:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (آل عمران).

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٤١٤ - ٤١٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٩٥ - ٣٩٦؛ وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٢٨؛ ابن إسحاق السيرة النبوية، ص ٣٠٢.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ أي يوم بدر قبل أحد بسنة تقريباً، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، مع قلة عدد المسلمين يومئذ. فأعز الله رسوله ﷺ ومن معه، وأخزى الشيطان والمشركون معه، ولهذا قال تعالى ممتناً على المؤمنين المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، أي قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد.^(١)

تبشيره ﷺ بمدد من الملائكة:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ (١٢٤) ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (١٢٥) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ (١٢٦) ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١٢٦) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَآئِبِينَ﴾ (١٢٧) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨) ﴿آل عمران﴾.

الظاهر أن المدد بالملائكة المشار إليه كان يوم بدر. و﴿مسومين﴾ أي معلمين بسيما القتال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾، أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطبيباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، أي هو ذو العزة والقدرة والحكمة.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٤٢٠ - ٤٢١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٣٩٦.

ثم قال تعالى: ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾، أي أمركم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين، فقال: ﴿ليقطع طرفاً﴾ أي ليهلك أمة ﴿من الذين كفروا أو يكبتهم﴾، أي يخزيهم ويردهم يغيظهم لما لم ينالوا منكم ما أرادوا. ولهذا قال تعالى: ﴿أو يكبتهم فينقلبوا﴾ أي يرجعوا ﴿خائبين﴾، أي لم يحصلوا على ما أملوا. ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي، بل الأمر كله إلى الله، وليس لمحمد ﷺ ولا لغيره من الخلق.

في قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال تعالى: ﴿أو يتوب عليهم﴾ أي مما هم فيه من الكفر، فيهديهم بعد الضلالة ﴿أو يعذبهم﴾، أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فإنهم ظالمون﴾ أي يستحقون ذلك.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد، فقال: ((كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟))، فنزلت ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾.^(١)

أمره ﷺ بطاعة الله ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران).

أمر واضح من الله تعالى بطاعة رسوله ﷺ، وأن ذلك من أبواب الرحمة.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٤٢١ - ٤٣٣، ٤٣٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٩٧ - ٣٩٨؛

انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد، ج ٥/١٧٩.

حاله ﷺ والمؤمنون معه في أحد وتبئيتهم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ۚ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ۝١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنْبًا مُؤْجَلًا ۚ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ۝١٤٥ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۝١٤٦ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝١٤٧ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۝١٤٨﴾ [آل عمران].

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد وقتل من قتل منهم نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل. ورجع ابن قمئة إلى المشركين، فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه. فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال. ففي ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾، أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.

ذكر أن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار وهو يتشطح في دمه فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، وموتوا على ما مات عليه. فنزل: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ [آل عمران: من الآية ١٤٤].

وقال تعالى منكراً على من حصل له ضعف: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ أي رجعتم القهقري، ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾، أي الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حياً وميتاً. ومن المعروف أن الصديق عليه السلام، تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ.

حيث أقبل على فرس من مسكنه بالسبح فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها، فتيّم رسول الله ﷺ وهو مغطى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه وأكب عليه وقبله ودمعت عيناه، وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.

ثم أقبل على الناس في مسجد رسول الله ﷺ فقال: أجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر رضي الله عنه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أما بعد من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾. قال: فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر رضي الله عنه، فتلقاها منه الناس كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها. وثبت أن عمر رضي الله عنه قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، ففقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض.^(١)

وقوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾، أي

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٤/ ١٠٧٣؛ وكتابي "خليفة رسول الله ﷺ - ثاني اثنين - أبو بكر الصديق رضي الله عنه"، ص ٢٠٩.

لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له، ولهذا قال: ﴿كَتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾. وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، أي من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا، وقال هاهنا: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ أي سنعطيه من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم.

ثم قال تعالى مسلماً المؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ مَعَنَاهُ كَمْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ وَقُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ مِنْ أَصْحَابِهِ كَثِيرٌ. وَإِنَّمَا عَنِ الْقَتْلِ النَّبِيُّ وَبَعْضُ مَنْ مَعَهُ مِنَ الرِّبِّيِّينَ دُونَ جَمِيعِهِمْ. وَإِنَّمَا نَفَى الْوَهْنَ وَالضَّعْفَ عَمَّنْ بَقِيَ مِنَ الرِّبِّيِّينَ مِمَّنْ لَمْ يَقْتُلْ، وَكَأَنَّ اللَّهَ عَاتَبَ بِهِذِهِ الْآيَاتِ وَالَّتِي قَبْلُهَا مِنْ انْهَزَمَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكُوا الْقِتَالَ لَمَّا سَمِعُوا الصَّائِحَ يَصِيحُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ قُتِلَ، فَعَذَلَهُمُ اللَّهُ عَلَى فِرَارِهِمْ وَتَرَكَهُمُ الْقِتَالَ، فَقَالَ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿أَفَأِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم و﴿انقلبتم على أعقابكم﴾. وقيل: وكم من نبي قُتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير، أي وكأين من نبي أصابه القتل ومعه ربيون أي جماعات فما وهنوا بعد نبيهم، وما ضعفوا عن عدوهم، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر ﴿والله يحب الصابرين﴾.

كانوا أبراراً أتقياء. يعبدون الرب ﷻ. ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي ﴿وما ضعفوا﴾ ﴿وما استكانوا﴾ أي:

فما ارتدوا عن بصيرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله، ﴿وما استكانوا﴾، تخشعوا وما ذلوا لعدوهم، أي ما أصابهم ذلك حين قتل نبيهم ﴿والله يحب الصابرين﴾.

وما كان قولهم إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين أي لم يكن لهم أهداف غير ذلك ﴿فاتاهم الله ثواب الدنيا﴾، أي النصر والظفر والعاقبة ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾، أي جمع لهم ذلك مع هذا ﴿والله يحب المحسنين﴾.^(١)

الإخبار بحاله ﷺ ومن معه في أحد:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَّكُمْ مَا تَحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٥٥﴾ [آل عمران].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٤٥٣ - ٤٦٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٤٠٤ - ٤٠٥.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تحَسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ وعدهم الله النصر يوم أُحُدٍ، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للمسلمين، فحصل عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة، فتأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالثبات والطاعة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي أول النهار ﴿إِذْ تحَسُونَهُمْ﴾ أي تقتلونهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بتسليطكم عليهم ﴿حتى إذا فشلتم﴾ الفشل هو هنا الجبن ﴿وتنازعتم في الأمر وعصيتهم﴾ كما وقع للرماة ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ وهو الظفر منهم ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم، حين رأوا الهزيمة ﴿ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ ثم أدالهم عليكم؛ ليختبركم ويمتحنكم. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع، ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾. ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ عنى بهذا الرماة، وكان النبي ﷺ أقامهم في موضع ثم قال ﷺ: ((احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تتصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا)). فلما غنم النبي ﷺ دخل الرماة في العسكر وتركوا مواضعهم، فدخلت خيل المشركين مستفيدين من ترك الرماة لمواقعهم على أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب بعضهم بعضاً، وقتل من المسلمين ناس كثير، وصاح الشيطان في الناس: قتل محمد ﷺ، حتى طلع رسول الله ﷺ ففرح المسلمون بذلك حتى كأنه لم يصب أحد. فرقى وهو يقول: ((اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله)) ويقول مرة أخرى: ((اللهم إنه ليس لهم أن يعلونا)) حتى انتهى إلى المسلمين فمكث ساعة، فإذا بأبي سفيان يصيح في أسفل الجبل أعل هبل - مرتين يعني صنمهم - أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله ألا أجيبه؟ قال ((بلى)).

قال عمر رضي الله عنه: الله أعلى وأجل. فقال أبو سفيان، يوم بيوم بدر، الأيام دول، وإن الحرب سجال، فقال: عمر رضي الله عنه: لا سواء قتلانا في الجنة، وقتلاكُم في النار.^(١)

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن النساء كن يوم أُحد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر أنه ليس منا أحد يريد الدنيا، حتى أنزل الله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾.^(٢)

وقد أفرد النبي ﷺ في تسعة من الصحابة فلما رهقوه قال ﷺ: ((رحم الله رجلاً ردهم عنا)) قال: فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل، فلما رهقوه أيضاً قال: ((رحم الله رجلاً ردهم عنا)). فلم يزل يقول ذلك حتى قتل السبعة، وقد استشهد حمزة رضي الله عنه عم النبي ﷺ.^(٣)

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾، أي صرفكم عنهم إذ تصعدون أي في الجبل هاربين من أعدائكم، أي وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والكرة.^(٤)

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُبَإً يُغَشِّي طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٤/ ١٠٧٣ - ١٠٧٦.

(٢) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٤/ ١٠٧٣ - ١٠٧٦.

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد، ج ١/ ٤٦٣.

(٤) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٤٧٦ - ٤٧٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٤٠٨.

مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا ههنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ [آل عمران].

أي هذا قدر قدره الله وحكم حتم لا محيد عنه ولا مناص منه، وقوله تعالى: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم﴾، أي يختبركم بما جرى عليكم؛ ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال، ﴿والله عليم بذات الصدور﴾، أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر. ثم قال تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ أي ببعض ذنوبهم السابقة كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها، ثم قال تعالى: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ أي عما كان منهم من الفرار ﴿إن الله غفور حلیم﴾، أي يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم.^(١)

لين رسول الله ﷺ ورحمته بأصحابه وعفوه واستغفاره:

قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٤٨٢ - ٤٨٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٤١٢؛ انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٤/١٠٧٣ - ١٠٧٦.

يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنُ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴿آل عمران﴾.

يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره، ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ برحمة الله بك وبهم وهذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به وأشار إليه في الآية.

ثم قال تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ والفظ الغليظ، أي لو كنت قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: ((إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة إنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر كما أمرت الآية، وفي ذلك تطيب لقلوبهم وبحثاً عن الصواب، وقد شاورهم يوم بدر، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كراهية السخب بالأسواق، ج ٣/٢١؛

انظر: كتابي "موسوعة الشمائل النبوية"، ج ١/١٣٥.

وقوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾، قال ابن عباس ؓ وغيره: "ما ينبغي لنبي أن يخون ومحمد ﷺ سيد الأمناء".

ثم قال تعالى: ﴿ومن يغفل يأتي بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك في أحاديث متعددة.^(١)

وقوله تعالى: ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾، أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، وأجير من عقابه. ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير، ثم قال تعالى: ﴿هم درجات عند الله﴾ متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودرجاتهم في النار. قال تعالى: ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي يعلمها وسيوفيهما إياها، لا يظلمهم خيراً ولا يزيدهم شراً، بل يجازي كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾، أي أن رسولهم محمدًا ﷺ من جنسهم؛ ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به. قال تعالى: ﴿يتلوا عليهم آياته﴾ يعني القرآن ﴿ويزكيهم﴾ أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم. وهذه حال محمد ﷺ منة الله على عباده. ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ يعني القرآن والسنة، ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي من قبل هذا الرسول ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي لفي غي وجهل ظاهر جلي بين لكل أحد.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٤٩٤ - ٥٠٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٤١٣ - ٤١٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٥٠٤ - ٥٠٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٤١٧.

وصف مصابه ﷺ ومن معه في أحد:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعُنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران].

يقول تعالى: ﴿أولما أصابتكم مصيبة﴾، وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم ﴿قد أصبتم مثليها﴾ يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً، وأسروا سبعين أسيراً، ﴿قلتم أنى هذا﴾ أي من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ ببسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا مكانكم فعصيتهم، يعني بذلك الرماة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه سبحانه.

ثم قال تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك. ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾، يعني بذلك أصحاب عبد الله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه أثناء الطريق، فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة، ولهذا قال: ﴿أو ادفعوا﴾ يعني

كثروا سواد المسلمين، وقيل رابطوا، فتعللوا قائلين: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾..^(١) ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾، يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين؛ بسبب ما أصيب من سرااتهم يوم بدر. وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لا محالة. ولهذا قال تعالى: ﴿والله أعلم بما يكتُمون﴾، ثم قال تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي لو سمعوا مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قُتل، قال الله تعالى: ﴿قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون. والموت لا بُدَّ آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.^(٢)

إخباره ﷺ والأمة معه بمضي الشهداء إلى الجنة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١٦٩) ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١٧٠) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٧١) [آل عمران].

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار.

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٤/ ١٠٧٣ - ١٠٧٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٥٠٦ - ٥١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٤١٧ - ٤١٨.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنها نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله ﷺ إلى أهل بئر معونة، قال: لا أدري أربعين أو سبعين، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء فقعدها فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ قال: يا أهل بئر معونة، إني رسول رسول الله إليكم، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد عبده ورسوله، فآمنوا بالله ورسوله، فخرج إليه رجل من البيت برمح، فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم عامر بن الطفيل أجمعين، وأنزل الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾^(١).

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: نزلت هذه الآية في حمزة وأصحابه من شهداء أحد ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾. ولعلها شاملة لجميع من يُقتل في سبيل الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿فرحين بما آتاهم الله﴾ إلى آخر الآية، أي الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يُقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، ﴿يستبشرون﴾ أي يسرون بلحوق من خلفهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم. فيقولون يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٤٢.

الكرامة ، فإذا شهدوا القتال باشروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير، فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم ربهم: أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه، فاستبشروا بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية.

ثم قال تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ استبشروا وسروا لما عاينوا من وفاء الموعد وجزيل الثواب.

عن عكرمة قال: لما رجع المشركون عن أحد، قالوا: لا محمدًا قتلتم، ولا الكواعب أردفتهم، بئس ما صنعتم، ارجعوا، فسمع رسول الله ﷺ بذلك، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد.^(١) فخاف المشركون ورجعوا فكانت تعد غزوة.^(٢)

نعمة الله على رسوله ﷺ ومن معه في أحد:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى ديارِهِمْ فَأَتَوْا أَغْلًا (١٧٤) إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَكِينَةٍ مِنْ اللَّهِ وَهُمْ يُخَوِّفُونَ أَوْلِيَاءَهُمْ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُواكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥) وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) [آل عمران].

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٣٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٥١٢ - ٥١٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٤١٩ - ٤٢١.

وقوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ غزوة حمراء الأسد.^(١) وهي من المدينة على ثمانية أميال. وأصبحت من أحياء جنوب غرب المدينة حالياً.

وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين في أحد،^(٢) كروا راجعين إلى بلادهم. وفي سيرهم تدموا لم لا يتمموا على الرسول ﷺ والمسلمين معه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب المسلمين إلى السير وراءهم؛ ليخوفهم ويريههم أن بالمسلمين قوة وجلداً، بمن حضر الواقعة يوم أحد دون سواهم، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان؛ طاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ حتى بلغوا حمراء الأسد فر المشركون، فرجع رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾.

عن ابن عباس ؓ، قال: إن الله قذف في قلب أبي سفيان الرعب يوم أحد بعد ما كان منه ما كان، فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: ((إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب)).

وفي قوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا وبلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه، فلقى عيراً من التجار فقال: ردوا محمداً ولكم من الجعل كذا وكذا، وأخبروهم أنني قد جمعت لهم جموعاً وأنني راجع إليهم. فجاء التجار فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك. فقال النبي ﷺ: ((حسبنا الله ونعم الوكيل)). فأنزل الله هذه الآية.

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٣٦.

(٢) انظر: أصبح داخل حدود المدينة المنورة حالياً.

وقوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً﴾ الآية، أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكثرثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به، ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم ﴿بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾، مما أضر لهم عدوهم ﴿واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ أي يخوفكم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ أي إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا عليّ والجأوا إليّ، فإني كافيكم وناصركم عليهم.^(١)

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران].

ثم قال تعالى: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ أي أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك. ثم قال تعالى: ﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾، ثم قال تعالى: ﴿فآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، أي أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم﴾.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٥١٨ - ٥٢٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٤٢١ - ٤٢٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٥٢٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٤٢٤.

تأكيد أن ما جاء به ﷺ هو كمن قبله من الأنبياء:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُمُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نؤمنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) [آل عمران].

عن ابن عباس ؓ لما نزل قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ الآية.

وروي عن ابن عباس ؓ، قال: دخل أبو بكر الصديق ؓ بيت المدارس^(١) فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأخبارهم، ومعه خبر يقال له أشيع، فقال له أبو بكر ؓ: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل.

فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء. ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه. ولو كان غنياً ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر ؓ فضرب وجهه

(١) هي مدارس كانت لليهود في المدينة المنورة.

فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك يا عدو الله. فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ((ما حملك على ما صنعت؟)) فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قد قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجدد فنحاص ذلك، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر رضي الله عنه ﴿لقد سمع الله قول الذين﴾ ﴿قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿سنكتب ما قالوا﴾ تهديد ووعيد. ولهذا قرنه تعالى بقوله تعالى: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾، أي هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم لرسول الله، وسيجزئهم الله على ذلك شر الجزاء. ولهذا قال تعالى: ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾، أي يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

وقوله تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾، يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وغيرهما. قال الله ﷻ: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات﴾ أي بالحجج والبراهين، ﴿وبالذي قلت﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة، ﴿فلم قتلتموهم﴾ أي فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ إنكم تتبعون الحق وتتقادون للرسول.

ثم قال تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَإِنْ كَذَّبَكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلَ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات والحجج والبراهين القاطعة، ﴿وَالزَّبْرِ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي البين الواضح الجلي.^(١)

أخذ الميثاق على الأنبياء وأممهم بتصديقه ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُذِلَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٨٨) [آل عمران].

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره في الناس؛ ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه. فكنتموا ذلك، وتعرضوا لغضب الله، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم. وفي هذا تحذير للعلماء ولعامة العباد أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ: ((من ادعى دعوة كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة)).^(٢)

(١) ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب غلط تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ج ١/ ٧٣.

وفي الحديث ((المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)).^(١)

ورد أن مروان بن الحكم^(٢) قال: اذهب يا رافع لبوابه إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعين، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: وما لكم وهذه؟ إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَإِذ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ؛ لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ((سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه)).^(٣)

إخباره ﷺ بمصير الكفار:

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨)﴾ [آل عمران].

قوله تعالى: لا تنظر يا محمد ومعك المؤمنون، إلى ما هؤلاء الكفار

(١) صحيح مسلم، كتاب اللبس والزينة، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره، والتشبع

بما لم يعط، ج ٦/١٦٩.

(٢) وكان أميراً على المدينة في حينها.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا)، صحيح

مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفات المنافقين وأحكامهم،

ج ٨/١٢٢.

انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٥٤٧: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٤٢٨ - ٤٢٩.

مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم،
 ويصبحون مرتنين بأعمالهم السيئة. فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً،
 وجميع ما هم فيه ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾. وهكذا لما
 ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر أن مآلهم إلى النار قال تعالى بعده:
 ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً
 من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/ ٥٥٧ - ٥٥٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٤٣٣.

سورة النساء

الأمره بطاعته ﷺ مع طاعة الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝﴾ [النساء: ١٣-١٤].

أي هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة، بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له هي حدود الله، فلا تعتدوها ولا تجاوزوها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيها فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضهم بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، أي لكونه غير ما حكم الله به وضاد الله في حكمه، ولم يرض بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم.^(١)

شهادة الرسول ﷺ على الناس:

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝﴾ [النساء: ٤١-٤٢].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٦٣١ - ٦٣٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٤٥٠ - ٤٥١.

قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ يقول ﷺ مخبراً عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه: فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد، يعني الأنبياء.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((اقرأ علي)) فقلت: يا رسول الله اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ ((قال: نعم إني أحب أن أسمع من غيري))، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾، فقال: ((حسبك الآن)) فإذا عيناه تذرفان.^(١)

وقوله تعالى: ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾، أي لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ وعصيانهم للرسول ﷺ.^(٢) وقوله تعالى: ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئاً.^(٣)

سوء أدب يهود معه ﷺ:

قال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظ للاستماع، والبكاء عند القراءة والتدبر، ج ٢/ ١٩٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٩٤ - ٩٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٤٨٣.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٩٤ - ٩٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٤٨٣ - ٤٨٤.

وَأَطَعْنَا وَأَسَمِعَ وَأَنْظَرْنَا لَكَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ [النساء].

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ﷺ، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ، ليشتروا به ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا.

وقال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي منهم. وقوله تعالى: ﴿يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يتأولون الكلام على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله ﷻ؛ قصدًا منهم وافتراء ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، أي يقولون: سمعنا ما قلته يا محمد، ولا نطيعك فيه. وهو المراد. وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم وأنهم يتولون عن كتاب الله بعد ما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة، وقوله تعالى: ﴿وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ﴾ أي اسمع ما نقول، لا سمعت، واسمع غير مقبول منك وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله، ﴿وَرَاعِنَا لِيَا بِالسَّنْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾، أي يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم راعنا، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي ﷺ، ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿لِيَا بِالسَّنْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾، يعني بسبهم النبي ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ١٢٠ - ١٢٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٤٩١ - ٤٩٢.

إخبار الله ﷻ للنبي ﷺ عن الكذابين:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۚ﴾ (٤٩) **أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا** ﴿٥٠﴾ [النساء].

روي أنه نزلت هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ في اليهود والنصارى حين قالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة: ١٨]، وفي قولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصاري﴾ [البقرة: ١١١].

وأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾. قالوا: ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب، فأنزل الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ فيهم.

وقال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَزَكِي مَن يَشَاءُ﴾، أي المرجع في ذلك إلى الله ﷻ؛ لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل، وهو ما يكون في شق النواة. ثم قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي وكفى بصنيعهم هذا كذبًا وافتراءً ظاهرًا.^(١)

إخباره ﷻ عن كفر يهود وإيمانهم بالجبوت والطاغوت:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۚ﴾ (٥١) **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا** ﴿٥٢﴾ [النساء].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ١٢٩ - ١٣٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٤٩٥ - ٤٩٦.

والطاغوت ﴿الجبت، هو: السحر، والطاغوت الشيطان، وقيل الجبت الشرك والكهانة. والأصنام. ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾، أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم وقلة دينهم وكفرهم بكتاب الله الذي بين أيديهم.

وقد روي عن عكرمة رضي الله عنه قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: أنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً﴾ الآية^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وخطفان وبني قريظة حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وغيرهم أحبار يهود وأهل العلم سألهم المشركون في مكة: أديننا خير أم دين محمد؟ فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، فأنزل الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾.

وقد لعنهم الله تعالى: ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾.

وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة، فقد ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وقالوا لهم ذلك، ليستميلوهم إلى نصرتهم. وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه الخندق. فكفى الله شرهم، كما قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ورد الله

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢١٥؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٥٧.

الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴿الأحزاب: ٢٥﴾^(١)

الأمر بطاعة الله ﷻ والرسول ﷺ ورد الأمور لله والرسول:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ﴿النساء: ٥٩﴾

عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي؛ إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية، وأمر عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: اجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال: فهم القوم أن يدخلوها، قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: ((لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف)).^(٢)

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: ((السمع والطاعة على

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٢١٥؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٥٧؛

انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/١٣٣ - ١٣٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٤٩٦ - ٤٩٧.

(٢) انظر: رواية صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب: السمع والطاعة للإمام ما لم تكن

معصية، ج ٨/١٠٦؛ وانظر مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في

غير معصية، وتحريمها في المعصية، ج ٦/١٥.

المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا
سمع ولا طاعة)).^(١)

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع
والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا. وألاً ننازع
الأمر أهله، قال: ((إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان)).^(٢)

وفي الحديث الآخر عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((اسمعوا
وأطيعوا، وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة)).^(٣)

وعن أم الحصين رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع
يقول: ((ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا له
وأطيعوا))، وفي لفظ له رضي الله عنه: ((عبدًا حبشيًا مجذوعًا)).^(٤)

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ((وأولي الأمر منكم)) يعني أهل الفقه والدين، من
العلماء. والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء
والعلماء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((من أطاعني فقد أطاع

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن
معصية، ج ٨/١٠٥ - ١٠٦؛ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في
غير معصية، وتحريمها في المعصية، ج ٦/١٥٠.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: ((سترون بعدي أموراً
تنكرونها))، ج ٨/٨٨.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن
معصية، ج ٨/١٠٥.

(٤) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها
في المعصية، ج ٦/١٥٠؛ سنن الترمذي، كتاب الجهاد، باب ما جاء في طاعة الإمام،
ج ٤/٢٠٩، حديث رقم: ١٧٠٦.

الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني^(١) فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمرء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي اتبعوا كتابه، ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي خذوا بسنته، ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، قال مجاهد رحمه الله وغير واحد من السلف: أي إلى كتاب الله وسنة رسوله. وهذا أمر من الله بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة. فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة، ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي وأحسن عاقبة ومآلاً^(٢).

حال اليهود والمنافقين مع حكم ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ

(١) صحيح البخاري، كتاب الاحكام، باب قول الله تعالى: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) [النساء: ٥٩]، ج ٨/١٠٤؛ انظر: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمرء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ج ٦/١٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/١٤٩ - ١٥٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٥٠٠ - ٥٠٢.

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ [النساء].

إنكار من الله على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله.

ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من المنافقين ورجل من اليهود تخصاماً، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، لعلمه بإنصاف الرسول ﷺ، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف، لإمكانية رشوته. وقيل: في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، وقيل غير ذلك. والآية أعم من الحدث، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة. وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا، ولهذا قال تعالى: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطَّاغُوتِ﴾ إلى آخرها. وقوله تعالى: ﴿يصدون عنك صدوداً﴾، أي يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك.

ثم قال تعالى في ذم المنافقين: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾، أي يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك وتحاكمنا

إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق، أي المداراة والمصانعة، لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾. هذا الضرب من الناس هم المنافقون، واللّه يعلم ما في قلوبهم وسيجزئهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية، فاكثف به يا محمد فيهم، فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم. ولهذا قال له: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي وانهم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر، ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم.^(١)

الأمر باتباع حكم الرسول ﷺ وحال المنافقين:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝٦٤﴾ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء].

يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع﴾، أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم. وقوله تعالى: ﴿بإذن الله﴾ يعني لا يطيعهم إلا من وفقته لذلك عن أمره وقدره ومشئته وتسليطه إياكم عليهم. وقوله تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ الآية، يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ، فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم.

وقوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾،

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ١٥٥ - ١٦٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٠٢.

يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا﴾، أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة.^(١)

فضل الله على من أطاع الله ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦١) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) [النساء].

روى سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: ((يا فلان ما لي أراك محزونًا؟))، فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه، فقال ﷺ: ما هو؟ قال: نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد النبي ﷺ شيئاً، فأتاه جبريل عليه السلام بهذه الآية ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، فبعث النبي ﷺ فيبشره.^(٢)

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من عند الله برحمته، وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾، أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.^(٣)

(١) انظر: ج٤/ ١٦٠ - ١٦٣: ابن كثير، تفسيره، ج١/ ٥٠٤ - ٥٠٥.

(٢) انظر: الطبري في تفسيره، ج٤/ ١٦٧.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج٤/ ١٦٥ - ١٦٧: ابن كثير، تفسيره، ج١/ ٥٠٥ - ٥٠٧.

حال البعض في الجهاد مع رسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩﴾ [النساء].

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، ومأمورين بمواساة الفقراء منهم وبالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال؛ ليشتفوا من أعدائهم. ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة.

فلهذا لم يؤمر ﷺ بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه وخافوا مواجهة الناس خوفاً شديداً، ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾، أي لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويتم الأولاد، وتأييم النساء.

عن ابن عباس ؓ: أن عبد الرحمن بن عوف ؓ وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة، قال ﷺ: ((إني أمرت بالعفو فلا تقتاتلوا القوم)). فلما حوله الله ﷻ إلى المدينة أمره بالقتال، فكفوا، فأنزل الله: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا

أيديكم ﴿ الآية...^(١)

وقيل لما فرض عليهم القتال: ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾. قال الله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾.

وقيل إن هذه الآية نزلت في اليهود.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ أي آخرة المتقي خير من دنياه.

وقوله تعالى: ﴿ولا تظلمون قليلاً﴾ أي من أعمالكم، بل توفونها أتم الجزاء وهذا ترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد.

وقرأ الحسن: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ قال: رحم الله عبداً صاحبها على حسب ذلك، وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه.

وقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ولا ينجو منه أحد منكم.

وقوله تعالى: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة منيعة، فلا يغني حذر وتحصن من الموت.

وقوله: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾ أي خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك، ﴿يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة﴾ أي قحط وجذب ونقص

(١) انظر: أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد، ج ٣/٦.

(٢) انظر: الطبري في تفسيره، ج ١٧٤/٤.

في الثمار والزروع أو موت أولاد أو إنتاج أو غير ذلك ﴿يقولوا هذه من عندك﴾ أي من قبلك بسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك، فهم تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا: ﴿هذه من عندك﴾ يقولون: بتركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء، فأنزل الله ﷻ: ﴿قل كل من عند الله﴾، فقله: قل كل من عند الله، أي الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر.

عن ابن عباس ؓ قل: كل من عند الله، أي الحسنه والسيئة.. ثم قال تعالى منكرًا على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم وكثرة جهل وظلم: ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾. ﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ أي بذنبك وأنا الذي قدرتها عليك، وقوله تعالى: ﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾ أي تبلغهم شرائع الله وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ أي على أنه أرسلك وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تبلغهم إياه وبما يردون عليك من الحق كفرًا وعناداً^(١).

طاعة الرسول ﷺ مع طاعة الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ [النساء].

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله ومن

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ١٧٣ - ١٨٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٠٧ - ٥١٠.

عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي ما عليك منه إن عليك إلا البلاغ، فمن اتبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي خرجوا وتواروا عنك ﴿بَيْتَ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي استسروا فيما بينهم بغير ما أظهروه لك، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم، فهو عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزئهم على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضاً ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأناب إليه.^(٢)

(١) صحيح البخاري، كتاب الاحكام، باب قول الله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) [النساء: ٥٩]، ج ٨/١٠٤؛ انظر: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ج ٦/١٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/١٨٠ - ١٨٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٥١٠.

رد الأمر لرسول الله ﷺ وأولي الأمر:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ ۖ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَتَبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة.

روى المغيرة بن شعبه رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال، ^(١) أي الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبين. وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: ((بئس مطية الرجل زعموا)). ^(٢)

عند مسلم في صحيحه ((من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين)). ^(٣)

ولا بد من رد الأمور قبل إشاعتها إلى رسول الله ﷺ في أيامه، وإلى أولي الأمر المستتبطين من الحكام والعلماء والخبراء.

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: (لا يسألون الناس إلحافاً). وكم الغنى ...، ج ٢/١٣١؛ انظر: صحيح مسلم كتاب الأقضية باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة. والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه؛ ج ٥/١٣٠.

(٢) انظر: سنن أبو داود، كتاب الأدب، باب ليفي زعموا، ص ٨٩٩، حديث رقم: ٤٩٧٢.

(٣) انظر: صحيح مسلم، مقدمة، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكاذبين، والتحذير من الكذب على الرسول، ج ١/٦.

ومعنى يستتبطونه أي يستخرجونه من معادنه، يقال: استتبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قعورها. وقوله تعالى: ﴿لَاتَبِعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني القليل من المؤمنين.

أمره ﷺ بالقتال في سبيل الله ومن معه:

قال تعالى: ﴿فَقَنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

عن البراء رضي الله عنه قال: لما نزلت على النبي ﷺ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية قال لأصحابه: ((وقد أمرني ربي بالقتال فقاتلوا)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي على القتال ورغبهم فيه وشجعهم عليه، كما قال لهم ﷺ يوم بدر وهو يسوي الصفوف: ((قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض)).^(٢)

وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها)). قالوا: يا رسول الله أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: ((إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر

(١) انظر: كتابي، رسول الله وخاتم النبيين ﷺ، ج ٣/٥٥٥.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، ج ٦/٤٤: انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين" ج ٣/٦٠٠.

أنهار الجنة)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تتبعهم همهم على مناجزة الأعداء. ومدافعهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم. وقوله تعالى: ﴿والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة.

تعليمه ﷺ صلاة الخوف:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء].

صلاة الخوف نزلت في هذه الآية، وقد كانت صلاة الخوف مشروعة في الخندق.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف، مع ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد، واستدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبة لما ساغ ذلك.

عن أبي عياش الزرقى قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعُسفان، فاستقبلنا

(١) انظر: البخاري، صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله.

يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي، ج ٣/٢٠٢.

المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصفنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا، جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرين قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم، ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين: مرة بعُسفان، ومرة بأرض بني سليم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام النبي ﷺ وقام الناس معه، فكبروا وكبروا معه، وركع وركع ناس منهم، ثم سجد وسجدوا معه، ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا وحرسوا إخوانهم، وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه والناس كلهم في الصلاة، ولكن يحرس بعضهم بعضاً.^(١)

وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الخوف، باب يحرس بعضهم بعضاً في الصلاة الخوف، ج ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧.

حذرکم ﴿﴾، أي بحيث تكونون على أهبة الاستعداد إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿﴾ إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴿﴾^(١)

التأكيد على الصلاة وأنها موقته:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾^(١٣) [النساء].

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف، وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها، ولكن هاهنا أكد تعالى؛ لما وقع فيها من التخفيف في أركانها. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي في سائر أحوالكم، ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي فإذا أمنتكم وذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أي فأتَمُّوها وأقيموها كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وركوعها، وسجودها، وجميع شؤونها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه: أي مفروضاً. وللصلاة وقت كوقت الحج، وقاله ابن مسعود رضي الله عنه، ويعني كلما مضى وقت جاء وقت^(٢).

مع رسول الله ﷺ في آيات بينات وأمره بالاستغفار وعدم الجدل مع المختانين:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٢٥١ - ٢٦٠: ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٢٦ - ٥٢٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٢٦١ - ٢٦٣: ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٢٨ - ٥٢٩.

تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَحْفُونَ
مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ
اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ [النساء].

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾
أي هو حق من الله، في خبره وطلبه، وقوله تعالى: ﴿لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا
أَرَاكَ اللَّهُ﴾.

عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج
إليهم فقال: ((ألا إنما أنا بشر وإنما أقضي بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم
أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له. فمن قضيت له بحق مسلم
فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها)).^(١)

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن نضراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض
غزواته، فسرق درع لأحدهم، فأظن بها رجلاً من الأنصار. فأتى صاحب
الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي، فلما رأى السارق
ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء، وقال لنفر من عشيرته: إني غيبت
الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده، فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً
فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء وإن صاحب الدرع فلان، وقد أحطنا
بذلك علماً، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإنه إن لم
يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس.

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاحكام، باب: القضاء في كثير المال وقليله، ج ٨/ ١١٧.

فأنزل الله ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ الآية.

ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ الآية، يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين، ثم قال ﷺ: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه﴾ [النساء: ١١٠]، يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ثم قال تعالى: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ [النساء: ١١٢] يعني السارق والذين جادلوا عن السارق.^(١)

تثبيته ﷺ بفضل من الله ورحمته:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾. عن قتادة الأنصاري عن أبيه، لما أنزل الله فضل القضية التي التبست بفعل بعض الشهود وجلاها لرسول الله ﷺ امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعصمته له، وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن والحكمة، وهي السنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٢٦٥ - ٢٧١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٢٩ - ٥٣٠.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٢٧٥ - ٢٧٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٣٢.

مشاققة الرسول ﷺ والهدى معه ضلال مهلك:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١١٥) [النساء].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم ﷺ، والإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكر الطويل. ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجاً له، وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة.^(١)

الجواب على من يستفتيه ﷺ في النساء والأمر بالعدل:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَىٰ النِّسَاءَ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَكْرَهُنَّ ۚ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (١٢٧) [النساء].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٢٧٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٣٣.

روى البخاري رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾ - إلى قوله - ﴿وترغبون أن تتكحوهن﴾، قالت عائشة رضي الله عنها: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها، فأشركته في ماله حتى في العذق، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلاً فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها فنزلت هذه الآية...^(١)

وقالت عائشة رضي الله عنها: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله تعالى: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ الآية، قال: والذي ذكر الله أنه يتلى عليه في الكتاب الآية الأولى التي قال الله: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ [النساء: ٣] قالت رضي الله عنها: وقول الله: ﴿وترغبون أن تتكحوهن﴾. ذلك أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره الله أن يمهرها أسوة بأمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسع الله ﷻ. وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمايتها عنده أو في نفس الأمر، فنهاه الله ﷻ أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها. وقال في قوله تعالى: ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله تعالى: ﴿لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾، فنهى الله عن ذلك وبين لكل ذي سهم

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم

فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء، ج ٥/ ١٨٤: صحيح مسلم، كتاب

التفسير، مقدمة كتاب التفسير، ج ٨/ ٢٣٩.

وعضلها: ظلّمها ومنع وليها لها من الزواج بلا سبب مقنع.

سهمه وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ العدل والحق وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ الحث على فعل الخيرات وامتنال للأوامر، وإن الله عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه.^(١)

الأمر بالإيمان بالله وكتابه ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١٣٦).

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه. وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقديره وتبنيته والاستمرار عليه. فأمرهم هنا بالإيمان به ورسوله وقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ يعني القرآن الكريم، ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾، أي فقد خرج عن طريق الهدى وبعد عن القصد كل البعد.^(٢)

تبشيرهم ﷺ المنافقين بالعذاب:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (١٣٧) ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) الَّذِينَ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٢٩٧ - ٣٠٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٣٨ - ٥٣٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٣٢٤ - ٣٢٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٤٥٢ - ٤٥٣.

يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ [النساء].

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه، ثم رجع واستمر على ضلاله حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، يعني أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالموودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، فبشرهم بذلك يا محمد.

وقال الله تعالى منكراً عليهم فيما سلكوه من موالات الكافرين: ﴿أَيُّبِتُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾، ثم أخبر الله تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ولمن جعلها له. والمقصود من هذا الحث على طلب العزة من جناب الله والإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾، أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم

بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقررتهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه، فلهذا قال تعالى: ﴿إِنكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ﴾ في المآثم.^(١)

رد على أسئلة أهل الكتاب المتعسفة:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ۖ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ۖ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤].

سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة، وقال ﷺ: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرينا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ وطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم.

وقوله تعالى: ﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى ﷺ، وما كان من إهلاك عدوهم فرعون وجميع جنوده في اليم.

قال الله تعالى: ﴿فعفونا عن ذلك وآتيناهم موسى سلطاناً مبيناً﴾ ثم قال تعالى: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾، وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى ﷺ والتزموا به، ورفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٣٢٧ - ٣٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٤٣.

إلى فوق رؤوسهم، خشية أن يسقط عليهم، ﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ وأُمرُوا أن يدخلوا باب بيت القدس سجداً ويستغفروا، فخالفوا ما أُمرُوا به من القول والفعل، فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون: خلاف الاستغفار، ثم قال تعالى: ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ أي وصيئناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم، ما دام مشروعاً لهم ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ أي شديداً، فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله.^(١)

الوحي له ﷺ كالوحي للأنبياء قبله:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

قال بعض علماء يهود: يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله في ذلك من قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ إلى آخر الآيات.

فلما تلاها عليهم وأخبرهم بأعمالهم الخبيثة جحدوا كل ما أنزل الله تعالى، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، ولا على موسى ولا على عيسى ولا على نبي من شيء.

ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ، كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين، فقال تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وآتينا داود زبوراً﴾، والزبور اسم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٣٤٥ - ٣٤٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٤٨ - ٥٤٩.

الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام.

إخباره ﷺ بمن قبله من الأنبياء عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤) ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥) [النساء].

وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي من قبل هذه الآية، وآخرهم محمد ﷺ. (١)

وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي خلقاً آخرين لم يذكرُوا في القرآن. ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ عندما أرسله الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب، وقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر. (٢)

شهادة الله ﷻ لنبيه ﷺ:

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٣٦) [النساء].

لما تضمن قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك﴾ إلى آخر السياق جرى هنا إثبات

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٣٦٢ - ٣٦٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٥٥٩ - ٥٦٠.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٣٦٧ - ٣٦٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٥٦٠ - ٥٦٣.

نبوته ﷺ والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب. قال الله تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك. فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولهذا قال تعالى: ﴿أنزله بعلمه﴾ أي في علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته المقدسة ﷻ، التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله بها.

عن عطاء بن السائب، قال: أقراني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾. قوله تعالى: ﴿والملائكة يشهدون﴾ أي بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك مع شهادة الله تعالى بذلك ﴿وكفى بالله شهيداً﴾. عن ابن عباس ؓ قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقال لهم: ((إني لأعلم والله إنكم لتعلمون أني رسول الله))، فقالوا: ما نعلم ذلك. فأنزل الله تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾.^(١)

تأكيد أن الحق معه ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٣٦٩ - ٣٧٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٦٣.

خيراً لكم﴾، أي قد جاءكم محمد ﷺ بالهدى ودين الحق والبيان الشافي من الله ﷻ، فأمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيراً لكم. ثم قال تعالى: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات والأرض﴾، أي فهو غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم. وقال هاهنا: ﴿وكان الله عليماً﴾ أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه، ﴿حكيماً﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.^(١)

افتاؤه ﷺ في الكلالة:

قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ^١ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(١٧٦)﴾ [النساء].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: نزلت ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ فجاء الجواب عن الكلالة ﴿قل الله يفتيكم﴾ فيها والكلالة واشتقاقها، وقد فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ومن الناس من يقول: الكلالة من لا ولد له، كما دلت عليه هذه الآية ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾، وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ، كان عهد إلينا فيهن عهداً ننهي إليه وذكر منهن: الجد والكلالة.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٣٦٩ - ٣٧٠، ٣٧١ - ٣٧٥: ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٦٣.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب في نزول تحريم الخمر، ج ٨/ ٢٤٥: صحيح البخاري، كتاب الفرائض، باب: (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك....)، ج ٥/ ١٨٥.

وذكر أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال في خطبته أن الآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله مما جرت الرحمة من العصبية.

قوله تعالى: ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ أي مات.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ الراجح أنه الذي لا ولد له ولا والد، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾، ولو كان معها أب لم تترك شيئاً؛ لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكلية.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾، أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله، وليس لها ولد أي ولا والد؛ لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾. هذا حكم العصابات من البنين وبني البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم، أُعطي الذكر مثل حظ الأنثيين. وقوله تعالى: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يفرض لكم فرائضه، ويحد لكم حدوده، ويوضح لكم شرائعه. وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي لتلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: هو ما عدا الولد والوالد. وهذا الذي قاله

الصديق ﷺ عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه. وهو الذي يدل عليه القرآن الكريم، كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله تعالى: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٣٧٨ - ٣٨٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٦٦ - ٥٦٩.

سورة المائدة

إجابته على سؤال عن الحلال من الطعام:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٤﴾ [المائدة].

ذكر تعالى ما حرمه في الآية السابقة من الميتة وما معها من الخبائث الضارة لمتناولها، إما في بدنه أو في دينه أو فيهما، ثم قال تعالى بعدها موجهاً الآية لرسول الله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾.

روي أن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين رضي الله عنهما سألا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله قد حرم الله الميتة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ الذبائح الحلال الطيبة لهم. والطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق، ومن الطعام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها، والطيبات من الرزق، وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح، وهي الكلاب والفهود والصقور وأشباهها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الجوارح هن الكلاب المعلمة، والبازي، وكل طير يعلم للصيد والجوارح، يعني الكلاب.

وقوله تعالى: ﴿مكلبين﴾ وهي الجوارح، أي وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكليات للصيد، وذلك أن تقتصه بمخالبها أو أظفارها، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته لا بمخالبه وظفره، أنه لا يحل له، كما هو رأي طائفة من العلماء. ولهذا قال تعالى: ﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه، ولا يمسكه لنفسه، ولهذا قال تعالى: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ فمتى كان الجارح معلماً وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله حل الصيد وإن قتله.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله! فقال: ((إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك)). قلت: وإن قتلن؟ قال: ((وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره فأصيب))، قلت له: فإني أرمي بالمعروض الصيد فأصيب؟ فقال: ((إذا رميت بالمعروض فخرق فكله، وإن أصابه بعرض فإنه وقيذ فلا تأكله))، وفي لفظ ((وإذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدرسته حياً، فاذبحه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله، فإن أخذ الكلب ذكاته)).^(١)

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب إذا أكل الكلب، ج ٦/٢٢٠؛ صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الصيد بالكلاب المعلمة، ج ٦/٥٦. (وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٤/٨٩٤، "وفادة عدي بن حاتم").

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾،
أي عند إرساله له كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم ^(١).

بيان لأهل الكتاب بصدق رسالته ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة].

يقول تعالى مخبراً عن نفسه ﷺ أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض: عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنه بعثه بالبينات والحق وبفضح الباطل، فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾، أي يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروا ولا فائدة في بيانه.

ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، أي طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي ينجيهم من

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٤٢٧ - ٤٤٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٥٨١ - ٥٨٤. (وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٤/٨٩٤، "وفادة عدي بن حاتم").

المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة.^(١)

بيان لأهل الكتاب عن البشير النذير ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٩] المائدة.

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمد ﷺ خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال تعالى: على فترة من الرسل، أي بعد مدة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم عليه السلام، كانت ست مئة سنة تقريباً، وهي الفترة بين عيسى ابن مريم عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل وبين محمد ﷺ خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إن أولى الناس بابن مريم لأنا، والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي)).^(٢) والمقصود أن الله بعث محمد ﷺ على فترة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عمم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين بالتوحيد وبقايا من دين الأنبياء الأقدمين، أهل الكتاب.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٥٠٢ - ٥٠٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٥٩٧.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها)، ج ٤/ ١٤٢؛ صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، ج ٧/ ٩٧.

روي أن النبي ﷺ خطب ذات يوم، فقال في خطبته: ((... إن الله ﷻ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من بني إسرائيل أهل الكتاب...)).^(١)

فالضلال عم معظم أهل الأرض حتى بعث الله ﷻ محمداً ﷺ، فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء والشرعة الغراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾، أي لئلا تحتجوا وتقولوا يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم بشير ونذير يعني محمداً ﷺ، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهو قادر على عقاب من عصاه، وثواب من أطاعه ﷻ...^(٢)

مواساته ﷺ والرد على يهود:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في

الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ج ٨/١٥٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٥٠٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٥٩٨ - ٥٩٩.

الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ [المائدة].

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ﷺ، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله ﷻ ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ أي أظهرُوا الإيمان بالسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون ﴿ومن الذين هادوا﴾ أعداء الإسلام وأهله من يهود. وهؤلاء كلهم ﴿سماعون للكذب﴾ أي مستجيبون له، منفعلون عنه، ﴿سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾، أي يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد. وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام ويُنهونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ أي يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون. ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ قيل: إنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، فقد روي عن عبدالله بن عمر ؓ: أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامراًة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ((ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟)) فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبدالله بن سلام ؓ: كذبتُم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم؛ فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدالله بن سلام ؓ: ارفع يدك فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت

الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة.^(١)

فقال النبي ﷺ: ((اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه)) قال: فأمر به فرجم، فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخْذَوْهُ﴾ أي يقولون: اتوا محمدًا فإن أفتاكمم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكمم بالرجم فاحذروا، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال في اليهود، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.^(٢)

فالأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة. وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة. ولكن هذا بوحى خاص من الله ﷻ إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك، ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطؤوا على كتمانهم وجحدته وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة. فلما اعترفوا به مع علمهم على خلافه بان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدولهم إلى تحكيم رسول الله ﷺ إنما كان عن هوى منهم، وشهوة لموافقة آرائهم، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ أي: الجلد والتحميم، فخذوه، أي اقبلوه، ﴿وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ أي من قبوله واتباعه.

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)، وصحيح مسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود، أهل الذمة، في الزنى، ج ١٢٢/٥.
(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود، أهل الذمة، في الزنى، ج ١٢٣/٥.

وقال الله تعالى: ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم سماعون للكذب﴾، أي الباطل ﴿أكالون للسحت﴾ أي الحرام. ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه وأنى يستجيب له، ثم قال لنبيه: ﴿فإن جاؤك﴾ أي يتحاكمون إليك يا محمد بشرع الله ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً﴾ أي فلا عليك أن لا تحكم بينهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق، بل ما يوافق أهواءهم، ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ أي بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿إن الله يحب المقسطين﴾.

ثم قال تعالى منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة، فهم يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدًا، ثم خرجوا عن حكمه، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم، فقال تعالى: ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾. ثم مدح تعالى التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾، أي لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها، ﴿والريانيون والأحبار﴾، أي وكذلك الريانيون منهم، وهم العلماء العباد، والأحبار وهم العلماء ﴿بما است حفظوا من كتاب الله﴾، أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به، ﴿وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون﴾ أي لا تخافوا منهم وخافوا مني، ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم

الكافرون ﴿١﴾.

حكمه ﷺ في أهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة].

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام مدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها قبل نزول القرآن الكريم؛ حيث كانت سائغة الاتباع. وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم محمدًا ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾، أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به - سابقاً -، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٥٧٢ - ٥٩٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٦١٨ - ٦٢٢.

قوله تعالى: ﴿ومهيئاً عليه﴾ أي مؤتمناً عليه. فالقرآن أمين على كل كتاب قبله. وقيل شهيداً ومقيماً وحاكماً على ما قبله من الكتب، واسم المهيمن يتضمن هذا كله. فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله. فهذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها؛ حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات، ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها.

وقوله تعالى: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ مخيراً إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم، فنزلت ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾.

فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا. وقوله تعالى: ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله. ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أي لا تتصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء. وقوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ أي سبيلاً وسنة وشرعية.

وقد نسخ الله ﷻ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم ﷺ. ولهذا قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم﴾، أي أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة؛ ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويثيبهم على طاعته، أو يعاقبهم على معصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. ﴿في ما آتاكم﴾ يعني من الكتاب والسنة.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، وهي طاعة الله واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الكريم الذي هو آخر كتاب أنزله. ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، أي فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة والحجج البالغة والأدلة الدامغة. وقال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعني أمة محمد ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ﴾ بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴿تَأْكِيدَ﴾ لما تقدم من الأمر بذلك النهي عن خلافه.

ثم قال تعالى: ﴿وَاحْذَرُوا الْيَهُودَ أَنْ يَدْلُسُوا عَلَيْكَ الْحَقَّ﴾ فيما يُنهونه إليك من أمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة كفرية خونة، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، أي فاعلم أن ذلك كائن عن قدر الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى؛ لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم، ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أي إن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناكبون عنه.

وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من

الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.^(١)

تنبيهه ﷺ لمرضى القلوب:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥١﴾ فترى الذين في قلوبهم مرض يسرعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ٥٢ ويقول الذين ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعَمْرُكُم حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ ٥٣﴾ [المائدة].

ينهى الله ﷻ عباده المؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك، فقال: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وريب ونفاق يسارعون فيهم، أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر، ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾، أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك.

قال الله تعالى: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح﴾ قيل فتح مكة وغلبة الإسلام. ﴿أو أمر من عنده﴾. ومن ذلك ضرب الجزية على اليهود والنصارى، ﴿فيصبحوا﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿على ما أسروا في أنفسهم﴾ من الموالاته ﴿نادمين﴾ أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٦٠٦ - ٦١٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٦٢٥ - ٦٢٧.

شيئاً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين، لا يُدرى كيف حالهم، فتبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرهم أنهم من المؤمنين، ويحلفون على ذلك ويتأولون فيبان كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾.

وقوله تعالى: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾ حينئذ يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾.

وفي غزوة بني النضير ورد عن عاصم بن عمر بن قتادة رضي الله عنه قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبي ابن سلول حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد أحسن في موالي وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطلأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه. قال: فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: "أرسلني"، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُللاً، ثم قال: ويحك أرسلني. قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمئة حاسر، وثلاثمئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة إني امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله ﷺ: "هم لك".^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٦١٥ - ٦٢١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٢٧ - ٦٢٨؛ وانظر: كتابي: "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٤٥.

ولاية الله ورسوله للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ٥٥ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة].

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة، وأقوم سبيلاً، أي بممتنع ولا صعب. وقال تعالى هاهنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ أي يرجع عن الإسلام والحق إلى الباطل، ومنهم أهل الردة أيام أبي بكر رضي الله عنه ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ هو أبو بكر وأصحابه رضي الله عنهم، وقال بعض السلف: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ والفتوح من مختلف القبائل.

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعزراً على خصمه وعدوه.

وقوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عدل عادل.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أمرني خليلي صلى الله عليه وسلم بسبع: ... منها "ألا أخاف في الله لومة

لائم".^(١)

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهد، فإنه لا يقرب من أجل ولا يبعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم)).^(٢)

﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾، أي من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له، ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه.

وقوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ أي ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين.

وقوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين والمساكين. وأما قوله: ﴿وهم راکعون﴾ أي من أهل الركوع.

عن ابن عباس رضي الله عنه: من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا.

وقد وعدهم الله بالغلبة. قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾.^(٣)

رده ﷺ على أهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۢ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٥٠٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٥٩٨ - ٥٩٩. والحديث رواه

الإمام أحمد في مسنده، ج ١/١٠٩.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/٥٠.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٦٢٨ - ٦٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٢٩ - ٦٣١.

قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثْمِ وَالْعُدُونِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْأَثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ [المائدة].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هل تتقمنون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾، أي هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة، وفي الحديث: ((ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فآغناه الله)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على ﴿أَن آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وآمنا بأن أكثركم فاسقون، أي خارجون عن الطريق المستقيم.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي أبعد من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ لما غضب الله على اليهود، فمسخهم جعلهم مثلهم.^(٢)

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: (وفي الرقاب ... وفي سبيل

الله)، ج ٢/١٣٩: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، ج ٣/٦٨.

(وابن جميل: رجل من الأنصار).

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد، ج ١/٣٩٥.

وقوله تعالى: ﴿وعبد الطاغوت﴾ أي وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي خدامه وعبيده. والمعنى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنون في ديننا، الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك شر مكاناً﴾ أي مما تظنون بنا ﴿وأضل عن سواء السبيل﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾. وهذه صفة المنافقين منهم أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿وقد دخلوا﴾ أي عندك يا محمد ﴿بالكفر﴾ أي مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثم خرجوا من عندك، وهو كامن فيها لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر، ولهذا قال تعالى: ﴿وهم قد خرجوا به﴾ فخصهم به دون غيرهم. وقوله تعالى: ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ أي والله عالم بسرئيرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقهم خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء. وقوله تعالى: ﴿وترى كثيراً منهم يسمعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت﴾، أي يبادرون إلى ذلك من تعاظمي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكلهم أموالهم بالباطل، ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾، أي لبئس العمل كان عملهم، وبئس الاعتداء اعتداؤهم.

وقوله تعالى: ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون﴾ يعني هلا كان ينهاهم الربانيون والأخبار عن تعاظمي تلك الآثام. والربانيون هم العلماء وأرباب الولايات عليهم. والأخبار هم العلماء فقط ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ يعني من تركهم ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ((لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون)).^(١)

أمره ﷺ بالتبليغ وعصمة الله له من الناس:

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧) قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٨) [المائدة].

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله ﷺ باسم الرسالة، وأمرأ له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به. وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك، وقام به أتم القيام.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن محمدًا كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية.^(٢) وفي الصحيحين عنها رضي الله عنها أيضاً أنها قالت: لو كان محمدٌ ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتّم هذه الآية: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾.^(٣)

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته - يعني في حجة

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/ ٦٣٨.

(٢) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سرّة الأنعام)، ج ٥/ ٢٦٢، حديث رقم: ٣٠٦٨.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟، ج ١/ ١١٠.

الوداع -: ((أيها الناس إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟)) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول ((اللهم هل بلغت؟))^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به، فما بلغت رسالته، أي وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع.

عن ابن عباس ؓ: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعني إن كتبت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعَصَمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك، وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحرس.

روي أن عائشة ؓ كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت: فقلت ما شأنك يا رسول الله؟ قال: ((ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة)). قالت: فبينما أنا على ذلك، إذ سمعت صوت السلاح، فقال ((من هذا؟)) فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: ((ما جاء بك؟)) قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ في نومه.^(٣)

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ج ٤/٤١؛ سنن أبو داود، كتاب

المناسك، باب صفة حجة النبي ﷺ، ص ٣٣٠، حديث رقم: ١٩٠٥؛

(وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٤/٩٣٠، "حجة الوداع").

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٦٤٧.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب التمني، باب قول النبي ﷺ: (ليت كذا وكذا)،

ج ٨/١٢٩؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ؓ، باب في فضل سعد بن أبي وقاص

ؓ، ج ٧/١٢٤.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿والله يعصمك من الناس﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي بلغ أنت والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، كما ورد نفس المعنى في آيات أخرى^(١)

بيان له ﷺ عن حال المسيح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤَفَّكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]

وقوله تعالى: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي له سوية أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، وقوله تعالى: ﴿وأمه صديقة﴾ أي مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبية.

وقوله تعالى: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ أي يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس، وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصراني الجهلة، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، ثم قال تعالى: ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ أي نوضحها ونظهرها ﴿ثم انظر أنى يؤفكون﴾ أي ثم انظر يا محمد بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون؟ وبأي قول يتمسكون؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٦٤٦ - ٦٥٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٣٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٦٥٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٣٩.

رده ﷺ على المشركين وأهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦) ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧) [المائدة].

يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد، ومبينًا له أنها لا تستحق شيئًا من الإلهية، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لهؤلاء المشركين العابدين غير الله من بني آدم ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُم ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا يقدر على دفع ضرر عنكم ولا إيصال نفع إليكم، ﴿والله هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئًا ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا لغيره ولا لنفسه؟ ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهًا من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بمن ضل قديمًا، ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال. كما في الآية: ﴿يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (١).

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٦٥٥ - ٦٥٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٣٩ - ٦٤٠.

رؤيته ﷺ لحال بني إسرائيل:

قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة].

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزله على داود عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم عليه السلام، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان، ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبه، فقال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قال تعالى -: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسْقُون﴾ - ثم قال -: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو

تقصرنه على الحق قصراً)).^(١)

قال ﷺ: ((إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني بذلك المنافقين. قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَمْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم. ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وفسر بذلك ما ذمهم به، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ يعني يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، أي لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبه من موالاة الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه، ﴿وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.^(٣)

إخباره ﷺ بأعداء المؤمنين:

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾

(١) انظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة المائدة)، ج ٥/٢٥٢، حديث رقم: ٣٠٤٨.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٤١.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/٦٥٦ - ٦٦٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٤٠ - ٦٤٢.

وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثْبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

[المائدة].

قيل نزلت هذه الآيات فيما حدث من النجاشي ﷺ وأصحابه الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب ﷺ بالحبشة القرآن الكريم، بكوا حتى أخضلوا لحاهم. وقيل: نزلت في وفد بعثهم النجاشي ﷺ إلى النبي ﷺ؛ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته، فلما رأوه قرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا. وتشمل ذلك وغيرهم مما يحدث من علماء نصارى يعرفون الحق عبر القرون.^(١)

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عداوةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، وسموه وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين. وما فعلوا برسول الله ﷺ وأصحابه مسجل، وما نعيشه في عصرنا من فعلهم بالمسلمين في فلسطين وتاليهم الآخرين على المسلمين في كل مكان يصدق هذه الآية. عليهم لعائن الله.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٥ - ٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٤٢.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدْنَ أَقْرَبَهُمْ مَوْدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾، أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾، وليس القتال مشروعاً في ملتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْنِ مِنْهُمْ قَسِيْسِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلمائهم، والرهبان جمع راهب، وهو العابد مشتق من الرهبة، وهي الخوف.

سلمان رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْنِ مِنْهُمْ قَسِيْسِينَ وَرَهْبَانًا﴾ فقال: هم الرهبان الذين في الصوامع والخرب فدعوهم فيها، قال سلمان رضي الله عنه: وقرأت على النبي ﷺ ﴿ذَلِكَ بَأْنِ مِنْهُمْ قَسِيْسِينَ﴾ فقله تعالى: ﴿ذَلِكَ بَأْنِ مِنْهُمْ قَسِيْسِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾، أي مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، أي مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي مع محمد ﷺ وأُمَّته هم الشاهدون، يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ، وللرسل أنهم قد بلغوا.^(١)

جاء ﷺ بالحق فأمنوا به:

قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٥ - ٨: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٤٢ - ٦٤٣.

الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ [المائدة].

﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ هذا الصنف من النصارى ممن يتبعون الحق. قال تعالى هاهنا: ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ما كثر فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون، ﴿وذالك جزاء المحسنين﴾، أي في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان، ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي جحدوا بها وخالفوها، ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي هم أهلها والداخلون فيها.^(١)

الأمر بطاعته ﷺ في الحلال والحرام وغيره:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ أَذِنَتْ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة].

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار: ﴿رجس من عمل الشيطان﴾ أي إثم وسخط من عمل الشيطان. أي شر منه، ﴿فاجتنبوه﴾ أي اتركوه ﴿لعلكم تفلحون﴾. وهذا ترغيب، ثم قال تعالى:

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٥ - ٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٤٣ - ٦٤٤.

﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾. وهذا تهديد وترهيب.

عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حُرْمها في الآخرة)).^(١)

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة)).^(٢)

تحذيره من الخبيث والسؤال في غير محله:

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ أُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ (١٠٠) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُوكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) [المائدة].

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك﴾ أي يا أيها الإنسان ﴿كثرة الخبيث﴾، فإن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء في الحديث ((ما قل وكفى خير مما كثر وألهى)).

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾. هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا

(١) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب الأشربة، ومسلم في صحيحه، ج ٦/٢٤٠؛ كتاب

الأشربة، باب عقوبة من شرب الخمر إذا لم يتب منها، بمنعه إياها في الآخرة، ج ٦/١٠١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٣٣ - ٤٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٤٨ - ٦٥٣.

عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتتقيب عنها؛ لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءت لهم وشق عليهم سماعها.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدُّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ الآية.

عن أن انس بن مالك رضي الله عنه حدثه أن رسول الله ﷺ سأله حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال ﷺ: ((لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم))، فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر، فجعلت لا ألتفت يميناً ولا شمالاً إلا وجدت كلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبي؟ قال: ((أبوك حذافة)). قال: ثم قام عمر - أو قال: فأنشأ عمر - فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً عائداً بالله - أو قال: أعوذ بالله من شر الفتن - قال: وقال رسول الله ﷺ: ((لم أر في الخير والشر كالיום قط، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط)).^(١)

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقتك: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدُّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها.^(٢)

(١) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، وأن كل خمر حرام، ج ١٠٠/٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير باب: (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم)، ج ١٩٠/٥.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلِ الْقُرْآنُ تَبَدُّ لَكُمْ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتهم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم ﴿وذلك على الله يسير﴾، ثم قال: ﴿عفا الله عنها﴾ أي عما كان منكم قبل ذلك، ﴿والله غفور حلیم﴾. وقيل: المراد بقوله ﴿وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدي لكم﴾، أي لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فاعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضيق.

﴿عفا الله عنها﴾ أي ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه، فاسكتوا أنتم عنها كما سكنت عنها.

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم)).^(١)

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾، أي قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها، ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين أي بسببها، أي بينت لهم فلم ينتفعوا بها؛ لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، بل على وجه الاستهزاء والعناد.^(٢)

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، ج ٤/١٠٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٨١ - ٨٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٥٩ - ٦٦١.

سورة الأنعام

الدفاع عنه ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا آثَرُ سِحْرِ مُبِينٍ ۝٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۝٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ وَلَقَدْ أَسْنَهَزْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ۝١١﴾ [الأنعام].

يقول تعالى مخبراً نبيه محمدًا ﷺ عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق، ومباهتتهم ومنازعتهم فيه. ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك﴾ أي ليكون معه نذيراً، قال الله تعالى: ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون﴾، أي لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أي ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة الرجل ليتمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك للبسوا، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري.

فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسالاً منهم، ليدعو بعضهم بعضاً، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض، في المخاطبة والسؤال.

عن ابن عباس رضي الله عنه في الآية يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور، ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أي ولخلطنا عليهم ما يخلطون، ولشبهنا عليهم.

وقوله تعالى: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾، أي فكروا في أنفسكم، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية، من الذين كذبوا رسله وعاندوهم، من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا، مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين.^(١)

تأكيد ﷻ على عظمة الله وملكه:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) [الأنعام].

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض ومن فيهما وأنه قد كتب على نفسه ﷻ الرحمة.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/ ١٥٠ - ١٥٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٦٧٧.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: ((إن الله لما خلق الخلق، كتب كتاباً عنده فوق العرش، إن رحمتي تغلب غضبي)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ﴿إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه، أي لا شك فيه عند عباده المؤمنين. فأما الجاحدون المكذبون فهم في ربهم يترددون، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون بالمعاد، ولا يخافون شر ذلك اليوم، ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي كل دابة في السماوات والأرض الجميع عباده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره، لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمايرهم وسرائرهم. ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ، الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَطْعَمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ أي وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم أي لا يحتاج إليهم في طعام ولا غيره.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار، من أهل قباء النبي ﷺ على طعام، فانطلقنا معه. فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه، قال ﷺ: ((الحمد لله الذي يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ، وَمَنْ عَلَيْنَا فَهْدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَانَا مِنَ الْعَرِيِّ، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا. الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرِ مُودِعِ رَبِّي وَلَا

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) [آل عمران: ٢٨]، ج ١٧١/٨؛ وصحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه، ج ٩٥/٨.

مكافئ ولا مكفور، ولا مستغنى عنه. الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام وسقانا من الشراب وكسانا من العري وهدانا من الضلال وبصرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً. الحمد لله رب العالمين)).^(١)

﴿قل إنني أمرت أن أكون أول من أسلم﴾ أي من هذه الأمة، ﴿ولا تكونن من المشركين. قل إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ يعني يوم القيامة. ﴿من يصرف عنه﴾ أي العذاب ﴿يومئذ فقد رحمه﴾ يعني وبالتالي ﴿وذلك الفوز المبين﴾ والفوز حصول الريح، ونفي الخسارة.^(٢)

توحيده لله ﷻ وتوكله عليه:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ؛ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ^(١٨) قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ أَيْتَكُمْ لْتَشْهَدُوا أَنَّكَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرًا قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ^(١٩) الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ^(٢١)﴾ [الأنعام].

الله ﷻ مالك الضر والنفع، والمتصرف في خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، والحديث لمحمد ﷺ ولأتمته معه. ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير﴾.

(١) ابن حبان، (صحيح ابن حبان بترتيب ابن لبان)، ج ٢٢/١٢، برقم: ٥٢١٩؛ وانظر: رواية

البخاري في صحيحه، كتاب الأطعمة، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه، ج ٢١٤/٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٥٤/٥ - ١٦٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٦٧٧/١ - ٦٧٨.

ورد أن رسول الله ﷺ كان يقول: ((اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)).^(١)

وقال تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له لوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه، وعظمته وعلوه، وقدرته على كل شيء، واستكانت وتضاءلت الخلائق بين يديه، وتحت قهره وحكمه، ﴿وهو الحكيم﴾ أي في جميع أفعاله ﴿الخبير﴾ بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا من يريد، ولا يمنح إلا لمن يريد بقدرته ﷻ.

ثم قال تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة﴾ أي من أعظم الأشياء شهادة ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ أي هو العالم بما جئكم به، وما أنتم قائلون لي، ﴿وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ أي وهو نذير في قوله: ﴿ومن بلغ﴾ من بلغه القرآن، فكأنما رأى النبي ﷺ.

عن قتادة رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ إن رسول الله ﷺ قال: ((بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله)).^(٢)

فحق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر بالذي أنذر.

وقوله: ﴿إنكم لتشهدون﴾ أيها المشركون ﴿أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد﴾ ﴿قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون﴾.

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال...، ج ٨/١٤٢ - ١٤٣؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب متابعة الإمام والعمل بعده، ج ٢/٤٦ - ٤٧.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ج ٤/١٤٥.

ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب: أنهم يعرفون محمداً ﷺ والذي جاءهم به، كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء، عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشروا بمحمد ﷺ ونعته وصفته، وبلده ومهاجره وصفة أمته. ولهذا قال بعده: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي خسروا كل الخسارة ﴿فهم لا يؤمنون﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ونوهت به في قديم الزمان وحديثه. ثم قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ أي لا أظلم ممن تقول على الله، فادعى أن الله أرسله، ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته، ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا يفلح هذا ولا هذا، لا المفترى ولا الكذاب.^(١)

إخباره ﷺ بالمكذبين الكفار وحالهم:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ٢٣ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ٢٤﴾ أنظر كيف كذبوا على أنفسهم^{٢٣} وضل عنهم ما كانوا يفترون^{٢٤} ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلوك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين^{٢٥} وهم ينهون عنه وينننون عنه^{٢٦} وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون^{٢٦} [الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد، التي كانوا يعبدونها من دونه، قائلاً لهم ﴿أين شركاءكم الذين كنتم تزعمون﴾. وقوله تعالى: ﴿ثم لم تكن

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/ ١٦٠ - ١٦٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٦٧٨ - ٦٧٩.

فتتهم﴾ أي حجتهم وبليتهم حين ابتلوا ﴿إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾.

أتى رجل لابن عباس ؓ فقال: يا ابن عباس، سمعت الله يقول: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾. قال ابن عباس ؓ أما قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجد فيجحدون، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتُمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن إلا ونزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه.

وقال تعالى في حق هؤلاء: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾.

وقوله تعالى: ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾، أي يجيئون ليستمعوا قراءتك، ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله جعل على قلوبهم أكنة أي أغطية، لئلا يفقهوا القرآن ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي صمماً عن السماع النافع لهم.

وقوله تعالى: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ أي مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين، لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم ولا إنصاف.

وقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاؤك يجادلونك﴾ أي يحاجونك ويناضرونك في الحق بالباطل، ﴿يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا الذي جئت بها، إلا مأخوذة من كتب الأوائل، ومنقول عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾، المراد أنهم ينهون الناس عن

إخباره ^{صلى الله عليه وسلم} بمصير الكفار:

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك يقولون: ﴿يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾^١ يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، فظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم، من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، حيث كانوا يظهرون الإيمان للناس ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة، من كلامهم حين يعانقون العذاب.

(۱) انظر: الطبري، تفسيره، ج ۵/ ۱۶۴ - ۱۷۳؛ ابن كثير، تفسيره، ج ۱/ ۶۷۹ - ۶۸۰.

وفي قوله ﷺ: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ فإنهم ما طلبوا العودة إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه، جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليتخلصوا مما شاهدوا من النار، ولهذا قال تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ أي في طلبهم الرجعة، رغبة ومحبة في الإيمان.

ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه، من الكفر والمخالفة ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي في قولهم: ﴿يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾، ﴿وما نحن بمبعوثين﴾، أي لعادوا لما نهوا عنه، ولقالوا: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها، ولهذا قال وما نحن بمبعوثين ثم قال: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾ أوقفوا بين يديه قال: ﴿أليس هذا بالحق﴾ أي أليس هذا المعاد بحق، وليس بباطل كما كنتم تظنون، ﴿قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي بما كنتم تكذبون به.

حزنه ﷺ على تكذيب المشركين وتسليته ﷺ:

قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُذُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مُبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٤) ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْغِي نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِمْ يُرْجَعُونَ﴾ (٣٦) [الأنعام].

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك، وحزنك وتأسفك عليهم. وقوله تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أي لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ يعاندون الحق، ويدفعونه بصدورهم.

عن علي رضي الله عنه قال: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾، يعلمون أنك رسول الله ويجحدون.

نقل عن أبي جهل أنه قال: والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ فآيات الله أوتيتها محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ تسلية للنبي ﷺ وتعزية له، فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿ولقد جاءك من نبإ المرسلين﴾ أي من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ﴾، النفق السرب في الأرض، فتذهب فيه فتأتيهم بآية، أو تجعل لك سلمًا في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية، أفضل مما آتيتهم به فافعل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس، ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه بقلبه ويؤمن به.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَوْتِ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يعني بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد، فقال تعالى: ﴿وَالْمَوْتِ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. وهذا من باب التهكم بهم والازدراء عليهم^(١).

الرد على تعنت المشركين:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧) [الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين. إنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، على مقتضى ما كانوا يريدون، ومما يتعنتون، ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي هو تعالى قادر على ذلك،

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/ ١٨٠ - ١٨٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٦٨١ - ٦٨٢.

ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك، لأنه لو أنزل وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة.^(١)

تحذيره ﷺ للمشركين:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٠) ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (٤١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا نَضُرُّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٥) [الأنعام].

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا معقب لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سئل أجاب بما يشاء، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أي أتاكم هذا أو هذا ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في اتخاذكم آلهة معه ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي في وقت الضرورة، لا تدعون أحداً سواه، وتذهب عنكم أصنامكم وأننادكم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾ يعني الفقر والضيق في العيش، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ أي يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/١٨٥ - ١٨٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٨٢ - ٦٨٣.

قال الله تعالى: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ أي فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا وخضعوا، ولكن ﴿قست قلوبهم﴾ أي ما رقت ولا خشعت، ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ من الشرك والمعاندة والمعاصي. ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي أعرضوا عنه وتناسوه، وجعلوه وراء ظهورهم ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ أي فتحنا عليهم أبواب الرزق وغيره. استدراجاً منه تعالى وإملاءً لهم، ولهذا قال: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ أي من الأموال والأولاد والأرزاق، ﴿أخذناهم بغتة﴾ أي يأتيهم أمر الله على غفلة، ﴿فإذا هم مبلسون﴾ أي آيسون من كل خير.^(١) ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾.

تحذيره ﷺ للمشركين:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرِفُ أَلَا يَتِ ثَمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنُكِّمُ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يُمْسِكُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ [الأنعام].

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ أي سلبكم إياها كما أعطاكموها، ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما، الانتفاع الشرعي، ولهذا قال تعالى: ﴿وختم على قلوبكم﴾ وقوله تعالى: ﴿من إله غير الله يأتيكم به﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم، إذا سلبه الله منكم لا يقدر على ذلك أحد سواه، ولهذا قال تعالى: ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ أي

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٨٩/٥ - ١٩٤: ابن كثير، تفسيره، ج ٦٨٣/١ - ٦٨٤.

نبيها ونوضحها ونفسرها، دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال، ﴿ثم هم يصدفون﴾ أي ثم هم مع هذا البيان يصدفون أي يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه.

وقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة﴾ أي وأنتم لا تشعرون به، حتى بغتكم وفجأكم، ﴿أو جهرة﴾ أي ظاهراً عياناً، ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ أي إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، وقوله: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ أي مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات. ولهذا قال تعالى: ﴿فمن آمن وأصلح﴾ أي فمن آمن بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم ﴿فلا خوف عليهم﴾ أي بالنسبة لما يستقبلونه ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها، الله وليهم فيما خلفوه، وحافظهم فيما تركوه، ثم قال تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا يفسقون﴾ أي ينالهم العذاب، بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته.^(١)

هو نبي متبع للوحي ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيُّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَنْقُوتُ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/١٩٥ - ١٩٧: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٨٤.

حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ [الأنعام].

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أي لست أملكها ولا أتصرف فيها، ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أي ولا أقول إنني أعلم الغيب، إنما ذاك من علم الله سبحانه، ولا أطلع إلا على ما أطلعني عليه، ﴿ولا أقول لكم إنني ملك﴾ أي ولا أدعي أنني ملك، إنما أنا بشر من البشر، يوحى إلي من الله ﷻ، شرفني بذلك وأنعم علي به، ولهذا قال تعالى: ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي لست أخرج عنه.

﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ أي هل يستوي من اتبع الحق وهدى إليه، ومن ضل عنه فلم ينقذ له، ﴿أفلا تتفكرون﴾. وقوله تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ أي وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﷺ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ أي يوم القيامة، ﴿ليس لهم﴾ أي يومئذ ﴿من دونه ولي ولا شفيع﴾ أي لا قريب لهم ولا شفيع فيهم، من عذابه إن أراد بهم، ﴿لعلهم يتقون﴾ أي أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله ﷻ، ﴿لعلهم يتقون﴾ فيعملون في هذه الدار، عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.

وقوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾، أي لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك ﴿يدعون ربهم﴾ أي يعبدونه ويسألونه ﴿بالغداة والعشي﴾ المراد به

الصلاة المكتوبة، وهذا وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم، وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات. أي إنما حسابهم على الله ﷻ، وليس عليّ من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء، وقوله تعالى: ﴿فَتَطْرَدُكُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي إن فعلت هذا والحالة هذه.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مر الملاء من قريش برسول الله ﷺ، وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرهم، من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد أَرْضَيْتَ بِهِؤُلَاءِ مِنْ قَوْمِكَ؟ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ أَنْحُنْ نَصِيرَتُكُمْ؟ أَطَرَدَهُمْ فَلَعَلَّكَ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَنْ نَتَّبِعَكَ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض، ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ، كان غالب من اتبعه في أول بعثته، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، وكانوا يقولون: أَهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا؟ أي ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير، لو كان ما صاروا إليه خيراً ويدعنا، وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿أَهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾، أي أليس ﷻ هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبيل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.

ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء، ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ج ١/٤٢٠.

بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴿ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ أي فأكرمهم برد السلام عليهم ، وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ أي أوجبها على نفسه الكريمة ، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ، ﴿ أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ، وفي قوله تعالى : ﴿ من عمل منكم سوءاً بجهالة ﴾ قال : الدنيا كلها جهالة ، والعمل لها دون الآخرة جهل.

﴿ ثم تاب من بعده وأصلح ﴾ أي رجع عما كان عليه من المعاصي والعمل للدنيا فقط ، وأقلع وعزم على ألا يعود ، وأصلح العمل في المستقبل ، ﴿ فإنه غفور رحيم ﴾ .

عن ابن عباس ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق ، أخرج كتاباً من تحت العرش ، إن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين))^(١).

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل ؓ : ((أتدري ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً)) ، ثم قال ﷺ : ((أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ ألا يعذبهم))^{(٢) (٣)}.

(١) انظر : صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في قول الله تعالى : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) ، ج ٤ / ٧٣ .

(٢) انظر : صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، ج ٨ / ١٦٤ : صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً . ج ١ / ٤٣ .

(٣) انظر : الطبري ، تفسيره ، ج ٥ / ١٩٧ - ٢٠٧ : ابن كثير ، تفسيره ، ج ١ / ٦٨٤ - ٦٨٧ .

توحيده ﷻ وبشريته:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيكُمْ أَهْوَاءُكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ۝٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ۝٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ أَلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كَنْزٍ مُبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام].

يقول تعالى: وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد ﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها، ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ أي ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسول، ولتستبين يا محمد، أو يا مخاطب سبيل المجرمين.

وقوله تعالى: ﴿قل إنني على بينة من ربي﴾ أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إلي، ﴿وكذبتكم به﴾ أي بالحق الذي جاءني من الله ﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾ أي من العذاب، ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي إنما يرجع أمر ذلك إلى الله، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن أنظركم وأجلكم؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾ أي وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين في الحكم بين عباده.

وقوله تعالى: ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني

وبينكم﴾، أي لو كان مرجع ذلك إلي لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك، والله أعلم بالظالمين. قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله))، ﴿إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقوله تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم. ويؤكد ذلك في قوله تعالى: ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

بيانه ﷺ أن الله وحده هو المنجي:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنْجَحَنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٦٣) قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ^(٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ^(٦٥) [الأنعام].

يقول تعالى ممتناً على عباده، في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر، الحائرين الواقعين في المتاهة البرية، وفي اللجج البحرية، إذا هاجت

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو)، ج ١٩٣/٥.

الرياح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية﴾ أي جهرًا وسرًا ﴿لئن أنجانا﴾ أي من هذه الضائقة ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ أي بعدها. قال الله: ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾، أي تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾ لما قال تعالى ثم أنتم تشركون ثم أعقبه بقوله تعالى: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً﴾ أي بعد إنجائهم إياكم، في قوله تعالى: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾. وهذه للمشركين ولغيرهم من عباده ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ يلبسكم يخلطكم من الالتباس، يلبسوا يخلطوا شيعاً فرقاً.

عن جابر رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: ((أعوذ بالله من ذلك)) ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال رسول الله ﷺ: ((أعوذ بالله من ذلك)) ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ قال: ((هذا أيسر)) ولو استعاذه لأعاده.^(١)

وقوله تعالى: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل.

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم...)، ج ٥/١٩٣.

وقوله تعالى: ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ أي نبينها ونوضحها مرة ونفسرها، ﴿لعلهم يفقهون﴾ أي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.

قال زيد بن أسلم رضي الله عنه: لما نزلت: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف))، قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال: ((نعم)). فقال بعضهم: لا يكون هذا أبداً أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن مسلمون، فنزلت: ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون﴾^{(١) (٢)}.

تحذيره ﷺ للظالمين منافقين ومشركين:

قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝٦٦ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٦٨ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتَ ۝٦٩﴾ [الأنعام].

يقول تعالى: ﴿وكذب به﴾ أي بالقرآن الكريم الذي جئتكم به، والهدى والبيان، ﴿قومك﴾ يعني قريشاً ﴿وهو الحق﴾ أي الذي ليس وراءه حق. ﴿قل﴾

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضكم رقاب بعض))، ج ٨/٩١؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض))، ج ١/٥٨.
(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٢١٦ - ٢٢٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٨٩ - ٦٩٣.

لست عليكم بوكيل ﴿أي لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، وقال: ﴿لكل نبي مستقر﴾ أي لكل نبي حقيقة، أي لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، وقوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ أي بالتكذيب والاستهزاء، ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب، ﴿وإما ينسئك الشيطان﴾ والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة، ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد معهم ناسياً، ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ بعد التذكر ﴿مع القوم الظالمين﴾ فإن نسيت فذكرت ﴿فلا تقعد﴾ معهم.

وقوله تعالى: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أي إذا تجنبوهم، فلم يجلسوا معهم في ذلك، فقد برئوا من عهدهم وتخلصوا من إثمهم، ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم. والتوجيه لكل أمة محمد ﷺ.

بعده ﷺ عن الذين غرثهم الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام]

يقول تعالى: ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرثهم الحياة الدنيا﴾ أي دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم، ولهذا قال وذكر به، أي ذكر الناس بهذا القرآن، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَبْسَلَ نَفْسَ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي لئلا تفتضح. وتجزي وتستسلم للهلكة، وتمنع الخير.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ مِثْلًا وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أي ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها، وقال هاهنا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَبْسَلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^(١).

تحذيره ﷺ من دعوة غير الله:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمُرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام].

قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد ﷺ، فأنزل الله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي في الكفر ﴿بعد إذ هدانا الله﴾، فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض. يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثلكم رجل خرج مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: اتتنا فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، والذي يدعو إلى الطريق الصحيح، طريق التوحيد والإسلام، ﴿استهوته الشياطين في الأرض﴾ أضلته في الأرض، فيصبح وقد رمت في هلكة، فتلقيه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله، رجل حيران يدعوه أصحابه إلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى فيأبى

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٢٢٨ - ٢٣١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٩٤.

عليهم، ولا يلتفت إليهم، ولو شاء الله لهداه ولرده إلى الطريق، فالهداية بفضل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَرْنَا لِنَسْلَمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي نخلص له العبادة، وحده لا شريك له.^(١)

إقتدائه ﷺ بالأنبياء قبله:

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرْنَ بِهَا كَمَا كَفَرْنَا بِهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠) [الأنعام].

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامراته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق فتعجبت المرأة من ذلك، فبشروهما مع وجوده بنبوته ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به.

وقوله تعالى: ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾ أي من قبله هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، وجعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل إبراهيم فلم يبعث الله بعده نبياً إلا من ذريته.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢٣١/٥ - ٢٣٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٦٩٤ - ٦٩٥.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم، وذوي طبقتهم وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، أي إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملاسته.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ﴾ أي أنعمنا عليه بذلك؛ رحمة للعباد بهم ولطفاً منا بالخلقة، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي بالنبوة، والكتاب.

وقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين وكتابين فقد وكَلْنَا بِهَا قَوْمًا آخرين، أي المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أي لا يجحدون منها شيئاً، ولا يردون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها، محكمها ومتشابهها. جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعني الأنبياء المذكورين، مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان، ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿فَبَهَادِهِمْ اقْتَدِهْ﴾، أي اقتد واتبع، وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ فأمرته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٢٥٦ - ٢٦٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧٠٣ - ٧٠٤.

إنذاره ﷺ لأُم القرى ومن حولها:

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام].

يقول الله تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسوله إليهم. نزلت في قريش وكل من كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ؛ لأنه من البشر، قال الله تعالى: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام، بإثبات قضية جزئية موجبة، ﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ وهو التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى نوراً وهدى للناس، أي ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويُهدى بها من ظلم الشبهات.

وقوله تعالى: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ أي تجعلون جملتها قراطيس، أي قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم، وتحرفون منها ما تحرفون، وتبدلون وتتأولون، وتقولون هذا من عند الله، أي في كتابه المنزل، وما هو من عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم﴾ أي ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي مما لم تكونوا تعلمون، لا

أنتم ولا آباؤكم. وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، حتى يأتيهم من الله اليقين، فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين؟ وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ يعني القرآن الكريم ﴿أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنِ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ يا محمد لتنذر مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من أحياء العرب، وسائر بني آدم من عرب وعجم.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي)) وذكر منهم ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة)).^(١)

ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك، الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها.^(٢)

أمره ﷺ باتباع الموحى له من ربه ﷻ:

قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۚ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۚ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام].

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ ومَن اتبع طريقته: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجداً

وطهوراً)، ج ١/١١٣؛ وصحيح مسلم، مقدمه - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج ٢/٦٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٢٦٢ - ٢٦٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧٠٤ - ٧٠٥.

ربك ﴿أي اقتد به واقتف أثره، واعمل به، فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذي لا مزية فيه؛ لأنه لا إله إلا هو﴾ ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أي اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك، وينصرك ويظفرك عليهم، واعلم أن لله حكمة: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ فله المشيئة والحكمة فيما يشاء ويختار، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وقوله تعالى: ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ أي حافظاً، تحفظ أقوالهم وأعمالهم ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي موكل عليهم وعلى وأمورهم، إن عليك إلا البلاغ.^(١)

رضاه ﷺ بحكم الله:

قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) ﴿[الأنعام].

يقول تعالى لنبيه ﷺ قل لهؤلاء المشركين بالله، الذين يعبدون غيره: ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾ بيني وبينكم، ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ أي مبيناً ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ﴿يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾، أي بما عندهم من البشارات بك، من الأنبياء المتقدمين ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((لا أشك ولا أسأل)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ صدقاً فيما قال وعدلاً فيما حكم، فكل ما أخبر به فهو حق عدل لا مزية فيه.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣٠٣/٥ - ٣٠٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٧١١/١.

(٢) انظر: سنن أبو داود، كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، ص ٩٢٥، حديث رقم: ٥١١٠.

وكل ما نهى عنه سبحانه فباطل، ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي ليس أحد يعقب حكمه تعالى، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وهو السميع﴾ لعباده ﴿العليم﴾ بحركاتهم وسكناتهم، الذي يجازي كل عامل بعمله.^(١)

تحذيره ﷺ عن الضالين:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ [الأنعام].

يخبر تعالى: عن حال أكثر أهل الأرض، من بني آدم أنهم ضالّال، وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم في ظنون كاذبة وباطلة، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فإن الخرص هو الحزر، ومنه خرص النخل، وذلك كله عن قدر الله ومشيبته، ﴿هو أعلم من يضل عن سبيله﴾ فييسره لذلك ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾ فييسرهم لذلك، وكل ميسر لما خلق له.^(٢)

الله ﷻ أعلم حيث يجعل رسالته:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٤) [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة، قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٣١٨ - ٣١٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧١٤ - ٧١٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٣١٩ - ٣٢٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧١٥.

مثل ما أوتي رسل الله ﷺ أي حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل ومنهم رسول الله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أي هو أعلم حيث يضع رسالته، ومن يصلح لها من خلقه. وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته ومرباه، ومنشئه ﷺ، حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه «الأمين». وثبت أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشًا واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم)).^(١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقراً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه)).^(٢)

وقد بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: ((من أنا؟)) قالوا: أنت رسول الله، فقال: ((أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً)).^(٣)

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، ج ٧/٥٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ج ٤/١٦٦. (والقرن هو الجيل).

(٣) سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، ج ٥/٥٨٤، حديث رقم: ٣٦٠٨.

فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئاً^(١).

وقوله تعالى: ﴿سَيَصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذا وعيد شديد من الله، وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار وهو الذلة الدائمة، لما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة^(٢).

أمره ﷺ بالعمل:

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ﴾ (١٣٣) إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ [الأنعام].

يقول تعالى: ﴿وربك﴾ يا محمد ﴿الغني﴾ عن جميع خلقه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، ﴿ذو الرحمة﴾ أي وهو مع ذلك فهو ﷺ رحيم بهم، كما قال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أي إذا خالفتم أمره ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ أي قوماً آخرين، يعملون بطاعته ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ هو قادر على ذلك سهل عليه يسير، كما أذهب القرون الأولى وأتى

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ج ١/٣٧٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٣٣٤ - ٣٢٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧١٩ - ٧٢٠.

بالذي بعدها كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين. والذرية النسل من الأصل.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ولا تعجزون الله سبحانه، بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً، هو قادر لا يعجزه شيء.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي ﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ ناحيتكم وتوجهكم.^(١)

بيانه ﷺ للمحرّم:

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام].

يقول تعالى آمراً عبده ورسوله محمداً ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله، ﴿لَا أَجِدُ فِيهَا أَوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أي أكل يأكله. قيل معناه لا أجِدُ شيئاً مما حرمت حراماً سوى هذه. عن ابن عباس ؓ ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ يعني المهرق. وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود. وقد نهى الله عن الدم المسفوح.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٣٤٧ - ٣٤٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧٢٤.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذراً، فبعث الله نبيه ﷺ وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو. وقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية^(١).

تحذيره ﷺ للمكذبين:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [١٤٧] [الأنعام].

يقول تعالى: فإن كذبتك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم ﴿فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله، ﴿ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ ترهيب لهم عند مخالفتهم الرسول خاتم النبيين ﷺ، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن الكريم.

تأكيده ﷺ أن الحجة لله:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [١٤٨] قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ [١٤٩] قُلْ هَلَمْ شَهِدَآكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [١٥٠] [الأنعام].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣٧٨/٥ - ٣٨١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٧٢٨/١ - ٧٢٩.

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرّموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرّمه. وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك، ولهذا قالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾.

قال الله تعالى: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام، ﴿قل هل عندكم من علم﴾ أي بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فتخرجوه لنا﴾ أي فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿إن تتبعون إلا الظن﴾ أي الوهم، والاعتقاد الفاسد ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ تكذبون على الله فيما ادعيتموه.

وقوله تعالى: ﴿قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾، يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿فله الحجة البالغة﴾ أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضل، ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، فلا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده.

وقوله تعالى: ﴿قل هلم شهداءكم﴾ أي أحضروا شهداءكم ﴿الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾ أي هذا الذي حرّمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ أي لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبا وزورا ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾

وهم بريهم يعدلون ﴿أي يشركون به ويجعلون له عديلاً﴾.^(١)

تحذيرهم من الشرك والحرام:

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً﴾ - إلى قوله -: ﴿لعلكم تتقون﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنه يقول: في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ الآيات.^(٢)

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال ﷺ: ((بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً)) الحديث..^(٣)

يقول تعالى: لنبيه ورسوله محمد ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرّموا ما رزقهم الله وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿قل﴾ لهم ﴿تعالوا﴾ أي هلموا وأقبلوا ﴿أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ أي أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمرأ من عنده ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٣٨٦ - ٣٩٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧٣١.

(٢) انظر: الحاكم: المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة الأنعام، ج ٢/٣٤٧ - ٣٤٨، برقم ٣٢٣٨.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، كتاب البيعة، باب البيعة على السمع والطاعة، ج ٧/١٣٨.

وقال تعالى في آخر الآية: ﴿ذلکم وصاکم به لعلکم تعقلون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأوصاكم وأمرکم بالوالدين إحساناً أي: أن تحسنوا إليهم أي أحسنوا إليهم، والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين.

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: ((الصلاة على وقتها)) قلت: ثم أي؟ قال: ((بر الوالدين)) الحديث...^(١)

وقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادکم من إملاق نحن نرزقکم وإياهم﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادکم من إملاق﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، وقوله تعالى: ﴿من إملاق﴾ هو الفقر، أي ولا تقتلوهم من فقرکم الحاصل، في هذه الآية قال: ﴿نحن نرزقکم وإياهم﴾ لأنه الأهم هاهنا.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾. قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ((أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن)).^(٢)

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، ج ١/١٣٤؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، ج ١/٦٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الغيرة، ج ٦/١٥٦؛ صحيح مسلم، كتاب اللعان، باب اللعان، ج ٤/٢١١.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وهذا مما نص على النهي عنه تأكيداً.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَا كَانَ لَكُمْ بِهِ لَعْلَكُمْ تَعْلُونَ﴾، أي هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه.^(٢)

برأته ﷺ ممن فرق دينه:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام].

نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ فتنفروا فلما بُعث محمد ﷺ أنزل الله عليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية.

والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله ﷻ وكان مخالفاً له فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وشرعه واحد لا

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)، ج ٣٨/٨؛ صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، ج ١٠٦/٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣٩٠/٥ - ٣٩٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٧٣١/١ - ٧٣٣.

اختلاف فيه ولا افتراق. فمن اختلف فيه ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه.

وفي الحديث ((نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد))^(١) فهذا هو الصراط المستقيم وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء والرسل برآء منها.^(٢)

هدايته ﷺ في حياته وعند مماته:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١) قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) [الأنعام].

يقول تعالى آمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿دينًا قيمًا﴾ أي قائمًا ثابتًا على أسس ﴿ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾.

عن ابن أبيزى عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: ((أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ لاوملة أبيينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين))^(٣).

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله

(١) انظر: رواية البخاري صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت، ج ٤/١٤٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٤١٢ - ٤١٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧٤٠.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣/٤٠٧.

تعالى؟ قال: ((الحنيفية السمحة)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه ﷺ مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، والنسك الذبح في الحج والعمرة.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: ضحى رسول الله ﷺ في يوم عيد النحر بكبشين وقال حين ذبحهما: ﴿وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.^(٢)

وقوله ﷺ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمة. وهو كما قال فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له.^(٣)

تأكيد التوحيد والرجوع إلى الله:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ج ١/١٥: الألباني، السلسلة الصحيحة، رقم: ٨٨١.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب في أضحية النبي ﷺ بكبشين أقرنين، ويُذكر سمينين، ج ٦/٢٣٦: صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب: استحباب الضحية، وذبحها مباشرة بلا توكيل، والتسمية والتكبير، ج ٦/٧٧.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٤٢٠: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٣٤٢.

وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾
[الأنعام].

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه ﴿أَغِيرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ أي أطلب ربا سواه، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري، أي لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر. ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد وهذا من عدله وَجَدَّ.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٤٢٠ - ٤٢١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧٤٣ - ٧٤٤.

سورة الأعراف

رفع الحرج عن صدره ﷺ:

قال تعالى: ﴿الْمَصَّ ۝١ كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِنَذِيرٍ بِهِ ۚ وَذَكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف].

﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي هذا كتاب أنزل إليك يا محمد من ربك ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ لا تتحرج في إبلاغه والإنذار به، ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾، ولهذا قال: ﴿لتنذر به﴾ أي أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿وذكرى للمؤمنين﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي اقتفوا آثار النبي الأُمِّي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه، ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره، ﴿قليلًا ما تذكرون﴾^(١).

نهي الله ورسوله ﷺ عن الفاحشة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ فَرِيقًا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٤٢٥ - ٤٢٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧٤٤ - ٧٤٥.

هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ [الأعراف].

ورد أنه: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، فتضع المرأة على قبلها الشيء وتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله. وأكثر ما كانت النساء يطفن عراة بالليل. وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم. ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع. فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا﴾، فقال تعالى ردّاً عليهم: ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لمن ادعى ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والاستقامة، ﴿وَأَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات. فيما أخبروا به عن الله وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين، أن يكون صواباً موافقاً للشرعية وأن يكون خالصاً من الشرك.^(١)

إباحة الزينة والطيبات من الرزق:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ [الأعراف].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٤٦٩ - ٤٧٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧٥٢ - ٧٥٣.

يقول تعالى ردًا على من حرم شيئًا من المأكّل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾... الآية، أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبدته في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حبًا في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة، ولا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين.^(١)

تأكيد ﷺ تحريم الله للفواحش:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا أحد أغير من الله، فذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الإثم المعصية والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق، وتتعدى عليهم إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا، ونحو ذلك مما لا علم لكم به.^(٣)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٤٧٢ - ٤٧٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧٥٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ج ٥/١٩٦؛ صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب غير الله تعالى، وتحريم الفواحش، ج ٨/١٠٠.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥/٤٧٥ - ٤٧٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧٥٣ - ٧٥٤.

أمر موسى لقومه باتباع رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَّبِعُكَ إِنَّمَا فَعَلْتُمَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ الغفر هو الستر وترك المؤاخذه بالذنب والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها ألا يوقعه في مثله في المستقبل، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أي لا يغفر الذنب إلا أنت، ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾، الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور وهذا لتحصيل المقصود، ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾، أي أوجب لنا وثبت لنا فيهما حسنة. وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة.

﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا وأنبنا إليك، يقول تعالى مجيباً لنفسه في قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الآية قال تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم.

وقوله تعالى: ﴿فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية، يعني فسأوجب حصول رحمتي منة مني وإحساناً إليهم، أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات، وهم أمة محمد ﷺ ﴿الذين يتقون﴾ أي يجتنبون الشرك والعظائم من الذنوب.

قوله تعالى: ﴿ويؤتون الزكاة﴾ قيل زكاة النفوس، وقيل الأموال ويحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكية ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ أي يصدقون.^(١)

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾، وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه وأمرهم بمتابعته ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾، هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة. وهذا حاله لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرעה سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه.^(٢)

ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله.

وقوله تعالى: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾، أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ويحرم عليهم الخبائث.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٧٨ - ٨٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٧٨٦ - ٧٨٨.

(٢) ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٧٨٦ - ٧٨٨.

وقال بعض العلماء فكل ما أحل الله تعالى ﷺ من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن. وقوله تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾، أي أنه جاء بالتيسير والسماحة.

وقد كان في شرائع الأمم التي قبلنا ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم.

وقوله تعالى: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه﴾ أي عظموه ووقروه، وقوله تعالى: ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ أي القرآن الكريم والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿أولئك هم المفلحون﴾ في الدنيا والآخرة.^(١)

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَهُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٨) [الأعراف].

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿يا أيها الناس﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة. والآيات في هذا كثيرة كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر في أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه يقول: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاوره، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً، فأتبعه أبو بكر يسأله

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨٢/٦ - ٨٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٧٨٦/١ - ٧٩١.

أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه. فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: ((أما صاحبكم هذا فقد غامر)) أي غاضب وخاصم. قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر. قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر رضي الله عنه يقول: والله يا رسول الله لأننا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: ((هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت)).^(١)

عن ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: ((أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي ولا أقوله فخراً، بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحللت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي يوم القيامة فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً)).^(٢)

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: ((لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي. أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة، وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون)، ج ٥/١٩٧.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد، ج ١/٢٥٠.

شهر ملئ مني رعباً، وأحلت لي الغنائم أكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يحرقونها، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون في بيعهم وكنائسهم. والخامسة هي ما هي قيل لي سل فإن كل نبي قد سأل، فأخبرت مسألتني إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله^(١).

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت﴾ صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ: ((أن الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربّه ومليكه الذي بيده الملك والأحياء والإماتة وله الحكم)). وقوله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ أخبرهم أنه رسول الله ﷺ إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿النبي الأمي﴾، أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة فإنه منعوت بذلك في كتبهم. ولهذا قال النبي الأمي وقوله تعالى: ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿واتبعوه﴾ أي سلكوا طريقه واقتفوا أثره، ﴿لعلكم تهتدون﴾

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، مقدمة - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج ٢/٦٣؛ صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)، ج ١/١١٣.

(٢) رواه مسلم، في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، ج ١/٩٣.

أي إلى الصراط المستقيم.^(١)

قال تعالى: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف).

يقول تعالى **لنبيه ﷺ**: ﴿وسألهم﴾ أي وأسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة. وحذر هؤلاء من كتمان صفة ﷺ التي يجدونها في كتبهم؛ لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هي أيلة، وهي على شاطئ البحر الأحمر - (غرب خليج العقبة) - ويقال قرية مقنا على البحر قرب مدين. وقد وقفت بنفسي على مقنا على البحر الأحمر داخل المملكة العربية السعودية قريبة من البدع وشرما.

وقوله تعالى: ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي يعتدون فيه، ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاية به إذ ذاك ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً﴾، أي ظاهرة على الماء من كل مكان. وقوله تعالى: ﴿ويوم لا يسبئون لا تأتيهم كذلك نبلوهم﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائه عنهم في اليوم الحلال لهم صيده، ﴿كذلك نبلوهم﴾ نختبرهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها.

وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨٧/٦ - ٨٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٧٩١ - ٧٩٢.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل)).^{(١)(٢)}

إخباره ﷺ بنبا القوم الذين كذبوا:

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾، هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء، كان رجلاً من أهل البلقاء، وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين. وقيل هو رجل آتاه الله آياته فتركها. وقيل كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله، فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى.^(٣)

وقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾، يقول تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ أي لرفعناه من التدنس بالدنيا بالآيات التي آتيناه إياها، ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾، أي مال إلى زينة الحياة الدنيا

(١) الألباني، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ج ٣٧٥/٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩١/٦ - ٩٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٧٩٣/١.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٨٠٠/١ - ٨٠٣.

وزهرتها ، وأقبل على لذاتها ونعيمها ، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهي.

وفي قوله تعالى: ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ اتبع الشيطان وأمره.

وقوله تعالى: ﴿فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ ، فتشبيهه بالكلب في لهاته في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر ، فذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه. وقيل معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى.

وقوله تعالى: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ ، يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فاقصص القصص لعلهم﴾ أي لعل بني إسرائيل ، قال: ﴿لعلهم يتفكرون﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله ، فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب ، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ ، يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس بأولاهم باتباعه ومناصرتهم ومؤازرتهم ، كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به. ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة.

فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب وبئس المثل مثله.

وقوله تعالى: ﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ ، أي ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ١١٨ - ١٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨٠٠ - ٨٠٣.

دفاع الله ﷻ عن رسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٨٤) [الأعراف].

يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿مِّنْ جَنَّةٍ﴾ أي ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به.^(١)

جوابه عن الساعة ﷻ:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧) [الأعراف].

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ قيل: نزلت في قريش، كانوا يسألون الرسول ﷺ عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها.

وقوله تعالى: ﴿أَيَّانَ مَرَسَاهَا﴾ أي منتهاها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾، أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يجليها لوقتها أي يعلم جليلة أمرها ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ثقل علمها على أهل السماوات والأرض أنهم لا يعلمون. وقيل إذا جاءت ثقلت على أهل السماوات والأرض، وكبرت عليهم.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ١٣٤ - ١٣٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨٠٥.

ويقال خفيت في السماوات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ يبعثهم قيامها تأتيهم على غفلة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ معناه كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده استأثر به، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يقول: كأنك عالم بها لست تعلمها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.^(١)

نفيه ﷺ علم الغيب:

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف].

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾، قال: لو كنت أعلم، وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ﴿وما مسني السوء﴾ ولا يصيبني الفقر. ويشمل الأمر جميع الخير. لا اجتبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته، ثم أخبر ﷺ أنه

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/١٣٥ - ١٤٠: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٠٥.

إنما هو نذير وبشير، أي نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات.^(١)

ولاية الله ﷻ لرسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ (١١١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١١٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَكْنَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١١٨﴾ [الأعراف].

هذا إنكار من الله ﷻ على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر. وعابدوها أكمل منها بعقولهم وبسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أي أشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك.

أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت به، لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستتصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾، أي بل هم مخلوقون مصنوعون.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ١٤٠ - ١٤١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨٠٨.

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، للمشركين من عبدة الأوثان "إن وليي" نصيري ومعيني وظهيري عليكم ﴿اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ عليّ بالحق، وهو الذي يتولى من صلح عمله بطاعته من خلقه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي لعابديهم ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء.^(١)

أمره ﷺ بالعفو. واستعاذته بالله ﷻ:

قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ [الأعراف].

استعاذته بالله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٠٠﴾ [الأعراف].

عن ابن عباس ؓ قوله: ﴿خذ العفو﴾ يعني خذ ما عفي لك من أموالهم وما أتوك به من شيء فخذ. وكان هذا قبل أن تنزل سورة "براءة" بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات.

عن ابن عباس ؓ: ﴿خذ العفو﴾ أنفق الفضل، وقيل أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم.

وقيل: ﴿خذ العفو﴾ من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس. وقيل: أمر الله رسول الله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس.

وفيهما أمر الله لنبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف. ويدخل في ذلك جميع الطاعات وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/١٤٨ - ١٥٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨١٠ - ٨١١.

تأديب لخلقه، باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالإعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب وهذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها.

وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾، يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك.

وإما يغضبك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحكمك على مجازاته ﴿فاستعذ بالله﴾ فاستجر بالله من نزغه ﴿إنه سميع عليم﴾ سميع لجهل الجاهل عليك، والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه، لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان، وغير ذلك من أمور خلقه.

روي لما نزلت: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل﴾ قال ﷺ: يا رب كيف بالغضب؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾.

اتباعه ﷺ للوحي من الله:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

في قوله تعالى: ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ يقول: لولا تلقيتها. أو لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها عن نفسك، أو لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء.

وقيل: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٍ﴾ أي معجزة وخارق. يقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾، أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به، فأمتثل ما يوحيه إلي، فإن بعث آية قبلتها وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك، فإنه حكيم عليم. ثم أرشداهم إلى أن هذا القرآن الكريم: هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيّنات، فقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

الانصات لكتاب الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢٠٤) [الأعراف].

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً. ويتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، وقال بعض العلماء: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له.^(٢)

تربية النبي ﷺ ودعوته للإستمرار في ذكر الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ^(٢٠٦) [الأعراف].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ١٥٩ - ١٦١: ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨١٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ١٦١ - ١٦٥: ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨١٣ - ٨١٥.

وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء. وهذه الآية مكية. الغدو وهو أول النهار، والآصال جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين، وأما قوله تعالى: ﴿تضرعاً وخيفة﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهراً. ولهذا قال تعالى: ﴿ودون الجهر من القول﴾. وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداءً وجهرًا بليغًا، ثم إن المراد بذلك في الصلاة كما تقدم أو في الصلاة والخطبة. ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سرًّا أم جهراً. ولهذا مدح الله تعالى الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال تعالى: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ الآية، وإنما ذكرهم بهذا ليقتنى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم.

ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله، كما ورد عن أبي الدرداء رضي الله عنه.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ١٦٥ - ١٦٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨١٥.

سورة الأنفال

إجابته ﷺ لسؤال عن الأنفال:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

عن ابن عباس رضي الله عنه: الأنفال المغانم، كما قال ﷺ: إنها نزلت في بدر.^(١)

وقال: الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء، كما فسر النفل بما ينقله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم.

عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾.

والنفل قبل التقاء الصفوف، ومنه ما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء. وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال.

ويعني هذا ما ينقله الإمام لبعض السرايا، زيادة على قسمهم مع بقية الجيش.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: قال: لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به النبي

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، ج ٩/٢٤٥.

ﷺ فقال: ((اذهب فاطرحه في القبض)) قال: فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله، من قتل أخي وأخذ سلمي. قال فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: ((اذهب فخذ سلبك)).^(١)

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين من أغار في أرض العدو نفل الربع فإذا أقبل راجعاً نفل الثلث.^(٢)

والأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة، ومعنى الأنفال في كلام العرب كل إحسان فعله فاعل تفضلاً، من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله ﷻ للمؤمنين من أموال عدوهم، وإنما هو شيء خصهم الله به؛ تفضلاً منه عليهم بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله تعالى هذه الأمة، فهذا أصل النفل.

(١) انظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب (ومن سورة الأنفال)،

ج ٢٦٨/٥، حديث رقم: ٣٠٧٩.

(٢) انظر: الإمام أحمد في مسنده، ج ٣٢٤/٥.

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي - فذكر الحديث إلى أن قال - وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنَكُمْ﴾، أي اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا، فما أتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ اللَّهُ، فإنه ﷺ إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنَكُمْ﴾ أي لا تختلفوا.^(٢)

خروجه ﷺ من بيته لبدر ووعده الله ﷻ له:

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ۖ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۖ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۖ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝﴾ [الأنفال].

لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفيير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيبرهم قبيل بدر، فكان عاقبة كراحتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشداً

(١) انظر: رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)، ج ١/١١٣؛ وصحيح مسلم، مقدمة - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج ٢/٦٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/١٦٩ - ١٧٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨١٦ - ٨١٩.

وهدى، ونصراً وفتحاً. ومعنى ذلك ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾، على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم.

فأنزل الله ذلك في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه، فقال تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ لطلب المشركين ﴿يجادلونك في الحق بعد ما تبين﴾. وقد جادلوا يوم بدر فقالوا: خرجنا للغير، ولم نعلم قتالاً فنستعد له. وفيه إشارة إلى المدينة، وأنها بيت النبي ﷺ.

ورسول الله ﷺ خرج من المدينة قبيل بدر؛ طلباً لغير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيمة لقريش، فاستتهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم، فخرج في ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر. وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ ومن معه في طلبه، فبعث أبو سفيان ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة، فنهضوا فيما بين التسع مئة إلى الألف. وتيامن أبو سفيان بالغير إلى سيف البحر، فنجا وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم والتفرقة بين الحق والباطل. ورسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير أوحى الله ﷻ إليه يعبه إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير. ورغب كثير من المسلمين في العير، لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق

بكلماته ويقطع دابر الكافرين^(١).

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: ((إني أخبرت عن غير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها؟))، فقلنا: نعم، فخرج ﷺ وخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين، قال لنا: ((ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟)) فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكننا أردنا العير، ثم قال: ((ما ترون في قتال القوم؟)) فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾. قال فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم. قال فأنزل الله على رسوله ﷺ قوله تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾^(٢).

عن أبي وقاص الليثي، عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال: ((كيف ترون؟)) فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا، قال: ثم خطب الناس فقال: ((كيف ترون؟)) فقال عمر مثل قول أبي بكر رضي الله عنه، ثم خطب الناس فقال: ((كيف ترون؟)) فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/ ٥٩١ - ٥٩٣؛ ابن أبي شيبة، المغازي، غزوة بدر متى كانت، ص ١٧٤.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/ ٢١٥.

قالوا لموسى: ﴿فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن الكريم على قول سعد: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ الآيات.^(١)

عن ابن عباس رضي الله عنه لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد ما قال وذلك يوم بدر أمر الناس أن يتهيأوا للقتال وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾، يجادلونك في الحق: في القتال مع كراهية للقاء المشركين، وإنكار لمسير قريش بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾، أي يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم وهي العير، ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ أي هو ﷻ يريد أي يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور. وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم.

(١) انظر: أبي شيبة، المغازي، ص ١٧٧؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٦١٥؛ أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ٢/٣٥٩؛ السيرة النبوية الصحيحة، ج ٢/٣٥٩؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٥٩٤.

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: ((سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم)).^(١)

حاله ﷺ ومن معه في بدر:

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (١١) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٣) ﴿ذَلِكَ فُذُوقُهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٤) [الأنفال].

يذكر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنون معه بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أمانا آمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم. عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة، ويبكي حتى أصبح.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: النعاس في القتال أمانة من الله، وفي الصلاة من الشيطان، وقيل النعاس في الرأس، والنوم في القلب.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم، ثم استيقظ مبتسماً فقال: ((أبشريا أبا بكر هذا جبريل على ثنياه النقع))، ثم خرج من باب

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ١٨٠ - ١٨٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨٢٠ - ٨٢٢.

العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعَ وَيُولُونِ الدَّبِرَ﴾ [القمر: ٤٥].^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة وأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم، تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبيين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب الله عنهم رجس الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم. وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمس مئة مجنبة، وميكائيل في خمس مئة مجنبة.

أنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون وملؤوا الأسقية وسقوا الركاب، واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً وثبت به الأقدام.^(٢)

عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: بعث الله السماء، وكان الوادي دهساً، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدرُوا على أن يرحلوا معه.^(٣)

وأنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم.

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (سَيَهْزِمُ الْجَمْعَ وَيُولُونِ الدَّبِرَ)، ج ٥٤/٦.

(٢) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٥٩٨.

(٣) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٨٣.

عن علي رضي الله عنه قال: أصابنا من الليل طش من المطر، يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ وحرص على القتال.^(١)

وقوله تعالى: ﴿ليطهركم به﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر، ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، ﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء. وهو شجاعة الباطن ﴿ويثبت به الأقدام﴾ وهو شجاعة الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾. وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم؛ ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا.

وقوله تعالى: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي ثبتوا أنتم المؤمنون وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك. سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي، ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾، أي اضربوا الهام فافلقوها، واضربوا الرؤوس، على الأعناق وهي الرقاب.

عن أنس رضي الله عنه: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به.^(٢)

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ١٨٧ - ١٩١؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٥٩٨.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢١٣ و ٢١٥.

وقوله تعالى: ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم. ويعني بالبنان الأطراف وكل مفصل.

وقُتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً، فوفى ذلك سبعين يعني قتيلاً.^(١)

وقال تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي خالفوهما فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق، ومأخوذ أيضاً من شق العصا، وهو جعلها فرقتين ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾، أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء ﴿لا إله إلا رب سواه﴾، ﴿ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾. هذا خطاب للكفار أي ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة.^(٢)

قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال].

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه. ولهذا قال تعالى: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾، أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم. بل هو سبحانه الذي أضفركم عليهم.

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩٧ - ١٩٩؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٦٠٢/٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٩٢/٦ - ١٩٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٢٤.

ثم قال تعالى **لنبيه ﷺ** في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته، فرماهم بها وقال: ((شاهت الوجوه)). ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله. ولهذا قال تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾، أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت.^(١)

عن ابن عباس رضي الله عنه: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر فقال: ((يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً))، فقال له جبريل عليه السلام: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.^(٢)

وقال رضي الله عنه: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾، أقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالغير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب، وهو أسير في وثاقه إنه لا يصلح لك، قال: ولم؟ قال: لأن الله إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك الله ما وعدك.^(٣)

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٠١.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم ج ٥/١٥٦.

(٣) انظر: ابن أبي شيبه، المغازي، ص ٢٠٣.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾، هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل، مصغراً أمرهم، وأنهم وكل ما لهم في تبار ودمار، ولله الحمد والمنة.^(١)

الأمر بالشبات معه ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) [الأنفال].

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: ﴿ولا تولوا عنه﴾ أي تتركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجره، ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾. المراد المشركون ومعهم المنافقون الذين يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك.

ثم أخبر تعالى أنهم شر الخلق والخليقة، فقال تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم﴾ أي عن سماع الحق، ﴿البكم﴾ عن فهمه، ولهذا قال: ﴿الذين لا يعقلون﴾، فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام.

ثم قال ﷺ: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾، أي لأفهمهم وتقدير

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢٠٢/٦ - ٢٠٥: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٢٨ - ٨٢٩.

الكلام، ولكن لا خير فيهم، فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿ولو أسمعهم﴾ أي أفهمهم ﴿لتولوا﴾ عن ذلك؛ قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وهم معرضون﴾ عنه.^(١)

أمره ﷺ بالاستجابة لله والرسول:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال البخاري رحمه الله: ﴿استجيبوا﴾ أجبوا ﴿لما يحييكم﴾ لما يصلحكم.^(٢)

هو الحق في القرآن وما جاء به الرسول ﷺ فيه النجاة والبقاء والحياة. ففي الإسلام إحياءهم بعد موتهم بالكفر.

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾، قال ابن عباس رحمه الله يحول بين المؤمن وبين الكفر وبين الكافر وبين الإيمان. وفي قوله تعالى: ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾، أي يتركه لا يعقل، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه.

عن أنس بن مالك رحمه الله قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)).^(٣)

عن عبد الله بن عمرو رحمه الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((إن قلوب بني آدم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٠٨ - ٢١١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٢٩.

(٢) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون)، ج ٥/١٩٩.

(٣) سنن الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، ج ٤/٤٤٨، حديث رقم: ٢١٤٠.

بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف شاء))، ثم قال رسول الله ﷺ: ((اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك)).^(١)

أمره ﷺ بعدم خيانة الله والرسول:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٧) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨) [الأنفال].

روي أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر ؓ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروه في ذلك، فأشار بيده إلى حلقه، أي إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله. فحلف لا يذوق شيئاً حتى يموت أو يتوب الله عليه. وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه. وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال: يا رسول الله: إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: ((يجزيك الثلث أن تصدق به)).^(٢)

وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة ؓ أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك، فبعث في

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢١١/٦ - ٢١٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٢٩ - ٨٣١. والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، ج ٥١/٨.

(٢) انظر: سنن أبي داود، باب الإيمان والنذور، باب من نذر أن يتصدق بماله، ص ٥٩٦، حديث رقم: ٣٣١١.

إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، وفيها فقام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فقال يا رسول الله: ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: ((دعه فإنه قد شهد بداراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)).^(١)

والآية عامة، وإن صح أنها وردت في سبب خاص. فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ الأمانة، الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، ولعل منها الوظائف، والفريضة. يقول: ﴿لا تخونوا﴾ لا تتقضوها. بترك سنته وارتكاب معصيته وعدم العدل. وإذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم.

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾، أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها؛ ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها، أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه، وقوله تعالى: ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً. والله سبحانه هو المتصرف المالك للدين والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة.^(٢)

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بداراً، ج ١٠/٥؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، وقصة حاطب بن أبي بلتعة، ج ١٦٨/٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢١٩/٦ - ٢٢٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٨٣٢/١ - ٨٣٣.

مكر الله لرسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿ليثبتوك﴾ الإثبات هو الحبس والوثاق. ورد أنه لما اتَّتمروا بالنبي ﷺ ليلة الهجرة، ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه. واجتمعت قريش بعد التشاور، على الإثبات أو النفي أو القتل، فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء.

فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم فلم يبيت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده. ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

أقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل ﷺ فأمره ألا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه. فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ فأمره أن يبيت على فراشه، ويتسجى ببرد له أخضر، ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب، فجعل يذرها على رؤوسهم. وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ - إلى

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢٢٧/٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٣٤؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، الهجرة، ج ٢/٤١١ - ٤١٥.

قوله تعالى - ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.^(١)

مكانة رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّمُعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣) [الأنفال].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، فيقول النبي ﷺ: ((قد، قد))، ويقولون: اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ويقولون غفرانك غفرانك، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما كان فيهم أمانان النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار.^(٢)

قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرم الله من بيننا ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية. فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم. فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذِّبَهُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يقول: ما كان الله ليعذب قومًا وأنبياءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، يقول وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان، وهو الاستغفار يستغفرون. يعني يصلون. يعني بهذا من أهل مكة. يعني المؤمنين بمكة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم، قوله

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، الهجرة، ج ٢/ ٤١٤ - ٤١٥.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، ج ٨/ ٤٨.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة.^(١)

فتح باب التوبة للكفار:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ [الأنفال].

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة يغفر لهم ما قد سلف أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ أي يستمروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعالجهم بالعذاب والعقوبة في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم.^(٢)

حق رسوله ﷺ وآل بيته في الخمس، والحديث عن بدر:

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنْمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٤١﴾ [الأنفال].

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة بإحلال الغنائم.

والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار، بإيجاف الخيل والركاب. والفِيء

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٣٢ - ٢٣٦: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٣٥ - ٨٣٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٤٤ - ٢٤٥: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٣٩.

ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصلحون عليها أو يتوفون عنها، ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك.

فقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ تأكيد لتخمس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط، فله نصيب من الخمس، وأنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله بما شاء، ويرده في أمته كيف شاء. والذي كان يناله ﷺ من الخمس، يكون لمن يلي الأمر من بعده، يصرف في مصالح المسلمين ومن ذلك ذوو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وقال بعضهم: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، وهم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة.

وقوله تعالى: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي أيتام المسلمين المحتاجين، والمساكين هم الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم، ﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ هو المسافر أو المرید للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وما أنزل على رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي في القسمة، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى﴾ التقى الجمعان والله على كل شيء قدير، ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل بيدر، ويسمى الفرقان؛ لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل وأظهر

وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ^(١).

تفاصيل موقعه ﷺ ومن معه في بدر:

قال تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٤) [الأنفال].

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، ﴿وَهُمْ﴾ أي المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة. ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي القافلة والعيّر التي فيها أبو سفيان بما معه من التجارة، ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي مما يلي سيف البحر. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم.

﴿وَلَكِنْ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، من غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، حيث أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل يمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقى السقاة، ونهد الناس بعضهم لبعض.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٤٨ - ٢٥٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٤١ - ٨٤٤.

وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآيات والعبارة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك. وبسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير ميعاد؛ لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل؛ ليصير الأمر ظاهراً والحجة قاطعة والبراهين ساطعة، فحينئذ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه، على بصيرة من أمره، إنه مبطل لقيام الحجة عليه، ﴿ويحيى من حي﴾ أي يؤمن من آمن ﴿عن بينة﴾ أي حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب. وقوله تعالى: ﴿وإن الله لسميع﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به، ﴿عليم﴾ أي بكم، وأنكم تستحقون النصر.^(١)

الله ﷻ يري رسوله ﷺ في بدر ما يحقق به مراده ﷻ:

قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ^(٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَغْمِزِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَغْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ^(٤٤) [الأنفال].

أراهم الله ﷻ لرسوله ﷺ في منامه قليلاً، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تشبيهاً لهم، وقوله تعالى: ﴿ولو أراكم كثيراً لفشلتم﴾ أي لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، ﴿ولكن الله سلم﴾ أي من ذلك، بأن أراكم قليلاً ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي بما تكنه الضمائر وتتطوي عليه الأحشاء.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٥٦ - ٢٥٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٤٤ - ٨٤٥؛

(وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْيَكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾، وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين، فيجزؤهم عليهم ويطمعهم فيهم، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مئة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه، فقال: كنا ألفاً.^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْلِلْكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ﴾ عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه. فهو تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعيفاً.^(٢)

أمره ﷺ للمؤمنين بالاتحاد مع رسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٤٥ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ٤٦ [الأنفال].

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله، فإن صخبوا وصاحوا فعليك بالصمت)).^(٣)

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢٠٠.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢٥٨/٦ - ٢٦٠: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٤٥ - ٨٤٦.

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء، ج ١٤٣/٥.

عن كعب الأحبار رضي الله عنه قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾.

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا يتركوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به اتّمسكوا به، وما نهاهم عنه انزعجوا، ولا يتنازعوا فيما بينهم فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم، ﴿وتذهب ريحكم﴾ أي قوتكم ووحدتكم، وما كنتم فيه من الإقبال.

قال تعالى: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾، وقد كان للصحابه رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتنال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش، وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، رضي الله عنهم، وحشرنا في زمريهم إنه كريم وهاب.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٦٠ - ٢٦٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٤٦ - ٨٤٧؛ وانظر: كتابي "الفتوح الإسلامية عبر العصور" - عصر الراشدين، ص ٨٩.

تصوير حال صرعى كفار قريش لرسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ٥١﴾ [الأنفال].

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفية الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكراً، إذ ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ ويقولون لهم: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾.

عن ابن عباس ؓ: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم.

وقوله ﷺ: ﴿إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ كان ذاك يوم بدر.^(١) وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر. ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا أيها الكافرون، جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور سبحانه وتعالى.^(٢)

(١) انظر: أبي شيبة، المغازي، ص ١٩١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٦٧ - ٢٦٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٤٩.

أمره ﷺ بالشدة مع ناقضي العهود من المشركين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾ فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ٥٧﴾ [الأنفال].

أخبر تعالى: أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا، فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدا نقضوه ومنهم اليهود، وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه، ﴿وهم لا يتقون﴾ أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام، ﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ أي نكل بهم، أي غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً؛ ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة، ﴿لعلهم يذكرون﴾ لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.^(١)

نبيه ﷺ لعهد الخونة:

قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ٥٨﴾ [الأنفال].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وإما تخافن من قوم﴾ قد عاهدتهم ﴿خيانة﴾ أي نقضا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود، ﴿فانذِرْ إليهم﴾ أي عهدهم ﴿على سواء﴾، أي أعلمهم بأنك قد أنهيت عهدهم، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٢٧٠ - ٢٧١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨٤٩ - ٨٥٠.

أي على مهل، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ أي حتى ولو في حق الكفار لا يحبها.^(١)

الأمر بإعداد القوة للكافرين:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ٥٩ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ٦٠ [الأنفال].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ((ولا تحسبن)) يا محمد ﴿الذين كفروا سبقوا﴾ أي فاتونا، فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قدرتنا ومشيتنا فلا يعجزوننا.

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم﴾ أي مهما أمكنكم ﴿من قوة ومن رباط الخيل﴾.^(٢)

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ "ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي". وروي عنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا)).^(٣)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٧١ - ٢٧٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٥٠.

(٢) انظر: كتابي "الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ"، ص ٢١٠.

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، ودم من علمه ثم نسيه، ج ٦/٥٢؛ انظر: كتابي "الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ"، "صناعة السلاح"، ص ٢١٥.

وروي عنه ﷺ قال: ((الخيـل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، من ربط فرساً في سبيل الله، كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة لا يقبضها))، والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة.^(١)

عن عروة بن أبي الجعد البارقى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((الخيـل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿تَرْهَبُونَ﴾ أي تخوفون ﴿بِهِ عَدُو اللَّهِ وَعَدُوكُمْ﴾ أي من الكفار ﴿وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾.

هم المنافقون، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَتَفَقَّهُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ أي مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه كان يأمر ألا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت: ﴿وَمَا تَتَفَقَّهُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْفَ إِلَيْكُمْ﴾، فأمر بالصدقة بعدها، على كل من سألك من كل دين.^(٣)

أمره ﷺ بسلم المسالمين مع التوكل على الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ

(١) انظر: كتابي "موسوعة الشمائل النبوية"، ج ٣/٣٤٧.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة؛ ج ٣ م ٢١٥؛ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، ج ٦/٣٢.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٧٣ - ٢٧٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٥٠ - ٨٥١.

﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ [الأنفال].

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومناذتك فقاتلهم، ﴿وإن جنحوا﴾ أي مالوا ﴿للسلم﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿فاجنح لها﴾ أي فمل إليها واقبل منهم ذلك. ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الآخر. وإن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة.

وقوله تعالى: ﴿وتوكل على الله﴾ أي صالحهم يا محمد وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة، ليتقووا ويستعدوا ﴿فإن حسبك الله﴾ أي كافيك وحده. ثم ذكر نعمته عليه مما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾ أي جمعها على الإيمان بك، وطاعتك ومناصرتك وموازرتك، ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾ أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله سبحانه ذلك بنور الإيمان.

ولهذا قال تعالى: ﴿ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ أي عزيز الجنب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه، ويقول الله تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾.

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِين قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، قال هم المتحابون في الله ورسوله ﷺ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الرحم لتُقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِين قُلُوبِهِمْ﴾^(١).

توكله ﷺ على الله مع تحريضه المؤمنين على القتال:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٦٥) أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٦٦) [الأنفال].

يحرص تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم أي كافيههم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين.

وقوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي حثهم أو مرهم عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال، عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٧٨ - ٢٨١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٥١ - ٨٥٣؛

الحاكم/المستدرک على الصحيحين، کتاب التفسیر، تفسیر سورة الأنفال، ج ٤/٢٤٦، رقم: ٣٢٢٦.

وعدهم: ((قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)).^(١)

ثم قال تعالى مبشراً المؤمنين وأمراً: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، كل واحد بعشرة، ثم نسخ الأمر وبقيت البشارة.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ شق ذلك على المسلمين، حتى فرض الله عليهم ألا يفروا واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ قال تعالى: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر، بقدر ما خفف عنهم.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عَشْرُونَ مِائَتِينَ، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى، فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم، لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم.

عن ابن عمر رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾، قال: نزلت فينا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾.^(٢)

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٠٠؛

صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، ج ٦/٤٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٨١ - ٢٨٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٥٣.

توجيهه ﷺ بشأن أسرى بدر وإحلال الغنائم له ومن معه ﷺ:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ لَهُمْ أَشْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٧﴾ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٦٨﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٦٩﴾ [الأنفال].

عن أنس رضي الله عنه قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر، فقال: ((إن الله قد أمكنكم منهم))، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: ((يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس))، فقام عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ فقال: للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يا رسول الله نرى أن تغفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فغفا عنهم وقبل منهم الفداء، قال وأنزل الله ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: ((إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿فَمَنْ تَبْعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام، قال: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وإن مثلك يا عمر، كمثل موسى عليه السلام، قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وإن مثلك يا

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٩٣؛ وكتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٦٠٠.

عمر، كمثل نوح عليه السلام، قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾. أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء، أو ضربة عنق^(١).

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿عذاب عظيم﴾. قال غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أنني لا أعذب من عصاني، حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم وقد سبق منه رسول الله ألا يعذب أحداً شهد بدرًا.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾، يعني في أم الكتاب الأول، أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿لمسكم فيما أخذتم﴾ من الأسارى ﴿عذاب عظيم﴾. قال الله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ الآية أن المراد ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ لهذه الأمة بإحلال الغنائم، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء.

وقد استمر الحكم في الأسرى أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، وإن شاء استرق من أسرى^(٢).

وعظه عليه السلام للأسرى مع تحذيرهم من الخيانة:

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١﴾ [الأنفال].

(١) انظر: مسند الإمام أحمد، ج ١/٣٨٣؛ ورواية: الترمذي في سننه، عن ابن مسعود، كتاب الجهاد، باب ما جاء في المشورة، ج ٤/٢١٣، برقم: ١٧١٤؛ وكتاب التفسير، باب ومن سورة الأنفال ج ٥/٢٧١، برقم: ٣٠٨٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٨٦ - ٢٩١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٥٣ - ٨٥٥.

قال ﷺ يوم بدر: ((إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم - أي من بني هاشم - فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبدالمطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكراً)) فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرننا ونترك العباس؟ والله لنن لقيته لألجمنه بالسيف. فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: ((يا أبا حفص - قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص - أ يضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟)) فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله أئذن لي فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفاً إلا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً.^(١)

ثم بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا. وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً فقال رسول الله ﷺ: ((الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك. وأما ظاهرك فقد كان علينا فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبدالمطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر)). قال: ما ذاك عندي يا رسول الله.

قال: ((فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبدالله وقتم)). قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله. إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري

(١) انظر قصة الأسرى عند: ابن أبي شيبه، ص ١٩٥.

وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين وقية من مال كان معي. فقال رسول الله ﷺ: ((لا ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك)). ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً، كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله ﷻ.

عن ابن عباس ؓ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ عباس وأصحابه، قال: قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله لننصحن لك على قومنا. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾، إيماناً وتصديقاً يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ الشرك الذي كنتم عليه. قال فكان العباس يقول ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وإن لي الدنيا. لقد قال تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مئة ضعف. وقال: ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ وأرجو أن يكون قد غفر لي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾، أي ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾، أي من قبل بدر بالكفر به ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي بالأسارى يوم بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بفعله حكيم فيه.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٩٢ - ٢٩٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٥٥ - ٨٥٦.

سورة التوبة

براءة الله ﷻ ورسوله ﷺ من المشركين والمدة لهم:

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۚ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝﴾ [التوبة: ٢].

عن البراء ﷻ قال: آخر آية نزلت ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله﴾ [النساء: ١٧٦] وآخر سورة نزلت براءة^(١).

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك والناس في الحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك مع شركهم، وأنهم يطوفون بالبيت عراة. فكره مخالطتهم، وبعث أبا بكر الصديق ﷺ أميراً على الحج تلك السنة؛ ليقوم للناس مناسكهم ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادى في الناس ﴿براءة من الله ورسوله﴾، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ﷺ ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبه له.

فقوله تعالى: ﴿براءة من الله ورسوله﴾ أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله ﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾. هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر. فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الفرائض باب: (يستفتونك قل الله يفتيكم في

الكلالة)، ج ٥/١٨٥.

كان، لقوله تعالى: ﴿فَاتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤] الآية، وهذا الأرجح.^(١)

وقد بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بثلاثين أو أربعين آية من براءة، فقرأها على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسبحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، أجلهم عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرًا من ربيع الآخر. وقرأها عليهم في منازلهم، وقال: لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان.^(٢)

تأكيد براءة الله ورسوله من المشركين وإعلانه في الحج:

قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣].

يقول تعالى: وإعلام من الله ورسوله وتقدم وإنذار إلى الناس يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك بعد عرفة وأظهرها وأكثرها جمعاً، ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ أي ورسوله بريء منهم أيضاً. ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال تعالى: ﴿فإن تبتم﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فهو خير لكم وإن توليتم﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾، بل هو قادر عليكم وأنتم في

(١) انظر: ابن القيم، زاد المعاد، ص ٦٥٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣/٣٠١ - ٣٠٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٥٩ - ٨٦٠.

وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين" - حج أبي بكر بالناس، ج ٣/٨٢٧.

قبضته وتحت قهره ومشيتته، ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أي في الدنيا بالخزي والهزيمة والنكال وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر، فنبت أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك.^(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك، قال: فكنت أنادي حتى صحل صوتي.^(٢)

عن علي رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس الحج وبعثني معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إلي فقال: قم يا علي فأد رسالة رسول الله ﷺ، فقامت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة، ثم صدرنا فأتينا منى، فرميت الجمرة ونحرت البدنة ثم حلقت رأسي. وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة، فطفت أتتبع بها الفساطيط

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب كيف ينبذ إلى أهل العهد، ج ٦٩/٤.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، ج ٢٠٢/٥؛ صحيح مسلم، كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وبيان يوم الحج الأكبر، ج ١٠٦/٤ - ١٠٧.

أقرأها عليهم، فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر ألا وهو يوم عرفة. وهو يوم الحج الأكبر يوم النحر.^(١)

تأمينه ﷺ للمشركين حتى سماعهم للقرآن:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

يقول تعالى **لنبيه ﷺ**: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿استجاركَ﴾ أي استأمنك يا محمد فأجبه إلى طلبه ﴿حتى يسمع كلام الله﴾، أي القرآن الكريم تقرأه عليه، وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله، ﴿ثم ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء؛ ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عبادته.

إذا أتاك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن، حتى يأتيك فتُسمعه كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء. ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة. وكان ذلك وأمثاله من أسباب هداية أكثرهم. وبالتالي فإن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٠٩ - ٣١٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٦٠ - ٨٦٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٢١ - ٣٢٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٦٤.

أمره ﷺ بالإستقامة على العهد لمن استقام:

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين وإنظاره إياهم أربعة أشهر. ثم بعد ذلك السيف أين ثقفوا فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾، أي أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به ورسوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني يوم الحديبية، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾، أي مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ إن الله يحب المتقين. وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون.

استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد، ومالؤوا حلفاءهم، وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه مكة ومكنه منهم ولله الحمد والمنة. وأسلم منهم من أسلم وتأخر من تأخر، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء.^(١)

التحذير من تقديم الدنيا والأقارب على الله ﷻ ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٢٣ - ٣٢٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٦٤ - ٨٦٥.

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة].

ثم أمر تعالى رسوله ﷺ أن يتوعد من أثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها، أي إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم. ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).

نصر الله لرسوله ومن معه وإنزال السكينة عليهم:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۖ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۖ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ۖ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدَبِّرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ [التوبة].

يذكر الله تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ﷺ، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددتهم. ونبههم تعالى على أن النصر من عنده، سواء

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٣٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٦٨ - ٨٦٩.

قل الجمع أم كثر، فإن يوم حنين أعجبته كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين، إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه.^(١)

وأشارت الآية إلى وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة. وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة، وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ومعهم ثقيف بكما لها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وآخرون.

وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم، وجاءوا بقضهم وقضيضهم، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعهم الذين أسلموا من أهل مكة المكرمة، وهم الطلقاء في ألفين، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين. فكانت الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي. وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثاوروهم، ورشقوا بالنبال أصلت السيوف وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم قادتهم فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ وَلِيْتُم مَدْبِرِينَ﴾. وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحو العدو، والعباس عمه ﷺ أخذ بركابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب أخذ بركابها الأيسر يثقلانها؛ لئلا تسرع السيرو وهو ينوه باسمه ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول ﷺ: ((إلى عباد الله إلي أنا رسول الله)) ويقول في تلك الحال:

((أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب)).

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٨٠٧.

وثبت معه من أصحابه قريب من مئة فمنهم أبو بكر وعمر والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن ابن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم عليه السلام ثم أمر عليه السلام عمه العباس عليه السلام وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة، يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه، فجعل ينادي بهم يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون يا لبيك يا لبيك، وانعطف الناس، فتراجعوا إلى رسول الله عليه السلام، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه، وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله عليه السلام.

فلما اجتمعت مجموعة منهم عند رسول الله عليه السلام أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستتصره، وقال: ((اللهم أنجز لي ما وعدتني))، ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينه وفمه ما يشغله عن القتال، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله عليه السلام.^(١)

عن البراء بن عازب عليه السلام أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله عليه السلام يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله عليه السلام لم يفر. إن هوازن كانوا قوماً رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهم، فانهزم الناس. فلقد رأيت رسول الله عليه السلام وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول: ((أنا النبي لا كذب أنا ابن

(١) انظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/ ٨١٠، "غزوة حنين": ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/ ٤٤٩.

عبدالمطلب))^(١).

وهو مع هذا على بغلة، وليست سريعة الجري، ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب. وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه ﷺ. وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان. ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي طمأنينته وثباته على رسوله ﷺ ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين معه، ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة.

روى ابن مسعود رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس، وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار قدمنا، ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة. قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قدماً، فحادت بغلته فمال عن السرج، فقلت: ارتفع رفعك الله. قال: ((ناولني كفاً من التراب)) فناولته، قال: فضرب به وجوههم، فامتلات أعينهم تراباً. قال: ((أين المهاجرون والأنصار؟)) قلت: هم هناك قال: ((اهتف بهم))، فهتفت بهم فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب، وولى المشركون أدبارهم.^(٢)

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

(١) انظر: صحيح البخاري كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: (يوم حنين إذ أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته) إلى قوله: (غفور رحيم)، ج ٩٨/٥؛ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، ج ١٦٧/٥ - ١٦٨.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، ج ١٦٩/٥.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) قد تاب الله على بقية هوازن، فأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة المكرمة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً. فعند ذلك خيرهم بين سببهم وبين أموالهم، فاختراروا سببهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده ﷺ عليهم وقسم الأموال بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الإسلام.

إرساله ﷺ رسوله ﷺ بالهدى ليظهره على الدين كله:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) [التوبة].

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾، أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه. وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بُدَّ أن يتم ويظهر. ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾، فالهدى هو ما جاء به الرسول ﷺ من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع. ودين الحق هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي على سائر الأديان. عن رسول الله ﷺ أنه

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٣٤٠ - ٣٤٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨٦٩ - ٨٧٢.

قال: ((إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها)).^(١)

عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزاً ويذل ذليلاً، عزاً يعز الله به الإسلام وذللاً يذل الله به الكفر)).^(٢)

عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام يعز عزيزاً، ويذل ذليلاً إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها)).^(٣)

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه سمعه يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: ((يا عدي أسلم تسلم)) فقلت: إني من أهل دين، قال: ((أنا أعلم بدينك منك)) فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: ((نعم أأست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟))، قلت: بلى! قال: ((فإن هذا لا يحل لك في دينك)). قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها. قال: ((أما أني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب. أتعرف الحيرة؟)) قلت لم أرها وقد سمعت بها، قال: ((فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز)). قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: ((نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد)). قال عدي بن

(١) صحيح مسلم، كتاب الفتن واشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ج ٨/١٧١.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٤/١٠٣.

(٣) رواه أحمد في مسنده، ج ٦/٤.

حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها.^(١)

نصر الله لرسوله ﷺ وذكر حاله في الغار مع الصديق ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَتَصَرَّوهُ﴾ أي تتصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾، أي عام الهجرة لما همَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم مهاجراً بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة ﷺ، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام؛ ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم، ثم يسيروا نحو المدينة. فجعل أبو بكر ﷺ يجزع أن يطلع عليهم أحد، فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى فجعل النبي ﷺ يُسَكِّنُهُ ويثبته، ويقول: ((يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)).

عن أنس ﷺ أن أبا بكر ﷺ حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال ﷺ: ((يا أبا بكر

(١) انظر: مسند أحمد، ج ٤/٢٥٧؛ وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٤/٨٩٤ - ٩٠٢، "وفادة عدي لن حاتم".

ما ظنك باتنين الله ثالثهما)).^(١)

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، أي تأييده ونصره عليه وهدوئه على الرسول ﷺ. وقيل على أبي بكر رضي الله عنه أو عليهما الحال. ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ بَجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾، أي الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾، يعني بكلمة الذين كفروا الشرك، وكلمة الله هي لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه، واحتذى بالتمسك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.^(٢)

النفير العام قبيل غزوة تبوك:

قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤١﴾ [التوبة].

الآية ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أمر من الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عند غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب. وحثهم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر فقال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره في تفسيرها: كهولاً وشباناً، سُخَّاطاً وغير سُخَّاطٍ، ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، أي على ما كان منهم في العسر واليسر غنياً وفقيراً قوياً.

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، ج ٤/١٩٠؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ج ٧/١٠٨؛ وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٢/٤٢٢.
(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٧٤ - ٣٧٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٣.

فلما نزلت هذه الآية اشتد الأمر على الناس، فنسخها الله فقال تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله﴾.

وكان أبو أيوب رضي الله عنه يقول: قال الله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾، فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقیلاً.

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله ﷺ فقال: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة؛ لأنكم تغرمون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: ((تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يردّه إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة)).^(١)

فضح المنافقين المتخلفين عنه ﷺ في غزوة تبوك:

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢) [التوبة].

يقول تعالى موبخاً الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعذار، ولم يكونوا كذلك فقال تعالى: ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٧٦ - ٣٧٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٣ - ٨٨٤؛ صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان، ج ١/١٤؛ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، ج ٦/٣٤.

غنيمة قريبة ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي قريباً ومحدوداً ﴿لاتبعوك﴾ أي لكانوا جاءوا معك؛ لذلك ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي المسافة إلى أطراف الشام. ﴿وسيحلفون بالله﴾ أي لكم إذا رجعت إليهم ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾، أي لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم. قال الله تعالى: ﴿يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾.^(١)

عتاب الرسول ﷺ وعفو الله عنه بعد إذنه للمتخلفين:

قال تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ (٤٣) ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ والله عليهم بالمتقين (٤٤) ﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وأرتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾ (٤٥) [التوبة].

عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاتبه، فقال ﷺ: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾. وقيل نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا. ولهذا قال تعالى: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ أي في إبداء الأعذار ﴿وتعلم الكاذبين﴾. يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو، وإن لم تأذن لهم فيه.

ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله، فقال تعالى: ﴿لا يستأذنك﴾ في القعود عن الغزو ﴿الذين يؤمنون

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٧٩ - ٣٨٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٤.

بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴿لأنهم يرون الجهاد قربة لله ولرسوله. ولما ندبهم إليه بادرُوا وامثلُوا﴾ ﴿والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك﴾، أي في القعود ممن لا عذر له ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾، أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿وارتابت قلوبهم﴾ أي شكت في صحة ما جئتهم به، ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾ أي يتحIRON، يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى. وليست لهم قدم ثابتة في شيء فهم قوم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً. ^(١)

كره الله لخروج المنافقين مع رسوله ﷺ لغزوة تبوك:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [التوبة].

يقول تعالى: ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ أي معك يا محمد إلى الغزو ﴿لأعدوا له عدة﴾، أي لكانوا تأهبوا له، ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أي أبغض أن يخرجوا معكم، ﴿فثبطهم﴾ أي أخرجهم، ﴿وقيل اقعدوا مع القاعد﴾، ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي لأنهم جبناء مخذولون ﴿ولأضعوا خلالكم ييغونكم الفتنة﴾، أي ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٣٨٠ - ٣٨٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨٨٤ - ٨٨٥؛ وانظر: كتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/ ٨١٥ - ٨٢٢، "غزوة تبوك".

﴿وفيكُم سماعون لهم﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. كما أن فيهم عيوئاً يسمعون لهم الأخبار، وينقلونها إليهم.

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿والله عليم بالظالمين﴾، فأخبر تعالى بأنه يعلم حال الظالمين وغيرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾، فأخبر سبحانه عن حالهم كيف يكون لو خرجوا معكم.^(١)

ظهور أمر الله لرسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨) [التوبة].

يقول تعالى محرضاً نبيه ﷺ على المنافقين: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور﴾، أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربتة يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبدالله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه، فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٨٢ - ٣٨٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٨٥ - ٣٨٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٥.

كذب المنافقين على رسول الله ﷺ وفتنتهم:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِّي وَلَا تُفْتِنِّي ۖ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۚ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩) [التوبة].

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد ﴿أئذن لي﴾ في القعود ﴿ولا تفتني﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال الله تعالى: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا.

قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: ((هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟)) فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: ((قد أذنت لك)). ففي الجد بن قيس نزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِّي وَلَا تُفْتِنِّي﴾ الآية، أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب.^(١)

كره المنافقين للخير أن يصيبه ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (٥٠) ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٥١) [التوبة].

يعلم ﷺ نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له؛ لأنه مهما أصابه من حسنة وفتح ونصر

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣٨٦/٦ - ٣٨٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٥ - ٨٨٦.

وظفر على الأعداء مما يسره ﷺ ويسر أصحابه ﷺ ساءهم ذلك. ﴿وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل﴾، أي قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال تعالى: ﴿قل﴾ أي لهم ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾، أي نحن تحت مشيئته وقدره، ﴿هو مولانا﴾ أي سيدنا وملجؤنا ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾، أي ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.^(١)

مواساة الله لرسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة].

يقول تعالى: ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿هل تربصون بنا﴾ أي تنتظرون بنا ﴿إلا إحدى الحسنين﴾ شهادة أو ظفر، ﴿ونحن نترصد بكم﴾ أي ننتظر بكم ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾، أي ننتظر بكم هذا. أو هذا إما ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾ بسبي أو بقتل، ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾. وقوله تعالى: ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً﴾ أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٨٧ - ٣٨٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٦.

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم لأنهم ﴿كفروا بالله وبرسوله﴾. والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي ليس لهم قصد صحيح ولا همة في العمل، ﴿ولا ينفقون﴾ نفقة ﴿إلا وهم كارهون﴾. وقد أخبر ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا، وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً. فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً؛ لأنه إنما يتقبل من المتقين.^(١)

تحذيره ﷺ من المنافقين:

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ [التوبة].

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾، وقوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾، وقوله تعالى: ﴿وترهق أنفسهم وهم كافرون﴾ أي ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر؛ ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم. عياداً بالله من ذلك وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.^(٢)

إدعاء المنافقين كذباً أنهم مع رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْزُقُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ [التوبة].

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفرعهم وفرقهم وهلعهم أنهم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٢٨٨ - ٣٩٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٩٠ - ٣٩١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٦.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ يميناً مؤكدة، ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ أي في نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾، أي يخافون، فهو الذي حملهم على الحلف. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ أي حصناً يتحصنون به وحرزاً يتحرزون به ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾، وهي التي في الجبال ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ وهو السرب في الأرض والنفق ﴿لَوَلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾، أي يسرعون في ذهابهم عنكم؛ لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة وودواً أنهم لا يخالطونكم، ولكن للضرورة أحكام، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين، ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾^(١).

لَمَزَ الْمُشْرِكِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ ٥٨ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ٥٩ [التوبة].

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي ومن المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أي يعيب عليك ﴿فِي﴾ قسم ﴿الصدقات﴾ إذا فرقتها، ويتهمك في ذلك وهم المتهمون المأبونون. وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم، ولهذا ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ أي يغضبون لأنفسهم.

عن أبي سعيد رضي الله عنه في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٣٩١ - ٣٩٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٨٨٦.

النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له: اعدل فإنك لم تعدل، فقال ﷺ: ((لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل)) ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً: ((إنه يخرج من ضئضيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء)) ... الحديث.^(١)

ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾، فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾، وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ.^(٢)

أذى المنافقين لرسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُوذُنُ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة].

يوضح الله تعالى لنبيه ﷺ: أن من المنافقين قوماً يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه، ويقولون: ﴿هو أذن﴾ أي من قال له شيئاً صدقه فينا ومن حدثه صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوذُنُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، أي هو أذن خير، يعرف الصادق من

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ج ٣/١٠٩؛ وكتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، غزوة حنين، ج ٣/٨١٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٣٩٣ - ٣٩٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٧.

الكاذب ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي فهو ﷺ بالمؤمنين رحيم، وهو حجة على الكافرين. ولهذا قال تعالى: ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ وهذا تهديد من الله تعالى لمن يؤذي رسوله ﷺ.^(١)

قسم المنافقين لرسول الله ﷺ كذباً ونفاقاً:

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيفًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة].

قال تعالى: ﴿يحلِفون بالله لكم ليرضوكم﴾ ... الآية. ذكر أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين، فقال: والله ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار. قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه ﷺ فقال: ((ما حملك على الذي قلت؟)) فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب.

وقوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أنه﴾ ﴿من يحادد الله ورسوله﴾ الآية، أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله ﷻ أي شاقه وحاربه وخالفه، وكان في حد، والله ورسوله في حد ﴿فأن له نار جهنم خالداً فيها﴾ أي مهاناً معذباً، و﴿ذلك الخزي العظيم﴾ أي وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٠٥ - ٤٠٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٠٧ - ٤٠٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٩.

أذى المنافقين لرسول الله ﷺ واستهزاؤهم به:

قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤْا إِنِّي أَخْرَجُ مَا يُخْزِي مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

يقول المنافقون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا. ﴿قل استهزؤا إن الله مخرج ما تخرج ما تحذرون﴾، أي إن الله سينزل على رسوله ﷺ ما يفضحكم به ويبين له أمركم.^(١)

رد المنافقين على رسول الله ﷺ واستهزاؤهم بمن معه:

قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥] لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

روي عن عبد الله بن عمر رضيه الله عنه قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائتنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، فقال عبد الله بن عمر رضيه الله عنه: أنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تتكبه الحجارة، وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أببالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن﴾ الآية.

وروي كان من جماعة من المنافقين، يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٠٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٨٩ - ٨٩٠.

العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال؛ إرجافاً وترهيباً للمؤمنين فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أن أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مئة جلدة، وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه. وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعمار بن ياسر رضي الله عنه: ((أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا فإن أنكروا فقل بلى قلتكم كذا وكذا)). فانطلق إليهم عمار رضي الله عنه فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه فقال وديعة بن ثابت ورسول الله واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي فكان الذي عُفي عنه في هذه الآية مخشي بن حمير، فتسمي عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم مكانه، فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر.^(١)

قال تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به، ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذِبُ طَائِفَةَ﴾ أي لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مجْرِمِينَ﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.^(٢)

طاعة المؤمنين لرسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة].

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٣/٣٩١؛ وكتابي "رسول الله وخاتم النبيين" غزوة تبوك، ج ٣/٨٢١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٠٨ - ٤١٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٩٠.

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحموده، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الحديث: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)) وشبك بين أصابعه ﷺ^(١).

وفي الصحيح أيضاً: ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر))^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، المعروف ما يحبه الله ورسوله والمنكره ما يكرهه الله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يطيعون الله بالصلاة ويحسنون إلى خلقه بالزكاة ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمر الله ورسوله به وترك ما عنه زجر. ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي عزيز يعز من أطاعه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله ﷺ^(٣).

أمره ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ جُحُودَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ

(١) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، ج ٣/٩٨؛ صحيح مسلم، كتاب البر

الصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج ٨/٢٠.

(٢) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج ٧/٧٧ -

٧٨؛ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم

وتعاضدهم، ج ٨/٢٠.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤١٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٩١.

جَهَنَّمَ^ط وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ^ط وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ [التوبة].

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين. وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وذهاب الرفق عنهم، وإقامة الحدود عليهم. وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ نزلت في عبدالله بن أبي، وذلك أنه اقتتل رجلاً جهني وأنصاري فعلاً الجهني على الأنصاري، فقال عبدالله للأنصار ألا تتصروا أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، وقال: لن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ، فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية.

وروي نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشر من حمرنا هذه التي نحن عليها. فقال مصعب: أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت، فأتيت النبي ﷺ وخفت أن ينزل في القرآن أو تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئته، فقلت: يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس فقال: ((يا جلاس أقلت الذي

قَالَ مَصْعَبٌ: ((فحلف فأنزل الله ﷻ {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا} ^(١) .

وقوله تعالى: ﷻ {وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا} ، ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك، في بعض تلك الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، ففيهم نزلت هذه الآية ^(٢).

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت آخذًا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده، حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكبًا قد اعترضوه فيها، قال فأنبهت رسول الله ﷺ بهم، فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: ((هل عرفتم القوم؟)) قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين، ولكننا قد عرفنا الركاب قال: ((هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا؟)) قلنا: لا، قال: ((أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها))، قلنا: يا رسول الله أفلا تبعث إلى عشائريهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: ((لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدًا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم...)) ^(٣).

وفي رواية أخرى: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول

(١) انظر: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٦٤٢.

(٢) انظر: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٦٦٩؛ كتابي "رسول الله وخاتم النبیین ﷺ"، ج ٣/٨٢١.

(٣) انظر: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٦٦٩ - ٦٧٠.

الله ﷻ لحذيفة: ((قد قد) حتى هبط رسول الله ﷺ، فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار: ((هل عرفت القوم؟)) قال: لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون، قال ﷺ: ((هل تدري ما أرادوا؟)) قال: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: ((أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ راحلته فيطرحوه))، قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً، فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال: فعد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سعادته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال ﷺ للأنصار: ((ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي)) كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن، ثم دعاهم الله إلى التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أي وإن يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا أي بالقتل والهم والغم، والآخرة أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً.^(٢)

(١) انظر: الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج ٥/٣٩٠، ٣٩١: الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٦٦٩؛ انظر: الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٦٦٩ - ٦٧٠.
(٢) انظر: الطبرى، تفسيره، ج ٦/٤١٩ - ٤٢٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٩٣ - ٨٩٥.

علم الله تعالى بأحوال المنافقين:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (٧٨) [التوبة].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهرها أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فإن الله أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علام الغيوب، أي يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما بطن.^(١)

لما المنافقين لفقراء المسلمين واستهزأؤهم بهم:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩) [التوبة].

وهذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبتهم ولمزهم في جميع الأحوال، ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا.

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مرأئي، وجاء رجل فتصدق بصاع: فقالوا إن الله لغني عن صدقة هذا. فنزلت ﴿الذين يلمزون المطوعين﴾ الآية.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٩٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمره والقليل من الصدقة، ج ٢/١١٤؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحمل أجره يتصدق بها والنهي الشديد عن تنقص المتصدق بقليل، ج ٣/٨٨.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً)) قال فجاء عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال يا رسول الله: عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: ((بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت))، وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر فقال يا رسول الله: أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي، قال فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم﴾ الآية^(١).

وقوله تعالى: ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً؛ لأن الجزاء من جنس العمل^(٢).

الموقف من استغفاره ﷺ للمنافقين:

قال تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة].

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة، فلن يغفر الله لهم. وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت

(١) انظر: الصالحي الشامي، ج ٥/٦٢٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٢٩ - ٤٣٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٩٦ - ٨٩٧.

حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها.

عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لما نزلت هذه الآية أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم))، فقال الله تعالى من شدة غضبه عليهم: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾ الآية.

ولما ثقل عبدالله بن أبي - زعيم المنافقين - انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلي عليه، فقال له النبي ﷺ: ((ما اسمك؟)) قال: الحباب بن عبدالله قال: ((بل أنت عبدالله بن عبدالله إن الحباب اسم شيطان))، فانطلق معه حتى شهد وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه ﷺ فقليل له: أتصلي عليه وهو منافق؟ فقال: ((إن الله قال: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين))^(١).

وروي لما توفي عبدالله بن أبي، جاء ابنه عبدالله بن عبدالله رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فأعطاه قميصه، وأمره أن يكفنه فيه، ثم قام يصلي عليه، فأخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بثوبه، فقال: تصلي عليه وهو منافق، وقد نهاك الله أن تستغفر لهم؟ قال: إنما خيرني الله - أو أخبرني الله - فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. فقال سأزيده على سبعين، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ وصلينا معه، ثم أنزل الله عليه: ﴿ولا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤٣٤/٦ - ٤٣٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٩٧ - ٨٩٨؛ والرواية مختصرة عند البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة النوبة، قوله تعالى: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم)، ج ٥/٢٠٦.

تصل على أحد منهم مات أبداً، ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله، وماتوا وهم فاسقون ﴿[التوبة: ٨٤]﴾^(١)

المتخلفون عن رسول الله ﷺ والوعيد لهم:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ [التوبة: ٨١]

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا ببقعودهم بعد خروجه ﴿وكرهوا أن يجاهدوا﴾ معه ﴿بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا﴾ أي بعضهم لبعض: ﴿لا تنفروا في الحر﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك، كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار، فلماذا قالوا: ﴿لا تنفروا في الحر﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قل﴾ لهم ﴿نار جهنم﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أشد حراً﴾ مما فررت منه من الحر، بل أشد حراً من النار.

ثم قال تعالى ﷻ متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾ الآية، عن ابن عباس ؓ: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله ﷻ استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً.^(٢)

رجوع المنافقين للتخلف عن رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا

(١) رواه البخاري، صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (ولا تصلي على أحد منهم مات...)، ج ٢٠٧/٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤٣٥/٦ - ٤٣٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٩٨ - ٨٩٩؛ وانظر: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٦٣١/٥.

مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ نُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴿٨٣﴾ [التوبة].

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾، قيل كانوا اثني عشر رجلاً ﴿فَاسْتَأْذِنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أي معك إلى غزوة أخرى، ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أي تعزيراً لهم وعقوبة. ثم علل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ الرجال الذين تخلفوا عن الغزوة.^(١)

منعه ﷺ من الصلاة على المنافقين:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ [التوبة].

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره؛ ليستغفر له أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه. وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه.

وفي رواية عمر رضي الله عنه حتى إذا أكرت على النبي ﷺ فقال: ((آخر عني يا عمر، إني خيرت فاخترت، قد قيل لي: ﴿استغفر لهم﴾ الآية. لو أعلم أنني لو زدت على السبعين غفر له لزدت)). قال: ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه. قال فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم. قال فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤٣٨/٦ - ٤٣٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٨٩٩.

على قبره حتى قبضه الله.^(١)

أمره ﷺ بعدم الإعجاب بأموال وأولاد المنافقين:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥) [التوبة].

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فتكون وبالاً عليهم. وقوله تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وأن يميتهم حين يميتهم على الكفر؛ ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم. عياداً بالله من ذلك. وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.^(٢)

القاعدون عن الجهاد مع رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ أَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوهُ (٨٧) [التوبة].

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد الناكليين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول. واستأذنوا الرسول في القعود وقالوا: ﴿ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء. وهم الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم)، ج ٢٠٦/٥؛ صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، ج ١٢٠/٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤٤١/٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٨٨٦/١.

كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً. وقوله تعالى: ﴿وطبع على قلوبهم﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿فهم لا يفقهون﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.^(١)

المجاهدون مع رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٨٨ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٨٩ ﴿[التوبة].

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين ومالهم في آخرتهم، فقال تعالى: ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حال الرسول ﷺ والمؤمنين معه ومالهم، وقوله تعالى: ﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلى.^(٢)

الرسول ﷺ واستئذان المعذرين من الأعراب:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٩٠ ﴿[التوبة].

بيّن تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد، الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويظهرون له الضعف وعدم القدرة على الخروج.

قال تعالى بعد هذا: ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾، أي لم يأتوا فيعتذروا ﴿وجاء المعذرون من الأعراب﴾ قيل نفر من بني غفار جاءوا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٤١ - ٤٤٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٠١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٤٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٠١.

فاعتذروا فلم يعذرهم الله، ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ أي وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للرسول ﷺ للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم.^(١)

عذر الله ورسوله للضعفاء من المشاركة في الجهاد:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَتَرِحِلَهُمْ قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَجْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (١٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانًا يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) [التوبة].

بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في الخلقة، الذي لا يستطيع معه الجهاد في الجهاد. ومن ذلك العمى والعرج ونحوهما. ولهذا بدأ به ومنه ما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره، فلا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا لله ورسوله ﷺ في حال قعودهم ولم يرفضوا بالناس ولم يثبطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾. وقالوا الناصح لله؟ قال الذي يؤثر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالذي للآخرة ثم تفرغ للذي للدنيا.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٤٣ - ٤٤٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٠١.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة، فإني لو اضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال. فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت ﴿ليس على الضعفاء﴾ الآية^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه رضي الله عنهم فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزني رضي الله عنه فقالوا: يا رسول الله احملنا فقال لهم ﷺ: ((والله لا أجد ما أحملكم عليه))، فتولوا وهم يبكون، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال تعالى: ﴿ليس على الضعفاء﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فهم لا يعلمون﴾ كما في قوله ﷺ: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ وهم البكاؤون. وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، استحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة، فقال تعالى: ﴿لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾. وقال رسول الله ﷺ: ((لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما أنفقتهم من نفقة ولا قطعتم وادياً ولا نلتهم من عدو نيلاً إلا وقد شركوكم في الأجر))، ثم قرأ ﷺ: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ الآية^(٢).

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سرتهم سيراً إلا وهم معكم))، قالوا وهم بالمدينة؟ قال: ((نعم حبسهم العذر)). ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء،

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩٠٢.

(٢) انظر: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/ ٦٣٣.

وأُنْبِهُم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال ﴿وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾^{(١) (٢)}.

اعتذار المنافقين منه ﷺ غير مقبول:

قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُدْرَأُونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ﴾^(٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَهُمْ بِجَزَاءٍ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۚ﴾^(٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ۚ﴾^(٩٦) [التوبة].

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة سيعتذرون إليهم ﴿قل لا تعتذروا لنؤمن لكم﴾، أي لن نصدقكم ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾، أي قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾، أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها. ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين؛ لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم، فأعرضوا عنهم؛ احتقاراً لهم، إنهم رجس أي خُبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، وماؤاهم في آخرتهم جهنم ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من الآثام والخطايا. وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾، أي الخارجين عن طاعة الله وطاعة

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر، ج ٥/١٣٦؛ صحيح مسلم،

كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، ج ٦/٤٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٤٥ - ٤٤٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٠٢.

رسوله.^(١)

وصف حال الأعراب وصدقاتهم مع رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُومِ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سِيقَ لَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٩٩﴾ [التوبة].

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر، وأحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

عن ابن عباس ؓ عن رسول الله ﷺ قال: ((من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتن)).^(٢)

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً. وحينما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضي قال: ((لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقيفي أو أنصاري أو دوسي))؛ لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب؛ لما في طباع الأعراب من

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٤٨ - ٤٥٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٠٣؛ الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٦٣٣.

(٢) رواه أبو داود، باب في اتباع الصيد، ص ٥٠٧، برقم: ٢٨٥٩؛ والترمذي في سننه، باب ٦٩، ج ٤/٥٢٣.

الجفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يُسأل عما يفعل لعلمه وحكمته. وأخبر تعالى أن منهم ﴿من يتخذ ما ينفق﴾ أي في سبيل الله ﴿مغرمًا﴾ أي غرامة وخسارة ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾، أي ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿عليهم دائرة السوء﴾ أي هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم. ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لدعاء عباده وما يصدر منهم، عليم بذلك وبمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَأْمَنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾. هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قرابة يتقربون بها عند الله ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿ألا إنها قرابة لهم﴾، أي ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم﴾.^(١)

وصف حال المهاجرين والأنصار مع رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠) [التوبة].

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم،

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٤٥٠ - ٤٥٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩٠٣.

والسابقون الأولون من المهاجرين، والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية وقيل هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ وروي أنه مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجل يقرأ هذه الآية، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار قال عمر رضي الله عنه: لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا.

وهنا أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم وأفضلهم الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة المخالفة للآية يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم؛ عياداً بالله من ذلك.

فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من زكى الله ﷺ. وأما أهل الإسلام فإنهم يترضون عمن رضي الله ﷺ عنه، ويسبون من سبه الله ﷻ ورسوله، ويوالون من يوالي الله ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدئون.^(١)

علم الله بما خفي عن رسول الله ﷺ من حال المنافقين:

قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ الْأَيْمَانِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠) [التوبة].

يخبر تعالى رسوله ﷺ أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقين، وفي

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٥٣ - ٤٥٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٠٣ - ٩٠٤.

أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مردوا على النفاق﴾ أي مرنوا واستمروا عليه، ومنه يقال شيطان مريد ومارد، ويقال تمرد فلان على الله أي عتا وتجبر، وقوله تعالى: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ وفيهم صفات يعرفون بها، وقد كان ﷺ يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً وكان يراه صباحاً ومساءً.

قوله تعالى: ﴿سنعذبهم مرتين﴾ عذاب دنيوي وآخروي. ولعل من ذلك غيظهم من انتصار الرسول ﷺ والمؤمنين معه، كما أن المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر. وعذاب في الآخرة في النار وهو العذاب العظيم ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾^(١).

علم الله بمن تخلف عن رسول الله ﷺ ممن فيهم خير:

قال تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة].

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديباً وشكاً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ أي أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال آخر صالحة، خلطوا هذه بتلك. فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوئين.

وقيل: إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة: إنه الذبح وأشار بيده

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٥٦ - ٤٥٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٠٤ - ٩٠٥.

إلى حلقه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وآخرون﴾ نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل وسبعة معه، وقيل وتسعة معه. فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم.^(١)

أخذه ﷺ الصدقة لا لنفسه ودعاؤه للمتصدقين:

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٣) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤) [التوبة].

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكّيهم بها. وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخطأوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون. وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ. ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآية. وقد ردّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق رضي الله عنه وسائر الصحابة رضي الله عنهم، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق رضي الله عنه: والله لو منعوني عناقاً - وفي رواية عقلاً - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه. وقوله تعالى: ﴿وصل عليهم﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٤٥٩ - ٤٦٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٠٥.

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال: ((اللهم صل على آل أبي أوفى)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿إِنْ صَلَاتِكَ سَكَنَ لَهُمْ رَحْمَةً لَهُمْ وَوَقَارًا﴾ والله سميعٌ أي لدعائك عليهم أي بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها. وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ في رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ((إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيريها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى أن اللقمة لتكون مثل أحد)).^{(٢) (٣)}

قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامرهم بأن أعمالهم ستعرض على الله ﷻ. وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما تعرض على الرسول ﷺ في حياته وعلى المؤمنين في الدنيا يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا.

(١) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب هل يصلي على غير النبي ﷺ، ج ١٥٧/٧؛ صحيح

مسلم، كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة، ج ١٢١/٣.

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، ج ٤٨/٣، حديث

رقم: ٦٦٢؛ صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا يقبل

إلا من كسب طيب، ج ١١٣/٢.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤٦٣/٦ - ٤٦٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٩٠٥/١ - ٩٠٦.

عن عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل: ﴿اعملوا فسيروا الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾. ^(١) ^(٢)

علم الله بالمتخلفين المرجين لأمره ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَأَخْرُوكَ مُرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠٦) [التوبة].

هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال لا شكاً ولا نفاقاً، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري، كما فعل أبو لبابة وأصحابه. وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجي هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ [التوبة: ١١٧] الآية، ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ [التوبة: ١١٨] وقوله تعالى: ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذاك. ولكن رحمته تغلب غضبه، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه. ^(٣)

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل

إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته)، ج ٢١٠/٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤٦٧/٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٩٠٦/١.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤٦٧/٦ - ٤٦٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٩٠٦/١ - ٩٠٧.

وانظر: رواية البخاري في صحيحه: حديث كعب بن مالك (فتح الباري)، ج ٢٤١/١٦؛

وعند ابن أبي شيبه في المغازي، ص ٣٩٨.

مسجد الضرار وحرب الله ورسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكانت قد تنصرت في الجاهلية. وقرأ علم أهل الكتاب. وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها. وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشرقي قريش، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد. وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه. وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته. فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شراً. وكان رسول الله ﷺ قد دعا إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه

وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه. من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك.

فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك. وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم؛ ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته. وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية. فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال ﷺ: ((إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله)). فلما قفل راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين، في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، وأنزل الله ﷻ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿الظالمين﴾.

ولما أتاه ﷺ خبر المسجد دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف، ومعن بن عدي أو أخاه عامر بن عدي أخا بالعجلان فقال ﷺ: ((انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاها))، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشم، فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي. فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشندان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاها وهدماه وتفرقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن الكريم ما نزل: ﴿والذين اتخذوا

مسجداً ضراراً وكفراً﴾ إلى آخر القصة.^(١)

وقوله تعالى: ﴿وليحلفن﴾ أي الذين بنوه ﴿إن أردنا إلا الحسن﴾، أي ما أردنا ببنيانهم إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي فيما قصدوا وفيما نوا. وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له الراهب لعنه الله.

وقوله تعالى: ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ نهي له ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أي يصلي فيه أبداً. ثم حثه تعالى على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنيانه على التقوى، وهي طاعة الله وطاعة رسوله وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموثلاً للإسلام وأهله. ولهذا قال تعالى: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾. والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء.

جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((صلاة في مسجد قباء كعمرة)).^(٢)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((نزلت هذه الآية في أهل قباء، ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية)).^(٣)

(١) انظر: الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٦٧٤.

(٢) سنن الترمذى، كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد قباء، ج ٢/١٤٥، حديث رقم: ٣٢٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في الاستنجاء بالماء، ص ١٤، حديث رقم: ٤٤؛ وسنن الترمذى، كتاب التفسير، باب (ومن سورة التوبة)، ج ٥/٢٨٠، حديث رقم: ٣١٠٠.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال: ((ما هذا الطهور الذي أتى الله عليكم؟)) فقال: يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا وغسل فرجه أو قال مقعدته، فقال النبي ﷺ: ((هو هذا)).^(١)

وفيه نزلت هذه الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿لَسَجْدَ أَسْسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتزهر عن ملابس القاذورات.^(٢)

نهى رسول الله ﷺ والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين:

قال تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١١٣ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۝١١٤﴾ [التوبة].

عن ابن المسيب رضي الله عنه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال ﷺ: ((أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله))، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا

(١) انظر: الهيتمي، مجمع الزوائد، ج ٢١٢/١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤٦٩/٦ - ٤٧٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٩٠٧/١ - ٩١٠.

طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فقال: أنا على ملة عبدالمطلب، فقال النبي ﷺ: ((لأستغفرن لك ما لم أنه عنك))، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قَرَبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(١).

عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية^(٢).

توبة الله على النبي ﷺ والمؤمنين المجاهدين معه:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١٧) [التوبة].

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا مع النبي ﷺ إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء، على ما يعلم الله من الجهد حتى كان الرجلان يشقان التمرة بينهما. فتاب الله على رسوله ﷺ وعليهم وأقفلهم من غزوتهم.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، وحتى

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب قصة أبي طالب رضي الله عنه، ج ٤/٢٤٧.

(٢) انظر: سنن الترمذي، كتاب تفسير، باب (ومن سورة التوبة)، ج ٥/٢٨١، حديث رقم:

إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى إن الرجل لينحر بغيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كعبه، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فقال صلى الله عليه وسلم: ((تحب ذلك؟)) قال: نعم، فرفع صلى الله عليه وسلم يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر.

وفي قوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي من النفقة والطهر والزاد والماء، ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي عن الحق، ويشك في دين الرسول صلى الله عليه وسلم ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ثم تاب عليهم﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾^(١).

توبة الله على الثلاثة المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) [التوبة].

عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزاة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٥٠١ - ٥٠٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩١٤.

الله ﷻ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر.

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة. والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة. وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز، واستقبل عدواً كثيراً. فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله ﷻ. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر^(١) فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أغدو؛ لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً. فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً. وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين، ثم ألحقه، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط^(٢) الغزو، فهممت أن أرتحل فألحقهم وليت أني فعلت. ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت

(١) أصعر: بمعنى مشتاق.

(٢) تفارط: بمعنى تفرق.

في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً^(١) عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذره الله ﷻ. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ((ما فعل كعب بن مالك؟)) فقال رجل من بني سلمة: حبسه يا رسول الله برداه والنظر في عطفه.

فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئسما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك رضي الله عنه: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بشي وطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاء المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال لي: ((تعال)) فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ((ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهراً؟))، فقلت يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر. لقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه إني لأرجو عقيب ذلك من الله ﷻ. والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

(١) مغموصاً: بمعنى نمارق.

قال: فقال رسول الله ﷺ: ((أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك)). فقممت، وقام إلى رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي. قال ثم قلت لهم هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالاً مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت فمن هما؟ قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لي فيهما أسوة.

قال: فمضيت حين ذكروهما لي. قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم. فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد. وأتى رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي أحرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر. فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض عني. حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال فسكت، قال فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال الله ورسوله أعلم.

قال ففاضت عيناى، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاء فدفع إلى كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً، فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك، قال: فقلت حين قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، قال: فتيمنت به التور فسجرت به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول: يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك، قال: فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: بل اعتزلها ولا تقربها، قال: وأرسل إلى صاحبني بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقى بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه، قال: ((لا ولكن لا يقربك))، قالت: وإنه والله ما به من حركة إلى شيء، وإنه والله ما زال يبيكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهي عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك، قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد

جاء الفرج من الله ﷻ بالتوبة علينا. فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر. فذهب الناس يبشروننا. وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرسًا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس.

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنني نزعته له ثوبيّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك يومئذ غيرهما. واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أرم رسول الله ﷺ، وتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنوني بتوبة الله، يقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله، فقام إلي طلحة بن عبيدالله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: ((أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك)) قال: قلت أمن عندك رسول الله أم من عند الله؟ قال ﷺ: ((لا بل من عند الله)). قال وكان رسول الله ﷺ إذا سرّ استتار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يُعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: ((أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك)).

قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، قال: فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى. والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله ﷻ فيما بقي.

قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ إلى آخر الآيات. قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون. يحلفون لكم لتعرضوا عنهم فإن تعرضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ [التوبة: ٩٦] قال كعب: وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم. وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فلذلك قال ﷺ: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.^(١)

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أي مع سعتها فسدت عليهم المسالك

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب: حديث كعب بن مالك، وقول الله عز وجل: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا)، ج ١٣٠/٥ - ١٣٥؛ وصحيح مسلم، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، ج ١٠٥/٨ - ١١٢.

والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتتجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً.

الترغيب في النفي مع رسول الله ﷺ وعدم التخلف عنه:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣٠].

يعاتب ﷺ المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورجبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر؛ لأنهم ﴿لا يصيبهم ظمأ﴾ وهو العطش ﴿ولا نصب﴾ وهو التعب ﴿ولا مخمصة﴾ وهي المجاعة، ﴿ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار﴾. أي ينزلون منزلاً يرهب عدوهم، ﴿ولا ينالون﴾ منه ظفراً وغلبة عليه ﴿إلا كتب لهم﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلية تحت قدرهم وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً.^(١)

أجر المصاحبين والمنفقين مع رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٥١٠ - ٥١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩١٧.

كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣١﴾ [التوبة].

يقول تعالى: ﴿ولا ينفقون﴾ هؤلاء الغازون في سبيل الله ﴿نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ أي قليلاً ولا كثيراً ﴿ولا يقطعون وادياً﴾ أي في السير إلى الأعداء ﴿إلا كتب لهم﴾؛ لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ليجزئهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾. وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة.

قال تعالى: ﴿ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم﴾ الآية. ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهليهم إلا ازدادوا قرباً من الله.^(١)

حرص الرسول ﷺ على الناس:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة].

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي من جنسهم وعلى لغتهم. وقال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أي منكم وبلغتكم.

وقوله تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ أي يعز عليه ﷺ الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه ﷺ قال: ((بعثت بالحنيفية السمحة)).^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٥٢٢ - ٥٢٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٢٠ - ٩٢٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ج ١/١٥١.

وفي الصحيح: إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة.^(١)

قال تعالى: ﴿حريص عليكم﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

وقوله: ﴿بالمؤمنين رؤف رحيم﴾ أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿إن تولوا﴾ أي تولوا عما جئتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فقل حسبى الله لا إله إلا هو﴾، أي الله كافٍ لا إله إلا هو عليه توكلت ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه؛ لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ في كل شيء وهو على كل شيء وكيل.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى آخر السورة، قال هذا آخر ما نزل من القرآن.^{(٢) (٣)}

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ج ١/١٥

(٢) انظر: الهيثمي، مجمع الزوائد، ج ٣٦/٧.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥١٢/٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩١٧ - ٩١٨.

سورة يونس

بشرية الرسول ﷺ والبشارة للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا السَّحَرُ الْمُبِينُ ٢﴾ [يونس].

الحروف المقطعة في أوائل السور ليس هذا موضع الحديث عنها.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين وقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية. منكرًا سبحانه على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر. عن ابن عباس ؓ: لما بعث الله تعالى محمدًا ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك. ومن أنكر منهم قالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمد قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية.^(١)

عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق﴾ يقول: سبقت لهم السعادة في الذكر الأول وأجرًا حسنًا بما لهم من الأعمال الصالحة؛ صلاتهم وصومهم وصدقهم.

وقوله تعالى: ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ أي مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم رجلاً من جنسهم بشيرًا ونذيرًا ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥١٢/٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٩١٧/١ - ٩١٨.

مبين ﴿أي ظاهر. وهم الكاذبون في ذلك.﴾^(١)

القرآن من عند الله وليس من عند الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَأَنْتِ بِشُرَّةٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس].

يخبر تعالى عن تغت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحجته الواضحة قالوا له: أنت بقرآن غير هذا أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ أي ليس هذا إلي. إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾.

ثم قال تعالى محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراككم به﴾، أي إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته. والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله ﷻ، لا تتقدون علي شيئاً تغمصوني به. ولهذا قال تعالى: ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾، أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل. ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥٢٥/٦ - ٥٢٩: ابن كثير، تفسيره، ج ٩٢٢/١ - ٩٢٣.

معه فيما سألته من صفة النبي ﷺ قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت لا.^(١)

وكان أبو سفيان إذ ذاك قبل إسلامه رأس الكفرة وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق.

فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه ﷺ بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة.^(٢)

التهديد لمن لم يؤمن بما جاء به الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧) [يونس].

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ممن افترى على الله كذباً، وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك. فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظلمًا من هذا. ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتهه حال هذا بالأنبياء؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس. قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل

(١) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج ١/٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٥٣٩ - ٥٤٢: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٢٦.

الناس، فكنت فيمن انجفل. فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب. قال: فكان أول ما سمعته يقول: ((يا أيها الناس أفضوا السلام، وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)).^(١)

ولما قدم وفد ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له: من رفع هذه السماء؟ قال: «الله» قال: ومن نصب هذه الجبال قال: «الله» قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: «الله» قال: فبالذي رفع السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللهم نعم». ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ويحلف له رسول الله ﷺ فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص.^(٢) فاكتمى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه ﷺ بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه.^(٣)

رده ﷺ على المنكرين لما جاء به:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ [يونس].

ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، أو نحو ذلك مما الله

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٢/ ٣٢٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/ ٥٧٤.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٥٤٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩٢٦ - ٥٢٧.

عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله. قال تعالى إرشاداً لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا: ﴿فقل إنما الغيب لله﴾، أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور. وهو الذي يحكم ولا يُحكم عليه.

قال تعالى: ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله في فيكم.

مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق اثنتين، فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا. ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتثبيتاً لأجابه، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعنّتاً، فتركهم فيما رابهم وعلم أنهم لا يؤمن منهم. فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوه، فالله ﷻ يفعل ما يشاء ويريد، لا ما يريدون هم: ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾^(١).

تأكيده ﷺ على سرعة مكر الله:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾^(٢١) [يونس].

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾ استهزاء وتكذيب. وقوله تعالى: ﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ أي أشد استدراجاً وإمهالاً، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه. والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٥٤٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٢٨.

يفعله ويحصونه عليه ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والنقيير والقطمير.^(١)

تذكير الرسول ﷺ بقدره الله الحق:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تُنْقَوْنَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس].

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الآلهة، فقال تعالى آمراً نبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيتته فيخرج منها، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون به.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟ وقوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾ الآية أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أي فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو واحد لا شريك له، ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٥٤٣ - ٥٤٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩٢٨.

إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء، وقوله: ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا﴾ الآية أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق المتصرف في الملك وحده الذي بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة ربك الله أنهم أشقياء من ساكني النار.^(١)

تأكيد الرسول ﷺ على قدرة الله وهدايته:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَكْبِدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُوَفَّقُونَ﴾^(٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٣٥) وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٣٦) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣٧) [يونس].

هذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد. ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، أي من بدأ خلق هذه السماوات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السماوات والأرض ويبدلها بفضاء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له، ﴿فَأَنْتُمْ تُوَفَّقُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٥٥٨ - ٥٥٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩٣١ - ٩٣٢.

تقدر على هداية ضال، وإنما الذي يهدي الحيارى والضلال ويقلب القلوب من الغي إلى الرشd الله الذي لا إله إلا هو.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ أي أفتتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصر بعد العمى أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي لعماء وبُكمه. وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي فما بالكم أن يذهب بعقولكم كيف سويتم بين الله وبين خلقه وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا، وهلا أفردتم الرب ﷻ المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة، ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم أي توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تهديد لهم ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.^(١)

تحدي الكفار بالقرآن وعاقبتهم:

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤٠) [يونس].

هذا بيان لإعجاز القرآن الكريم، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني العزيزة النافعة في الدنيا والآخرة والحق البين لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥٥٩/٦ - ٥٦١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٩٣٢/١.

وأقواله فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين. ولهذا قال تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة ومهيمنًا عليه ومبينًا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل. وقوله تعالى: ﴿وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي وبيان الأحكام والحلال والحرام ببيانًا شافيًا كافيًا حقًا لا مرية فيه من الله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ أي إن ادعيتهم وافتريتهم وشككتهم في أن هذا من عند الله وقلتم كذبًا: إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم. وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

فإن الله تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد مباشرةً فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده، وليستعينوا بمن شاءوا. وأخبر أنهم لا يقدرّون على ذلك ولا سبيل لهم إليه، ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به. ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته. فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأشدهم له.

جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من

الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً))^(١).

وقوله تعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ يقول بل كذب هؤلاء بالقرآن الكريم ولم يفهموه ولا عرفوه، ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً، ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم السالفة ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلوا وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله تعالى: ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ الآية، أي ومن هؤلاء الذين بعث إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن الكريم ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه؟ ومن يستحق الضلالة فيضلّه، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلاً ما يستحقه ﷺ وتقدس وتنزه لا إله إلا هو.^(٢)

براءة الرسول ﷺ من المكذبين:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ:

(بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)، ج ٨/١٣٨ - ١٣٩؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب

الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملّة، ج ١/٩٢ - ٩٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٥٦٣ - ٥٦٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٣٣.

﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ [يونس].

يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذبتك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم، ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم﴾ وقوله تعالى: ﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان، وفي هذا كفاية عظيمة. ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم، وهو الأطرش، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله. ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهي. وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار.

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين. فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله. ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾. وفي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: ((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال ﷺ في آخره - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد

اللَّهُ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)).^(١) ^(٢)

وعد الله لرسوله ﷺ بأن يريه حال الكفار:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦) [يونس].

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي ننتقم منهم في حياتك يا محمد، فترى ذلك ﴿أَوْ نَتُوفِّئَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، أي مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك، ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، يوم القيامة يفصل بينهم بالعدل والحق ويقضي بينهم.^(٣)

تفويض الرسول ﷺ أمره لله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ [يونس].

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه. وهي كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم فقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ الآية، أي لا أقول إلا ما علمني الله ﷻ، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه،

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج ١٧/٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٥٦٣ - ٥٦٤: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٣٣ - ٩٣٤.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٥٦٤ - ٥٦٥: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٣٤.

فأنا عبده ورسوله إليكم. وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها، ولكن ﴿لكل أمة أجل﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة، فإذا انقضى أجلهم ﴿فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.

توعد الرسول ﷺ للكفار بعذاب الله:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ٥٠ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ٥٢﴾ [يونس].

أخبر الله تعالى أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال تعالى: ﴿قل أرايتم إن أتاكم عذابه بيئاتاً أو نهاراً﴾ أي ليلاً أو نهاراً ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون أتم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون﴾، يعني أنهم إذا جاءهم العذاب آمنتم ﴿ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد﴾ أي يوم القيامة يقال لهم: هذا تبيكيتاً وتقريعاً. وهذا ما كسبوه لأنفسهم.^(١)

تأكده ﷺ على القيامة:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس].

يقول تعالى: ويستعجلونك يا محمد ﴿أحق هو﴾؟ أي المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام تراباً، ﴿قل إي وربّي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾، أي ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٥٦٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٣٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٥٦٦ - ٥٦٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٣٥.

تأكيدہ ﷺ بفرح المؤمنين بفضل الله ورحمته:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس].

يقول تعالى ممتنًا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم﴾ أي زاجر عن الفواحش ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، وهدى ورحمة أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه. وقوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هو خير مما يجمعون﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الزاهية لا محالة.^(١)

حرصه ﷺ على أن يحل الناس ما أحل الله ويحرموا ما حرم:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ آذَنَ لَكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ تَقْتُلُونَ ٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس].

قال ابن عباس ؓ: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحللون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل.

عن مالك بن نضلة ؓ قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة، فقال: هل لك مال؟ قلت: نعم. قال: من أي المال؟ قال: قلت: من كل المال من الإبل

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٥٦٧ - ٥٧٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٣٥.

والرقيق والخيول والغنم، فقال: ((إذا آتاك الله مالا فلير عليك - وقال! هل تنتج إبلك صحاحاً آذانها فتعتمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول هذه بحر، وتشق جلودها وتقول هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك؟)) قال: نعم. قال: ((فإن ما آتاك الله لك حل، ساعد الله أشد من ساعدك وموسى الله أحد من موساك)).^(١)

وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال تعالى: ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا، وكذلك لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم. ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً.

وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.^(٢)

شهادة الله لعمله ﷺ وعمل الخلق أجمعين:

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١١﴾ [يونس].

(١) انظر: مسند الإمام أحمد، ج ٣/٤٧٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٥٧٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٣٥ - ٩٣٦.

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

قال تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ أي إذا تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، لا يغيب عن الله شيء في السماوات ولا في الأرض.^(١)

تسليّة الرسول ﷺ عن قول الكفار السيء:

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥].

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ولا يحزنك﴾ يا محمد قول هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم وتوكل عليه، فإن العزة لله جميعاً أي جميعاً له ولرسوله وللمؤمنين. ﴿هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم.^(٢)

تحذيره ﷺ لمن زعم أن الله ولد:

قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٦٨] قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [٦٩] مَتَّعَ فِي

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٥٧٢ - ٥٧٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩٣٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٥٨٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩٣٨.

الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ
ثُمَّ إِنَّا رَجَعْنَاهُمْ إِلَى الْيَمِّ فَمِنْهُم مُّذِقْنَاهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ [يونس].

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ﴿ولداً سبحانه هو الغني﴾، أي تقدس عن ذلك. هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه، ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾، أي فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شيء مملوك له عبد له، ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان. ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد.

ثم توعده تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة. فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ثم يضطرهم ﴿إلى عذاب غليظ﴾، كما قال تعالى هاهنا: ﴿متاع في الدنيا﴾ أي مدة قريبة ﴿ثم إنا مرجعهم﴾ أي يوم القيامة ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد﴾ أي الموضع المؤلم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوا من الإفك والزور.^(١)

تذكيره ﷺ بنوح عليه السلام والتوكل على الله:

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كِبَرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذَكِيرِي بِعَايَةِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ ﴿٧١﴾ [يونس].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿واتل عليهم﴾ أي أخبرهم واقصص عليهم، أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿نبأ نوح﴾ خبره مع قومه الذين

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٥٨٣/٦ - ٥٨٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٩٣٨/١ - ٩٣٩.

كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم﴾ أي عظم عليكم ﴿مقامي﴾ أي فيكم بين أظهركم ﴿وتذكيري﴾ إياكم ﴿بآيات الله﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿فعلى الله توكلت﴾ أي فإني لا أبالي ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم أم لا ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن وغيره، ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلي ﴿ولا تنظرون﴾ أي ولا تؤخروني ساعة واحدة أي مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء.^(١)

رسول الله ﷺ والثبات على الحق:

قال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ^(٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ^(٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ^(٩٧) ﴿[يونس].

روي أن رسول الله ﷺ قال: ((لا أشك ولا أسأل)).^(٢)

وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب. ومع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/ ٥٨٤ - ٥٨٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩٣٩.

(٢) انظر: سنن أبو داود، كتاب الأدب، باب في رد الوسوسة، ص ٩٢٥، حديث رقم: ٥١١٠.

كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، أي لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها.^(١)

رسول الله ﷺ لا يكره الناس على الإيمان:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩١) وَمَا كُنْتَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) [يونس].

يقول تعالى: ﴿ولو شاء ربك﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله.

وقال تعالى: ﴿أفأنت تكره الناس﴾ أي تلزمهم وتلجئهم ﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾، أي ليس ذلك عليك يا محمد ولا إليك بل لله. والكثير من الآيات دالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد الهادي من يشاء المضل لمن يشاء، بعلمه وحكمته وعدله. ولهذا قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس﴾ وهو الخبال والتخبط والضلal ﴿على الذين لا يعقلون﴾ أي من حجج الله وأدلتها. وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل.^(٢)

نظرة الرسول ﷺ لمن لم يؤمن بآيات الله:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٦٠٩ - ٦١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٤٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٦١٤ - ٦١٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٤٦.

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ [يونس].

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آلائه وما خلق الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الأبصار، مما في السماوات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذراً فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج وهو مع هذا مسخر مذل للسالكين، يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية والرسائل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون.

وقوله ﷺ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم؟ ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ونهلك المكذبين بالرسول، ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقاً أوجبته الله تعالى على نفسه

الكريمة.^(١)

توحيد الرسول ﷺ وإيمانه:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٤ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٠٥ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ۝١٠٦ وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس].

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل: يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إلي فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم. فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرني، فإنها لا تضر ولا تنفع وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

وقال ﷺ: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ وهو معطوف على قوله تعالى: ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ﴾ الآية فيه بيان؛ لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد. فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له. وقوله تعالى: ﴿وهو الغفور﴾

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٦١٦ - ٦١٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٤٦.

الرحيم ﴿أي لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه﴾.^(١)

تأكيدہ ﷺ اتباعه للوحي وهو الحق:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨) ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩) [يونس].

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مزية فيه. ولا شك فيه فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه. ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾، أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين إنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه الله ﷻ إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حتى يحكم الله﴾، أي يفتح بينك وبينهم ﴿وهو خير الحاكمين﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٦١٧ - ٦١٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٤٦ - ٩٤٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٦١٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٤٧.

سورة هود

تأكيده ﷺ للبعث بعد الموت:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود].

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء)).^(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((قال الله ﷻ أنفق أنفق عليك)). وقال ﷺ: ((يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار)). وقال ﷺ: ((أفرايتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغيض ما في يمينه. وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع)).^(٢)

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليه السلام، ج ٥١/٨.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدِي)،

وقال مجاهد ، وغيره: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ قبل أن يخلق شيئاً. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾ ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السماوات والأرض.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه. وفي قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾ كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة الفعال لما يريد ﷻ سبحانه وتعالى.

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي خلق السماوات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم؛ ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولم يخلق ذلك عبثاً. وقوله تعالى: ﴿ليبلوكم﴾ أي ليختبركم ﴿أيكم أحسن عملاً﴾، ولم يقل أكثر عملاً، بل أحسن عملاً. ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله ﷻ على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل.

وقوله تعالى: ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت﴾... الآية يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة. وقولهم: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي يقولون كفوراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول.

وقوله تعالى: ﴿وَلئنْ أَخْرنا عَنْهم الْعذابَ إلى أمةٍ معدودةٍ﴾ الآية. يقول تعالى: وَلئنْ أَخْرنا الْعذابَ والمُؤاخِذَةَ عَنْ هؤلاءِ الْمُشْرِكِينَ إلى أَجَلٍ معدودٍ وأمدٍ محصورٍ وأوعدناهم إلى مدةٍ مضروبةٍ ليقولن تكذيباً واستعجالاً، ما يحبسهُ أي يؤخر هذا الْعذابَ عَنّا فإن سجاياهم قد ألفت التّكذيبَ والشكَّ. فلم يبقَ لهم محيصٌ عنه ولا محيدٌ والأمةُ. تستعمل في القرآن والسنة في معانٍ متعددة ويراد بها المدة، كقوله تعالى في هذه الآية ﴿إلى أمةٍ معدودةٍ﴾.

كما أن المراد من الأمة هاهنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما في الحديث: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار)).^(١) وأما أمة الاتباع فهم المصدقون للرسول.^(٢)

تأكيد نذارته ﷺ وحدودها:

قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود].

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول ﷺ، فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله ﷻ آناء الليل وأطراف النهار.

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى

جميع الناس ونسخ المثل بملة، ج ١/٩٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٦١٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٤٩.

وقال تعالى: هاهنا ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا﴾ أي لقولهم ذلك فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله ﷻ. ^(١)

تحذيره ﷻ للكفار أن يأتوا بسور مثل القرآن:

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود].

ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله ولا بسورة من مثله؛ لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات. وذاته لا يشبهها شيء. تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه. ثم قال تعالى: ﴿فإلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهموهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وأمره ونهيهِ ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. ^(٢)

تثبيته ﷻ:

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود].

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١١/٧ - ١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٥٠.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٧ - ١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٥٠ - ٩٥١.

عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو. وقوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ قيل جبريل عليه السلام.

وقيل: هو محمد ﷺ، وكلاهما يشترك في المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغا رسالة الله تعالى فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة، المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشرعية من حيث الجملة. والتفاصيل تؤخذ من الشريعة والفطرة تصدقها وتؤمن بها. ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ وهو القرآن الكريم بلغه جبريل إلى النبي ﷺ وبلغه محمد ﷺ إلى أمته.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن الكريم، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي ومن كفر بالقرآن الكريم من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل

(١)).(النار)

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه أو قال تصديقه في القرآن. فبلغني أن النبي ﷺ قال: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار)) فجعلت أقول أين مصداقه في كتاب الله؟ قال وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن حتى وجدت هذه الآية ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾، قال: من الممل كلها.

وقوله تعالى: ﴿فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك﴾ الآية، أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه.

تعليم الله ﷻ لرسوله ﷺ وأمره بالصبر:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٤٩] [هود].

يقول تعالى **لنبيه** ﷺ هذه القصة وأشباهاها: ﴿من أنباء الغيب﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحيتها إليك على وجهها كأنك شاهدها. نوحيتها إليك أي نعلمك بها وحيًا منا إليك، ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله تعالى بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك.

فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك فإننا سننصرك

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الممل بملة، ج ١/ ٩٣.

ونحوطك بعنايتنا ، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة كما فعلنا بالمرسلين ، حيث نصرناهم على أعدائهم.^(١)

قص عليه ﷺ مصير الأمم السابقة:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود].

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وقصهم على نبيه محمد ﷺ ، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى﴾ أي أخبارهم ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ﴾ أي عامر ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أي هالك ، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ، ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي غير تخسير ، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة ، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة.^(٢)

عقوبة الله للفرى الظالمة:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿إِنْ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٥٦: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٥٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/١١٠ - ١١١: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٦٧.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾)).^{(١) (٢)}

تشبيته ﷺ وجزاء كل بعمله:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ نصيبهم غير منقوص ^(١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ^(١١٠) وَإِنَّ كَلَامَ لَمَّا لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ^(١١١) [هود].

يقول تعالى: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ المشركون إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آبائهم من قبل، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات. وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء، فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ قال: ما وعدوا من خير أو شر.

ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى عليه السلام الكتاب، فاختلف الناس فيه، فمن مؤمن به ومن كافر به. فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ولا يهمنك ذلك، ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم﴾ أي لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم،

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد)، ج ٥/٢١٤؛ ورواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج ٨/١٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/١١١ - ١١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٦٧.

فهو سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه.

ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فقال تعالى: ﴿وإن كلا لما ليوفيهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير﴾ أي عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها.

أمره ﷺ بالاستقامة والولاية لله ﷻ وحده:

قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٢) وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ [هود].

يأمر تعالى رسوله ﷺ وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد. ونهى عن الطغيان وهو البغي، فإنه مهلكة حتى ولو كان على مشرك. وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عن ابن عباس ؓ: لا تدهنوا ولا تميلوا إلى الذين ظلموا، ولا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم، ﴿فَتَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذك ولا ناصر يخلصكم من عذابه.^(١)

أمره ﷺ والأمة معه بالصلاة طرفاً من النهار وزلفاً من الليل:

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/ ١٢٣ - ١٢٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩٦٩.

السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكْرَيْنِ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ [هود].

عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وأقم الصلاة طرقيّ النهار﴾ قال: يعني الصبح والمغرب. وقال آخرون: هي الصبح والعصر، ﴿وزلفاً من الليل﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: يعني صلاة العشاء. وقال آخرون: ﴿وزلفاً من الليل﴾ يعني المغرب والعشاء.

وقوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾، يقول تعالى إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء في الحديث عن أبي بكر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له)).^(١)

عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ، وقال: ((من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه)).^(٢)

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((أرايتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمرّاً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟)) قالوا: لا يا رسول الله، قال: ((كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا)).^(٣)

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، ج ٢/٢٥٧ - ٢٥٨، حديث رقم: ٤٠٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، ج ١/٤٨؛ صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله. ج ١/١٤١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، ومواضع الصلاة باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، ج ٢/١٣١ - ١٣٢.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أنني لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً فذهب الرجل. فقال عمر رضي الله عنه: لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال: ((ردوه علي)) فردوه عليه فقراً عليه ﴿أقم الصلاة طرقيّ النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾، فقال معاذ رضي الله عنه وفي رواية عمر رضي الله عنه: يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة؟ قال: ((بل للناس كافة)).^(١)

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)).^{(٢) (٣)}

بيانه ﷺ لأهمية الإصلاح في النجاة:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٣) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٤﴾ [هود].

يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله تعالى:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قوله تعالى: (إن الحسنات يذهبن السيئات)، ج ١٠٢/٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشره الناس، ج ٣٥٥/٤، حديث رقم: ١٩٨٧.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٢٤/٧ - ١٣٥: ابن كثير، تفسيره، ج ٩٧٠/١ - ٩٧٢.

﴿إلا قليلاً﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته. ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وفي الحديث ((إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب)).^(١)

ولهذا قال تعالى: ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فجأهم العذاب ﴿وكانوا مجرمين﴾ ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين.^(٢)

رحمة الله لمن يشاء سبحانه:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ^(١١٨) ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ^(١١٩) [هود].

يخبر الله تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر، ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ أي ولا يزال الخلاف بين

(١) انظر: سنن أبي داود، كتاب الفتن والملاحم، باب في الأمر والنهي، ص ٧٧٧، حديث رقم: ٤٣٣٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٣٥/٧ - ١٣٧: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٧٢.

الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم مختلفين في الهدى وفي الرزق، يسخر بعضهم بعضاً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي ﷺ خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه، وصدقوه وآزره ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة لأنهم الفرقة الناجية.

وقال بعضهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾. يعني الحنيفية وقال قتادة أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم. وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم، وقوله تعالى: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، عن ابن عباس ؓ: خلقهم فريقين كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وقيل للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب.

وقيل: بل المراد للرحمة والاختلاف خلقهم كما أن الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾. فمن رحم ربك غير مختلف، فقليل له لذلك خلقهم قال خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره. وقال مالك: في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ

جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة.^(١)

تثبيت فؤاده ﷺ بالقصص:

قال تعالى: ﴿وَلَا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠) [هود].

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك يا محمد من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزيه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين. كل هذا مما ثبت به فؤادك أي قلبك يا محمد؛ ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة.

وقوله تعالى: ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين جاءك فيها قصص حق ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.^(٢)

تحذيره ﷺ للكفار:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٢١) ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ (١٢٢) [هود].

قول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي على طريقتكم ومنهجكم ﴿إنا عاملون﴾، أي على طريقتنا ومنهجنا ﴿وانتظروا إنا منتظرون﴾ أي فستعلمون

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٣٧/٧ - ١٤٢: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٧٢ - ٩٧٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٤٢/٧ - ١٤٤: ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٧٣.

﴿من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾. وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.^(١)

توكله ﷺ على الله:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود].

يخبر تعالى أنه عالم غيب السماوات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر سبحانه. فأمر تعالى نبيه ﷺ ومعه الأمة بعبادته والتوكل عليه. فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه. وقوله تعالى: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/١٤٤ - ١٤٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/٩٧٣.

سورة يوسف

أحسن القصص بالوحي عليه ﷺ في القرآن:

قال تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف].

قوله تعالى: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين، أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون﴾؛ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس. فلهذا أنزل الله تعالى أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل ﷺ بسفارة أشرف الملائكة جبريل عليه السلام، في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو شهر رمضان، فكمل من كل الوجوه. ولهذا قال تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾؛ بسبب إيحائنا إليك يا محمد هذا القرآن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالوا: يا رسول الله ﷺ لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾.

وعن مصعب بن سعد، عن أبيه رضي الله عنه قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن. قال: فتلاه عليهم زمناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا؟ فأنزل الله ﷻ ﴿الر تلك آيات الكتاب المبين﴾ إلى قوله: ﴿لعلكم تعقلون﴾ ثم تلاه عليهم

زماً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الآية.^(١)

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتعلة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب. أنه روي: أنه جاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، فقليل ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً. وبمحمد رسولاً. قال: فسري عن النبي ﷺ وقال: ((والذي نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين)).^{(٢) (٣)}

(١) انظر: الحاكم، المستدرك، ج ٢/ ٣٧٦، برقم: ٣٣١٩.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٤/ ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/ ١٤٦ - ١٤٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/ ٩٧٤ - ٩٧٥.

سورة الرعد

تأكيد الحق في القرآن:

قال تعالى: ﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) [الرعد].

سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن الكريم.

ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي مع هذا البيان والجلال والوضوح لا يؤمن أكثرهم؛ لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.^(١)

تعجبه ﷺ من منكري البعث:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٥) [الرعد].

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٣٢٦ - ٣٢٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٠٠١.

على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداءً خلق الأشياء فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل.

ثم نعت المكذبين بهذا فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي يسحبون بها في النار ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي ما كثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون.^(١)

إنذار المستعجلين بالعذاب:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد].

يقول تعالى: ﴿ويستعجلونك﴾ هؤلاء المكذبون يا محمد ﴿بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي بالعقوبة، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله. قال الله تعالى: ﴿وقد خلت من قبلهم المثلثات﴾ أي قد أوقعنا نعمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة لمن اتعظ بهم.

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب؛ ليعتدل الرجاء والخوف. وقال تعالى: ﴿إن ربك لسريع العقاب﴾.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج/٧ - ٣٣٩ - ٣٤٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج/١ - ١٠٠٢ - ١٠٠٣.

عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنْ رِبْكَ لَدُوٌّ مَغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ الآية قال رسول الله ﷺ: ((لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحدًا العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد)).^(١)

تأكيد أنه منذر والآيات من الله:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧) [الرعد].

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، وقوله تعالى: ﴿ولكل قوم هادٍ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنه في الآية: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم، وقيل: ﴿ولكل قوم هادٍ﴾ أي نبي، هو محمد ﷺ. لهذه الأمة، يدعوهم إلى الله ﷻ.^(٢)

تأكيد قدرة الله وطلب توحيدة:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَحِيدُ الْقَهَرُ﴾ (١٦) [الرعد].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٣٤٠ - ٣٤١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٠٠٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٣٤١ - ٣٤٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٠٠٣ - ١٠٠٤.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو. لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو ربها ومدبر السماوات ذلك اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم. وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضرا، أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة. فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾، أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تتأظر الرب وتمثله في الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره، أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابه شيء، ولا يماثله ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له، عبيداً له.

فإذا كان الجميع عبيداً فلماذا يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان؟ بل مجرد الهوى والاختراع والابتداع، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم، تزرهم عن ذلك وتنههم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة.^(١)

تأكيد الحق معه ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكُمْ وَلَوْ أَلْبَسَ﴾ [الرعد].

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم الناس أن الذي ﴿أنزل إليك﴾ يا محمد ﴿من

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٣٦٧ - ٣٦٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٠٠٨ - ١٠٠٩.

ربك ﴿هو الحق الذي لا شك فيه، ولا مرية، ولا لبس فيه، ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيها عدل، أي صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه، أفهذا كهذا؟ لا استواء. ^(١)

الهداية من الله:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ (٢٧) [الرعد].

يخبر تعالى عن قول المشركين: ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿أنزل عليه آية من ربه﴾، والله قادر على إجابة ما سألوا. وفي الحديث: إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيصير مكانها مروجاً وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال ﷺ: ((بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة)).

ولهذا قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي هو المضل والهادي سواء بعث الرسول ﷺ بآية على وفق ما اقترحوا أم لم يجبههم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه. وقال تعالى: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾، أي ويهدي

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٣٧٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٠١٠.

إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه، ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، أي هو حقيق بذلك.^(١)

إرساله ﷺ كمن سبقه من الأنبياء ﷺ:

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتَلَوُا عَلَيْهِمُ آلَ الذِّكْرِ أَوْحِينَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة، ﴿لَتَتَلَوُا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله. وقد كذب الرسل من قبلك بهم أسوة. وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن)).^(٢)

﴿قل هو ربي لا إله إلا هو﴾ قل يا محمد هذا الذي تكفرون به، أنا مؤمن

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٣٧٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٠١٢.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تغير الأسماء، ص ٨٩٥، حديث رقم: ٤٩٥٠.

به معترف، مقر له بالربوبية والالوهية، هو ربي لا إله إلا هو ﴿عليه توكلت﴾ أي في جميع أموري، ﴿واليه متاب﴾ أي إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.^(١)

عقاب المستهزئين به ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْزَىٰ رِيسْلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (٣٢) [الرعد].

يقول تعالى مسلماً رسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾ أي فلك فيهم أسوة، ﴿فأملت للذين كفروا﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ثم أخذتهم﴾، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأملت لهم.

وفي الصحيحين: إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾. (٢) (٣)

توحيده ﷻ لله تعالى وبعده عن الأهواء:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدُ﴾ (٣٦) ﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلِيُنَبِّئَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (٣٧) [الرعد].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣٨٥/٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٠١٤ - ١٠١٥.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾، ج ٥/٢١٤؛ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج ٨/١٩.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣٩٢/٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٠١٦.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم قائلون بمقتضاه ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ أي من القرآن الكريم لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾ أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، ﴿إليه أدعوا﴾ أي إلى سبيله أدعو الناس ﴿وإليه مآب﴾، أي مرجعي ومصيري.

وقوله تعالى: ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً، شرفناك به، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي. وقوله تعالى: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ أي آراءهم ﴿بعد ما جاءك من العلم﴾ أي من الله سبحانه وتعالى ﴿ما لك من الله من ولي ولا واق﴾. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة الحمديدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.^(١)

مثل الرسل قبله ﷺ لهم أزواج وذرية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد].

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ((أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٣٩٧ - ٣٩٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٠١٧ - ١٠١٨.

وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله ﷻ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار. ولكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله، ومقدار معين^(٢).

عليه ﷺ البلاغ وعلى الله الحساب:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّيْنَا فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد].

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿وَإِنْ مَا نُرِيكَ﴾ يا محمد، إن نريك بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿أَوْ تُتَوَفَّيْنَا﴾ أي قبل ذلك ﴿فَأَنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله. وقد فعلت ما أمرت به، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي حسابهم وجزاؤهم.

يشهد له ﷺ ربه ومن عنده علم الكتاب:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد].

يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لست مرسلًا﴾ أي يا محمد ما أرسلك

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ج ٦/١١٦؛ صحيح

مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تافت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال

من عجز عن المؤن بالصوم، ج ٤/١٢٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٣٩٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٠١٨.

اللَّهُ. ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي حسبني الله هو الشاهد علي وعليكم، شاهد عليّ فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قيل: نزلت في عبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي وتميم الداري رضي الله عنه، وغيرهم ممن أسلم من أهل الكتاب عبر العصور وحتى زماننا هذا.

والصحيح في هذا أن ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد صلّى الله عليه وآله ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به. ^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٤٠٩ - ٤١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١/١٠٢٠ - ١٠٢١.

سورة إبراهيم

إنزال القرآن إليه ﷺ؛ ليكون نوراً للناس:

قال تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم].

﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على محمد أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم؛ ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إلى صراط العزيز﴾، أي العزيز الذين لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿الحميد﴾ أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق في خبره.

بيان قدرة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم].

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، وكذلك الإتيان بخلق

آخر. أفليس الذي قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفة، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري وصحاري، وقفار وبحار، وأشجار ونبات، وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها، بقادر على الإعادة أو الإتيان بهم أو بخلق جديد؟^(١)

ضرب الأمثال له ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٤﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝٢٥﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۝٢٦﴾ [إبراهيم].

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بقناع عليه بسر، فقال: ﴿مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ فقال: هي النخلة: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ قال: هي الحنظل.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿اجتثت﴾ أي استؤصلت ﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج/٤٣٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج/١٠٢٦.

(٢) انظر: رواية الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب "ومن سورة إبراهيم عليه السلام"،

ج/٢٩٥، حديث رقم: ٣١١٩.

للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.^(١)

كيف أحل الكفار قومهم من النعمة إلى البوار:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُنْسَوْنَ الْقُرْآنَ﴾ (٢٩) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (٣٠) [إبراهيم].

قال البخاري رحمه الله: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾. البوار الهلاك، بار يبور بوراً، و﴿قوما بوراً﴾ هالكين.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، قال: هم كفار أهل مكة.

جاء رجل إلى علي رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين من الذين بدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البوار؟ قال: مشركو قريش، أتتهم نعمة الله الإيمان فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار. وهم الذين قُتِلوا يوم بدر على الشرك. وأما دار البوار فهي جهنم.

ثم قال تعالى للمشركين مهدياً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء ﴿فإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، أي مرجعكم وموئلكم إلينا.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٤٣٦ - ٤٥١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٢٨ - ١٠٢٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٤٥٢ - ٤٥٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٣٥ - ١٠٣٦.

أمره ﷺ ومن معه بإقامة الصلاة والنفقة في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ (٣١) [إبراهيم].

يقول تعالى أمراً بعباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القربات والإحسان إلى الأجانب. والمراد بإقامتها المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق سبحانه في السر أي في الخفية والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ وهو يوم القيامة، ﴿لا بيع فيه ولا خلال﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، ليس هناك مخالفة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته، بل هناك العدل والقسط.

والله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخالون بها في الدنيا، فينظر رجل من يخال وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه. والمراد من هذا أنه تعالى يخبر أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفع صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً.^(١)

تأكيد إمهال الله للظالمين ليوم حدده سبحانه:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (٤٣) [إبراهيم].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٤٥٦ - ٤٥٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٣٦.

ولا تحسبن الله يا محمد غافلاً عما يعمل الظالمون، أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك ويعدده عليهم عدداً، ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي من شدة الأهوال يوم القيامة. ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال تعالى: ﴿مهطعين﴾ أي مسرعين، ﴿لا يتردد إليهم طرفهم﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر، لا يطفرون لحظة؛ لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عياداً بالله العظيم من ذلك. ولهذا قال تعالى: ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء؛ لكثرة الوجل والخوف. ولهذا قال جماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية؛ لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها.^(١)

إنذاره ﷺ للظلمة من الناس وتذكيرهم بسنن الله:

قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَئِكَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ۚ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ ﴿٤٦﴾ [إبراهيم].

يقول تعالى مخبراً عن الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل﴾، فرد عليهم في قولهم هذا ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ أي أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذلك.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٤٦٧ - ٤٧٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٣٨.

﴿ما لكم من زوال﴾ أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة،
﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم
وضربنا لكم الأمثال﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة
قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم
لكم مزدجر، ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾.

وفي تفسيرها عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾
يقول: شركهم.^(١)

تذكيره ﷺ بعزة الله:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ
(٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾
[إبراهيم].

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكدًا: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله﴾
أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة
لا يمتنع عليه شيء أراد ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحد، ولهذا
قال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ أي وعده هذا حاصل
يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية
﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ قالت: قلت أين الناس يومئذ يا
رسول الله؟ قال: ((على الصراط)).^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٤٧٢ - ٤٧٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٣٨ - ١٠٣٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في البعث والنشور،
وصفة الأرض يوم القيامة، ج ٨/١٢٧ - ١٢٨.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي حفاة عراة كما خلقوا، قال: أراه قال قياماً حتى يلجمهم العرق.

وعن علي رضي الله عنه أنه قال: تصير الأرض فضة والسموات ذهباً. وقال الربيع عن أبي العالية بن كعب، قال: تصير السماوات جنائاً.

وقوله تعالى: ﴿وبرزوا لله﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الواحد القهار﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب.^(١)

تصوير حال المجرمين له ﷺ يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۖ﴾ ٤٩ ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ۖ﴾ ٥٠ ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۖ﴾ ٥١ [إبراهيم].

حين تبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿مقرنين﴾ أي بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف.

﴿الأصفاد﴾ هي القيود، وقوله تعالى: ﴿سراويلهم من قطران﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تطلّى به الأبل.

وعن ابن عباس رضي الله عنه يقول: القطران هنا النحاس المذاب، وقوله تعالى: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٤٧٨ - ٤٨٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٣٩ - ١٠٤١.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ أي يوم القيامة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم^(١).

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٤٨٤ - ٤٨٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٤١.

سورة الحجر

إمهال الله للكفار:

قال تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝ (١) رَبَّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ (٢) ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ (٣)﴾ [الحجر].

ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين، يقول ذلك الكفار من أهل النار، حين ينجي الله المسلمين منها.

وقوله تعالى: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة أمرهم.^(١)

إتهامه ﷺ بالجنون ودفاع الله له وحفظه لكتابه ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ۝ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ (٩)﴾ [الحجر].

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ أي الذي تدعي ذلك، موجهين كلامهم لرسول الله ﷺ ﴿إنك لمجنون﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا، ﴿لو ما تأتينا بالملك﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به إن كنت من

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٤٨٨ - ٤٩٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٤٣.

الصادقين. وقال تعالى في هذه الآية: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾.

﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾ بالرسالة والعذاب، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن الكريم، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿له لحافظون﴾ على النبي ﷺ^(١).

استهزاء الكفار بالرسول:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر].

يقول تعالى مسلماً رسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزءوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى. ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾ يعني الشرك. وقوله تعالى: ﴿قد خلت سنة الأولين﴾ أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.^(٢)

يذكره ﷺ ببدء خلق البشر:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّنْ صَلَافٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٤٩٢ - ٤٩٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٤٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٤٩٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٤٣.

في تشریفه ﷺ لنبيه محمد ﷺ يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكة قبل خلقه وتشریفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة؛ حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل.

تذكيره ﷺ بمغفرة الله وأليم عقابه:

قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر].

قوله ﷺ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أي أخبر يا محمد عبادي أنني ذو رحمة وذو عذاب أليم، وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: ((لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبيع نفسه)).^{(١) (٢)}

تذكيره ﷺ بإبراهيم وضيوفه:

قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ٥٢﴾ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بُشِّرُونَنِي ٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَظِطِينَ ٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ ٥٦﴾ إِلَّا الضَّالُّونَ ٥٧﴾ [الحجر].

(١) انظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج ٥/٢٠٠ - ٢٠١

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٥٢١ - ٥٢٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٤٨ - ١٠٤٩.

وأخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ضيف إبراهيم﴾. والضيف يطلق على الواحد والجمع، وكيف ﴿دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون﴾ أي خائفون. وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ. ﴿قالوا لا توجل﴾ أي لا تخف ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ هو إسحاق عليه السلام، فتعجب؛ لكبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿أبشروني على أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿قالوا بشرنك بالحق فلا تكن من القانطين﴾، فأجابهم بأنه ليس يقنط، ويرجو رحمة الله كما يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.^(١)

ما أوتي ﷺ من مثاني القرآن:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تتظرن إلى الدنيا، وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية؛ لنفتنهم فيه فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ حزنًا عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك. وفي السبع المثاني قال ابن عباس عليه السلام: وجمع من الصحابة: هي السبع الطوال، يعنون البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال، براءة، يونس. سورة واحدة. قال ابن عباس عليه السلام: ولم يُعطهن أحد إلا النبي ﷺ، كما روي أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. مع البسملة.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٥٢٢ - ٥٢٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٤٩.

وقد أورد البخاري رحمه الله حديثين: عن أبي سعيد بن المعلى قال: مربي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آتته حتى صليت فأتيتته، فقال ﷺ: ((ما منعك أن تأتيني؟)) فقلت: كنت أصلي، فقال: ((ألم يقل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾؟ ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد))؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال: ((الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن الذي أوتيتته)).^(١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم)).^{(٢) (٣)}

أمره ﷺ بالقناعة والتواضع:

قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي استغن يا محمد بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. وقالوا: نزلت هذه الآية ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زهرة الحياة الدنيا﴾ إلى آخر الآية، تعزیه عن الدنيا، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ وفيها نهی الرجل أن يتمنى ما لصاحبه. ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ هم الأغنياء.^(٤)

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم)، ج ٥/٢٢٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم)، ج ٥/٢٢٢.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٥٣٣ - ٥٤٢: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٥١ - ١٠٥٢.

(٤) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٥٤٢ - ٥٤٣: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٥٢.

هو ﷺ نذير مبين:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر].

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إني أنا النذير المبين﴾ البين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم، أن يحل بهم على تكذيبه لهم ﷺ، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسالتها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام. وقوله تعالى: ﴿المقتسمين﴾ أي المتحالفين، الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم فقد تقاسموا فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فسموا مقتسمين.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثـل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا وانطلقوا على مهـلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أي جزءوا كتبهم المنزلة عليهم، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض.

روى البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ قال: هم أهل

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب شفقتـه ﷺ على أمته، ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم. ج ٧/٦٣.

الكتاب جزأوه أجزاء، فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.^(١)

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم قولوا لأسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن، قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، قالوا: فماذا نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر، فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أصنافاً، ﴿فوريك لنسئلهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ أولئك النفر الذين قالوا لرسول الله ما قالوا.^(٢)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لنسئلهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: عن لا إله إلا الله.

﴿فوريك لنسئلهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: ((يا معاذ إن المرء يسأل

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (الذين جعلوا القرآن عضين)، ج ٥/٢٢٢.

(٢) انظر: ابن هشام السيرة النبوية، ج ١/٢٧٠.

يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بإصبعه، فلا ألفينك يوم القيامة واحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك^(١).

صدعه ﷺ بالدعوة وكفاية الله له وأمره بالتسبيح والعبادة:

قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ^(٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿[الحجر].

قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾^(٩٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ^(٩٩) ﴿[الحجر].

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به.

عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ أي أمضه كما أمرت، ومنه الجهر بالقرآن^(٢).

عن عبد الله بن مسعود ؓ: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿فاصدع بما تؤمر﴾، فخرج هو وأصحابه^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين﴾ أي بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله بالاستهزاء وغيره ولا تخفهم، فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم.

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٥٣.

(٢) انظر: ابن هشام السيرة النبوية، ج ١/٢٦٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٥٣.

(٣) انظر: ابن هشام السيرة النبوية، ج ١/٢٦٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٥٣.

وكان نفر من قريش تهادوا في الشر وأكثروا يرسلوا الله ﷻ الاستهزاء،
فأنزل الله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك
المستهزئين﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فسوف يعلمون﴾.

وروي كانوا سبعة نفر آذوا الرسول ﷺ فدعا عليهم وأصيبوا، وقوله
تعالى: ﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون﴾ تهديد شديد ووعيد
أكيد لمن جعل لله معبوداً آخر.

وقوله تعالى: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك
وكن من الساجدين﴾ أي وأنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك
ضيق صدر وانقباض، فلا يثنيك ذلك عن إبلاغ رسالة الله، وتوكل عليه
فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه
وعبادته، ومنها الصلاة، ولهذا قال تعالى: ﴿فسبح بحمد ربك وكن من
الساجدين﴾.

وقوله تعالى: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ الموت هو اليقين.

ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك
اليقين﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام حياً
وعقله ثابتاً، كما أمر بذلك ﷻ، فيصلح بحسب حاله.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٥٤٨ - ٥٥٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٥٣ - ١٠٥٥.

سورة النحل

الهداية من الله:

قال تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٣٧) [النحل].

مع حرصك يا محمد على هدايتهم ﴿فإن الله﴾ ﷻ له ما يشاء فيكون وما لم يشأ لم يكن. فلهذا قال تعالى: ﴿لا يهدي من يضل﴾ أي من أضله، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي لا أحد، ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ينقذونهم من عذابه ووثاقه.^(١)

وحي الله له ﷺ ليبين للناس:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ (٤٤) [النحل].

عن ابن عباس ؓ لما بعث الله محمدًا ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً. وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فساءلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ يعني أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة من أهل السماء أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/ ٥٨٢ - ٥٨٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٠٦١ - ١٠٦٢.

تتكرون أن يكون محمد ﷺ رسولاً. والعلماء من أمة محمد ﷺ هم من أهل الذكر.

وقد أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياءهم بشراً أو ملائكة. ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل، ﴿والزبر﴾ وهي الكتب. تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ يعني القرآن ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ أي من ربهم لعلهم يتفكرون ما أنزل الله وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿ولعلمهم يتفكرون﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهدون، فيفوزون بالنجاة في الدارين.^(١)

القرآن هدى للناس:

قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَلَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي أَخْلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل].

يذكر تعالى أنه ﷺ أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يحزنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/ ٥٨٦ - ٥٨٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٠٦٣ - ١٠٦٤.

﴿فهو وليهم اليوم﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم.

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه؟ فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وهدي﴾ أي للقلوب ﴿ورحمة﴾ أي لمن تمسك به ﴿لقوم يؤمنون﴾، وكما جعل سبحانه القرآن حياة لقلوب العباد.^(١)

إخباره ﷺ بطبيعة النحل بأمر الله:

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل].

المراد بالوحي من الله رب محمد ﷺ هنا الإلهام والهداية، والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورسها بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذلة لها، أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ، ثم تصبح إلى مراعيها.

﴿فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ أي مطيعة مهتدية فهي حال من الطريق، أي

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج٦٠٥/٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج١٠٦٦/٢.

فاسلكيها مذلة لك. وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابًا مُخْتَلَفَ الْأَوَانِ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلا منها.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم، لو قال فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال فيه شفاء للناس، أي يصلح لأدواء مختلفة.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ((أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال ﷺ: اسقه عسلاً. فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً، قال: اذهب فاسقه عسلاً. فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً. فذهب فسقاه عسلاً فبرئ)).^(١)

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل.^(٢)

وعن ابن عباس رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: ((الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي)).^(٣)

وقوله تعالى: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في إلهام الله لهذه

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب دواء المبطون، ج ١٨/٧؛ صحيح مسلم، كتاب السلام، باب التداوي بسقي العسل، ج ٢٦/٧.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الحلواء والعسل، ج ٢٠٨/٦؛ صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق، ج ١٨٥/٤.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، ج ١٢/٧.

الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهام، والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء، ﴿لَا يَاقُومُ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم.^(١)

تأكيد أنه ﷺ مبلغ:

قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ﴾ أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، وقد أدبته إليهم.^(٢)

شهادته ﷺ على الأمة:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

يقول ﷺ مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ يعني أمتك، أي اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع.

وقوله تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبلياً لكل شيء﴾ قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء. وفيه كل حلال وكل حرام. فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام. وما

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦١٢/٧ - ٦١٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٠٦٧/٢ - ١٠٦٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦٢٩/٧ - ٦٣٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٠٧١/٢ - ١٠٧٢.

الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم، ﴿وهدى﴾ لقلوب العباد ﴿ورحمة وبشرى للمسلمين﴾.

ووجه اقتران قوله تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب﴾ مع قوله تعالى: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ إن المراد - والله أعلم - إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة، وسألهم عن اتباع ما جئت به.^(١)

استعاذته ﷻ بالله عند قراءة القرآن:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل].

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن الكريم أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم.

في الاستعاذة عند ابتداء القراءة؛ لئلا يلبس على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكير، وذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة.

وقوله تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، ولا حجة له عليهم يطيعونه. وقال آخرون: اتخذه ولياً من دون الله ﴿والذين هم به مشركون﴾ أي أشركوا في عبادة الله تعالى. أي أشركوه في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٦٣٣ - ٦٣٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٧٣.

(١) تعالى.

إبراء الله ﷻ له ﷺ من تهمة الإفتراء:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل].

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان، وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي كذاب. وإنما هو الرب سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. ﴿بدلنا آية مكان آية﴾ أي رفعناها وأثبتنا غيرها، وقال تعالى مجيباً لهم: ﴿قل نزله روح القدس﴾ أي جبريل عليه السلام ﴿من ربك بالحق﴾ أي بالصدق والعدل ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ فيصدقوا بما أنزل، وتثبت له قلوبهم ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ أي وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله. (٢)

دفاع الله عن إتهامه بتعليم البشر له ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعاً

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٦٤٤ - ٦٤٦: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٧٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٦٤٦ - ٦٤٧: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٧٦.

يبيع عند الصفا. وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء. وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء اليسير، بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه. فلهذا قال الله تعالى: راداً عليهم في افتراءهم ذلك ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ أي القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل.

روى أصحاب السير: (كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، عبد لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾^(١) ^(٢)).

إتباعه ﷺ ملّة إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَحَبُّهُ وَهَدَانُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٣١﴾ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٣٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٣٣﴾ [النحل].

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليته إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾. والأمة: هو الإمام الذي يقتدى به ويعلم الناس

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٦٤٧ - ٦٥٠.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٤٣.

الخير، والقانت: الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فهو أمة وحده، قانت مطيع لله ﷻ، فقد كان إبراهيم أمة أي مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار. وإمام هدى.

وقوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾ أي قائماً بشكر نعم الله عليه، وقوله تعالى: ﴿اجْتِبَاهُ﴾ أي اختاره واصطفاه ﴿وَهْدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة، ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي لسان صدق.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا محمد خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

أمره ﷺ بالدعوة إلى سبيل الله:

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١٢٥) [النحل].

أمر الله ﷻ رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة. بما أنزله ﷻ عليه من الكتاب والسنة ﴿والموعظة الحسنة﴾، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، يذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله تعالى:

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٦٥٩ - ٦٦٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٨٠.

﴿وجادلهم بالتتي هي أحسن﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب. وقوله تعالى: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ الآية، أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم، إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب.^(١)

أمره بالصبر:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۚ﴾ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ [النحل].

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق ﴿فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله. روي كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة، فقالوا: يا رسول الله لو أذن الله لنا لا نتصرنا من هؤلاء الكلاب. فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلى آخر الآية، نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم مثل حمزة عليه السلام كانوا يقولون: لنمثلن بهم فأنزل الله فيهم ذلك.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٦٦٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٨٠.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٧/٦٦٣ - ٦٦٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٠٨١.

سورة الإسراء

الإسراء به ﷺ إلى الأقصى وتأکید مقام العبودية لله سبحانه:

قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ، مِّنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١) [الإسراء].

يمجد الله تعالى نفسه ويعظم شأنه؛ لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه. فلا إله غيره ولا رب سواه، ﴿الذي أسرى بعبده﴾ يعني محمدًا ﷺ ﴿ليلاً﴾ أي في جنح الليل ﴿من المسجد الحرام﴾ وهو مسجد مكة المكرمة بيت الله الحرام ﴿إلى المسجد الأقصى﴾، وهو بيت المقدس الذي بـ (إيليا) موطن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل. ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمرهم في محلّتهم ودارهم، فدل على أنه هو إمامهم وخاتمهم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.^(١)

وقوله تعالى: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي في كل شيء، ومن ذلك الزروع والثمار والعبادة والعلم قبل ذلك ﴿لنريه﴾ أي محمدًا ﷺ ﴿من آياتنا﴾ أي العلامات والدلالات العظام من الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿إنه هو السميع البصير﴾ السميع لأقوال عباده مؤمنهم

(١) ألفت الكثير من الكتب عن الإسراء والمعراج قديماً وحديثاً (انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي والإسلامي المخطوط، السيرة المدائح النبوية، مؤسسة آل البيت، عمان الأردن؛ البخاري في صحيحه، باب المعراج، ج ٤/٢٨٤).

وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، البصير بهم وبأعمالهم، فيعطي كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

روى البخاري رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة: ((إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة فلم يرههم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تمام أعينهم ولا تمام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل عليه السلام فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة، حتى فرغ من صدره وجوفه. فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور - إناء - من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاديدته - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه، ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء: من هذا؟ فقال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: فمرحباً به وأهلاً، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم. فوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلم عليه ورد عليه آدم، فقال: مرحباً وأهلاً بابني نعم الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هذان النيل والفرات.

ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأه لك ربك.

ثم عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً، ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية، ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك. كل سماء فيها أنبياء قد سماهم، فوعيت منهم إدريس في الثانية وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى. فقال موسى ﷺ: رب لم أظن أن يرفع علي أحد، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ﷻ حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة.

ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربك؟ قال: عهد إليّ خمسين صلاة كل يوم وليلة، ((قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع، فليخفف عنك ربك وعنهم. فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشير في ذلك، فأشار جبريل أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس، فقال: يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا))، فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى فاحتبسه. فلم يزل يرده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات. ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع

فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل.

فرفعه عند الخامسة، فقال: يا رب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا. فقال الجبار ﷺ: يا محمد. قال: لبيك وسعديك قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك. فرجع إلى موسى ﷺ فقال: كيف فعلت؟ فقال: خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها. قال موسى ﷺ: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً. قال رسول الله ﷺ يا موسى قد والله استحييت من ربي ﷻ مما أختلف إليه. قال: فأهبط باسم الله. قال: واستيقظ وهو في المسجد الحرام)).^(١)

عن أبي ذر رضى الله عنه قال: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: ((نور أنى أراه)) وفي رواية: ((رأيت نوراً)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى﴾ إنما هو جبريل ﷺ، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، وعن ابن مسعود رضى الله عنه.^(٣)

وفي رواية عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه،

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (وكلم الله موسى تكليماً)، ج ٨/٢٠٣ - ٢٠٥. واللفظ له.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: (نور إنى أراه)، وفي قوله: (رأيت نوراً)، ج ١/١١١.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قول الله ﷻ: (ولقد رآه نزلة أخرى)، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء، ج ١/١١٠.

فركبت فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة. قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من أنت. قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما، فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت قال: جبريل فقيل ومن معك قال محمد عليه السلام. فقيل وقد أرسل له قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير، ثم يقول الله تعالى: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من هذا؟ قال جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون عليه السلام، فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من أنت؟ قال جبريل فقيل ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا

بموسى ﷺ، فرحب بي ودعا بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقليل من أنت؟ قال: جبريل. قيل ومن معك؟ قال: محمد ﷺ. قيل وقد بعث إليه؟ قال قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم ﷺ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن ينعتها من حسنها.

قال: فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ، قال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت خمسين صلاة، قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف على أمتي فحط عني خمسا. فرجعت إلى موسى فقلت: قد حط عني خمسا فقال إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى ﷺ حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات كل يوم وليلة بكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله ﷺ: ((لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت)).^(١)

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات، ج ٩٩/١ - ١٠١؛ وانظر: رواية الإمام أحمد في مسنده، ج ١٤٣/٥ - ١٤٤؛ وانظر: البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة، ج ٩١/١ - ٩٢.

قال أنس رضي الله عنه ذكر أنه حمل على البراق فأوثق الدابة أو قال الفرس. قال أبو بكر: صفها لي، فقال رسول الله ﷺ: ((هي كذه وذه))، فقال: أشهد أنك رسول الله، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد رآها.

وحين ركب ﷺ منصرفاً فبينما هو في بعض الطريق مر بغير لقريش تحمل طعاماً، منها جمل عليه غرارتان، غرارة سوداء وغرارة بيضاء. فلما حاذى بالغير نفرت منه واستدارت، وصرع ذلك البعير وانكسر، ثم إنه مضى فأصبح فأخبر عما كان. فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا: يا أبا بكر هل لك في صاحبك؟ يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر ورجع في ليلته، فقال أبو بكر رضي الله عنه: هل لك في صاحبك؟ يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر ورجع في ليلته، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن كان قاله فقد صدق، وإنا لنصدق فيما هو أبعد من هذا لنصدق على خبر السماء، فقال المشركون لرسول الله ﷺ: ما علامة ما تقول قال: مررت بغير لقريش وهي في مكان كذا وكذا، فنفرت الإبل منا واستدارت وفيها بغير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء، فصرع فانكسر، فلما قدمت البعير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله ﷺ.^(١)

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه)).^(٢)

فجاء ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك يزعم أنه

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ٣٩٩؛ الحاكم، المستدرک، ج ٣/ ٦٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام)، ج ٥/ ٢٢٤؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٢١٥.

جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة؟ فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدق به بأن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء، قال أبو سلمة: فيها سمي أبو بكر الصديق.^(١)

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لما كان ليلة أسري بي، فأصبحت بمكة فظننت وعرفت أن الناس مكذبي فقعد معتزلاً حزيناً. فمر به عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم. قال: وما هو؟ قال: "إني أسري بي الليلة"، قال: إلى أين؟ قال: "إلى بيت المقدس" قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال ﷺ: "نعم"، قال فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه، فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: "نعم" فقال: يا معشر بني كعب بن لؤي.

قال: فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدث قومك بما حدثتني، فقال رسول الله ﷺ: "إني أسري بي الليلة" فقالوا: إلى أين؟ قال: "إلى بيت المقدس". قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال ﷺ: "نعم" قال فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب. قالوا: وتستطيع أن تتعت لنا المسجد؟ وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: "فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال، فنعتته

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ٣٩٩.

وأنا أنظر إليه قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه، قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه".^(١)

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس. وكان يقول لكعب: أين ترى أن أصلي؟ فقال: إن أخذت عني صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ضاهيت اليهودية، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله ﷺ، فتقدم إلى القبلة فصلى، ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة في رداءه، وكنس الناس، فلم يعظم الصخرة تعظيماً يصلي وراءها وهي بين يديه كما أشار كعب الأحبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم، ولكن من الله عليه بالإسلام فهدي إلى الحق، ولهذا لما أشار بذلك، قال له أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: ضاهيت اليهودية ولم يهنها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود، ولكن أماط عنها الأذى وكنس عنها الكناسة بردائه.

والإسراء به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد، ربط الدابة عند الباب ودخله، فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم.

ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة. ويحتمل أنها الصبح من يومئذ؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجنب

(١) انظر: رواية الإمام أحمد في سننه، ج ١/٣٠٩.

العلوي؛ ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى. ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله أعلم.

وعبارة العبد في قوله تعالى: ﴿بعبده﴾ تعني مجموع الروح والجسد، وقال تعالى: ﴿أسرى بعبده ليلاً﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ [الإسراء: ٦٠]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به. وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم.

وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم، منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره، وحديث الإسراء المشار إليه في الآية أجمع عليه المسلمون.^(١)

تنبيهه ﷺ لتفضيل بعض العباد على بعض:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ (١٩) ﴿كُلًّا نُّنَمِّدُ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠) ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢١) [الإسراء].

يقول تعالى: ﴿كلاً﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه ﴿من عطاء ربك﴾، أي هو المتصرف

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٣ - ١٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٠٨٢ - ١١٠٤.

الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى ولا مغير لما أراد، ولهذا قال تعالى: ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي لا يمنعه أحد، ولا يرده راد. قال قتادة: ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي منقوصاً أو ممنوعاً.

ثم قال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾، أي في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً، والتفضيل في الآخرة أكبر^(١).

تأكيد توحيد الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء].

والمراد المكلفون من الأمة، يقول الله تعالى: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فتقعد مذموماً﴾ أي على إشراكك به ﴿مخذولاً﴾؛ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه. وغير الله لا يملك لك ضراً ولا نفعاً؛ لأن مالك النفع والضرر هو الله وحده لا شريك له^(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [٢٩] إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا [٣٠]. [الإسراء].

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش، ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ أي لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطي أحداً شيئاً. وقوله تعالى: ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق،

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٥٧: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١١٢ - ١١١٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٥٧: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١١٣.

فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من المعقول فتتعد ملوماً محسوراً. وهذا من باب اللف والنشر، أي فتتعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك. وإن أسرفت احتجت للآخرين وخالفت.

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تتفقه، فتكون كالحسير، وهو الدابة التي عجزت عن السير، فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير. وهو مأخوذ من الكلال أي كليل عن أن يرى عيباً، والمراد هنا البعد عن البخل والسرف.

وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة منها مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع)).^(١)

وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((أنفقي هكذا وهكذا ولا توعي فيوعي الله عليك، ولا توكي فيوكي الله عليك)). وفي لفظ: ((ولا تحصي فيحصي الله عليك)).^(٢)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك)).^(٣)

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب مثل البخيل والمتصدق، ج ٢/١٢٠ - ١٢١؛ صحيح

مسلم، كتاب الزكاة، ج ٣/٨٨ - ٨٩.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها، ج ٢/١١٨.

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وبتبشير المنفق بالخلف، ج ٣/٧٧.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً)).^(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: ((ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله)).^(٢)

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعاً: ((إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم... الحديث)).^(٣)

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما عال من اقتصد)).^(٤)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخباراً أنه تعالى هو الرزاق، الباسط، القابض، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء ويفقر من يشاء؛ لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر، كما جاء في الحديث الشريف: ((إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه)). وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة، عياداً بالله من هذا وهذا. وقد يمر بالغنى الفقر لحكمة

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: (فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى) (اللهم أعط منفقاً خلفاً)، ج ٢/١٢٠؛ صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، ج ٣/٨٣ - ٨٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، ج ٨/٢١.

(٣) انظر: الإمام أحمد في مسنده، ج ٢/١٩٥.

(٤) انظر: الإمام أحمد في مسنده، ج ١/٤٤٧.

يعلمها الله.^(١)

أهمية الصدق والتثبت وعدم التكبر:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ [الإسراء].

لا تقل ولا ترم أحداً بما ليس لك به علم، لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله، فالله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال. وفي الحديث الشريف: ((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)).^(٢) وفي الحديث الشريف: ((بئس مطية الرجل زعموا)).^(٣) وفي الحديث الشريف: ((إن أفرى الفري أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا)).^(٤)

وقوله تعالى: ﴿كل أولئك﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كان عنه مسئلاً﴾، أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتساءل عنه تلك الجوارح عما عمل فيها.

ويقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبخر في المشية ﴿ولا تمش في

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٧١ - ٧٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١١٥ - ١١١٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا) [الحجرات: ١٢]، ج ٧/٧٩؛ صحيح مسلم، كتاب البر الصلة والأدب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، ج ٨/١٠.

(٣) انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في "زعموا"، ص ٨٩٩، حديث رقم: ٤٩٧٢.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب من كذب في حلمه، ج ٨/٨٣؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٢/٩٦.

الأرض مرحاً)، أي متبختراً متمائلاً مشي الجبارين، ﴿إنك لن تحرق الأرض﴾ أي لن تقطع بمشييك. وقوله تعالى: ﴿ولن تبلغ الجبال طولا﴾ أي بتمائلك وفخرك وإعجابك بنفسك. فمن تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه متواضع وعند الناس كبير، ومن استكبر وضعه الله فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير.

وقال تعالى: ﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾^(١).

الحكمة فيما أوحى الله إليه ﷺ:

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾^(٢٩) [الإسراء].

يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من التوحيد والعدل والأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس، ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً﴾ أي تلومك نفسك ويلومك الله ﷻ والخلق، ﴿مدحوراً﴾ أي مبعداً من كل خير، مطروداً. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.^(٢)

تأكيده تعالى لوحداية الله وتسبيحه ﷻ:

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾^(٤٢) سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا^(٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا^(٤٤) [الإسراء].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٨٠ - ٨٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١١٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٨٢ - ٨٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١١٨ - ١١١٩.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره، ليقربهم إليه زلفى لو كان الأمر كما يقولون، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون وساطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقدها فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون﴾ أي هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿علواً كبيراً﴾ أي تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد ﴿الصمد﴾ الذي ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾.^(١)

فقه القرآن ووعيه:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (٤٥) ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوُا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ [الإسراء].

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً، أي مانعاً حائلاً أن يصل إليهم مما تقول شيء، حجاب بينهم وبين الهدى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ هي جمع كنان الذي يغشى القلب ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي لئلا يفهموا القرآن الكريم، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم. ويهتدون به.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٨٤ - ٨٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١١٩.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أي إذا وحدت الله في تلاوتك، وقلت: لا إله إلا الله ﴿وَلَوْ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نَفُورًا﴾. ونفور جمع نافر.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ﴾ الآية: إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله أنكر ذلك المشركون، كبرت عليهم وضاق بها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها ويعليها وينصُرُها ويظهرها على من ناوأها.

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نَفُورًا﴾ هم الشياطين.^(١)

الدفاع عن تهمة السحر له ﷺ:

قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ مَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧].

يخبر تعالى نبيه ﷺ بما يتجاسى به رؤساء قريش حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سرًّا من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السحر على المشهور، أي إن تتبعون إن اتبعتم محمدًا فما هو إلا رجل مسحور.^(٢)

الباحثون عن الضلالة:

قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٨٥ - ٨٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٢١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٨٧ - ٨٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٢١.

من مشركي مكة المكرمة من قال عنه ﷺ: مجنون ومنهم من قال: ساحر، ولهذا قال تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾، أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً.

خرجت مجموعة من قريش ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته. فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا. وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق. فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد قال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق.

قال: فقام عنه الأخنس وتركه.^(١)

تحدي منكري البعث:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا إِنْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩) ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (٥٠) ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ﴾ وتظنون إن لئتم إلا قليلاً ﴿٥٤﴾ [الإسراء].

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبشرين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا﴾ أي تراباً وغباراً ﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي يوم القيامة بعد ما بلىنا وصرنا عدماً لا نذكر. فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات، ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراد.

وقوله تعالى: ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾؟ أي من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً؟ ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾، أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ثم صرتم بشراً تنتشرون فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال.

وقوله تعالى: ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾ يحركونها استهزاءً. فالانغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون متى هو﴾؟ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم؛ لوقوع

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ٣١٥ - ٣١٦؛

انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٨٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٢١ - ١١٢٢.

ذلك. وقوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي احذروا ذلك، فإنه قريب سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي الرب ﷻ. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي تقومون كلكم إجابة لأمر الله ﷻ وطاعة لإرادته. وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾، فله الحمد في كل حال.

تحذيره من نزغ الشيطان:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٥٣ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٥٤ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ٥٥﴾ [الإسراء].

يقول تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس، أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق، ﴿إِنْ يَشَاءُ يَرْحَمَكُم﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أَوْ إِنْ يَشَاءُ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ - يا محمد - ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾.

ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة. ولا خلاف أن محمدًا ﷺ أفضلهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((خفف على داود القرآن، فكان

يأمر بدابته فتسرج، فكان يقرؤه قبل أن يفرغ يعني القرآن)).^(١)

تأكيد عجز المعبودات من دون الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ادعوا الذين زعمتهم من دونه﴾ من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم فإنهم لا يملكون ﴿كشف الضر عنكم﴾ أي بالكلية، ﴿ولا تحويلاً﴾ أي بأن يحولوه إلى غيركم. والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر.

عن ابن عباس ؓ في قوله: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾.

قال ابن عباس ؓ: عيسى وأمه وعزير والشمس والقمر، والوسيلة هي القربة، كما قال تعالى: ﴿أيهم أقرب﴾. وقوله تعالى: ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾، لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يُكثر من الطاعات. وقوله تعالى: ﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله، عياداً بالله منه.^(٢)

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (وآتيناه داود زبوراً)، ج ٥/٢٢٧؛ الطبري،

تفسيره، ج ٨/٩٢ - ٩٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٢٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٩٤ - ٩٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٢٤.

المعراج به ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (٦٠) [الإسراء].

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً على إبلاغ رسالته مخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قادر على الناس وعصمك منهم.

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ عن ابن عباس ؓ: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال: "هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به".^(١)

فُسِّرَ ذلك بليلة الإسراء، وجعل الله ذلك ثباتاً وقيئناً لآخرين، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي اختباراً وامتحاناً. ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك، حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله: هاتوا لنا تمرّاً وزبداً، وجعل يأكل من هذا بهذا، ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا. وقوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال، ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.^(٢)

(١) صحيح البخاري، كتاب القدر، باب: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) [الإسراء: ٦٠]، ج ٧/٢١٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/١٠٠ - ١٠٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٢٥ - ١١٢٦.

تثبيت الله ﷻ لنبيه ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ لِنَفْتَرِيَ عَلَيْنا غَيْرَهُ ۖ وَإِذاً لَّاتَّخِذُوكَ خَلِيلاً ۚ ﴿٧٣﴾ وَلَوْلا أَنْ ثَبَّناكَ لَقَدْ كُنتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ۚ ﴿٧٤﴾ إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُكَ عَلَيْنا نَصِيراً ۚ ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيتته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه ، وخالفه وناواه في مشارق الأرض ومغاربها ، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.^(١)

قوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾.

يقول تعالى ذكره: ولولا أن ثبتناك يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هؤلاء المشركون من الفتنة ﴿لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾. قال رسول الله ﷺ: ((اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين)).

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾. يقول تعالى ذكره: لو ركنك إلى هؤلاء المشركين يا محمد شيئاً قليلاً فيما سألوك إذا لأذقناك ضعف عذاب الحياة ، وضعف عذاب الممات. ولكن الله عصمه ﷺ من أن يركن إليهم ولو بشيء قليل.

وقوله تعالى: ﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ يقول: ثم لا تجد لك يا محمد لو ركنك إلى هؤلاء المشركين علينا نصيراً ينصرك علينا ، ومن فضل الله ﷻ عليه ﷺ أن عصمه ولم يركن للمشركين بشيء.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ١١٨ - ١٢٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٢٩.

اضطراره ﷺ للهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧﴾ [الإسراء].

نزلت في كفار قريش حين هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشrafهم وسبى ذراريهم. ولهذا قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ الآية، أي هكذا سنتنا وتقديرنا في الذين كفروا برسولنا وآذوهم بخروج الرسول ﷺ من بين أظهرهم يأتيتهم العذاب، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به.^(١)

أمره ﷺ بإقامة الصلاة في أوقاتها:

قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء].

يقول الله ﷻ لرسوله ﷺ: آمراً إياه بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾، عن ابن عباس ؓ: دلوكها زوالها وتحولها، فعلى هذا تكون هذه الآية دخلت فيها أوقات الصلوات الخمس فقولته تعالى: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وهو ظلامه، وقيل غروب

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ١٢١ - ١٢٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٢٩.

الشمس، وقوله تعالى: ﴿وَقْرآنَ الْفَجْرِ﴾ يعني صلاة الفجر. وقد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً من سلف وقرأاً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه. ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ تشهد الملائكة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر)). يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرءوا إن شئتم ﴿وَقْرآنَ الْفَجْرِ﴾ إن قرآن الفجر كان مشهوداً^(١).

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فذكر حديث النزول، وأنه تعالى يقول: من يستغفرني أغفر له، من يسألني أعطيه، من يدعني فأستجيب له حتى يطلع الفجر، فلذلك يقول تعالى: ﴿وَقْرآنَ الْفَجْرِ﴾ إن قرآن الفجر كان مشهوداً، فيشهد الله وملائكة الليل وملائكة النهار، فإنه تفرد به زيادة، وله بهذا حديث في سنن أبي داود.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أن سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: "صلاة الليل"^(٢). وثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه. وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء وجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة، وقوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدك في الخلائق كلهم وخالقهم.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب إن قرآن الفجر كان مشهوداً، ج ٥/٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) انظر صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، ج ٣/١٦٩.

فذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثَاء كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً^(١).

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من قال حين يسمع النداء: ((اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة))^(٢).

خروجه من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة صادقاً مصداقاً:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ۝٨٠ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾. وروي إن كفار أهل مكة لما اتَّتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه فأراد الله تعالى قتال أهل مكة أمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله تعالى: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾. يرى العلماء أنه يعني المدينة المنورة ﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ يعني مكة المكرمة.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (وعسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)، ج ٥/٢٢٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)،

ج ٥/٢٢٨؛ انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/١٢٢ - ١٣٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٢٩ -

وقوله تعالى: ﴿وَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾. قال الحسن البصري رحمه الله في تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له. وقد نبئ الله ﷻ رسوله ﷺ أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ولحدود الله ولفرائض الله ولإقامة دين الله، فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، وقالوا: ﴿سلطاناً نصيراً﴾ حجة بينة؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ الآية تهديد ووعيد لكفار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به. وهو ما بعثه الله به من القرآن الكريم والإيمان والعلم النافع، وزهق باطلهم أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء.

عن عبد الله بن مسعود رحمه الله قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعن بها بعود في يده ويقول: ((جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً)). ((جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد)).^(١)

دعوته ﷺ العباد للعمل، الله أعلم بهم سبحانه:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٣-٨٤].

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)، ج ٥/٢٢٨.

ونصر ونال ما يريد أعرض عن الله وعبادته ونأى بجانبه، وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب، والحوادث والنوائب ﴿كَانَ يُوَسَّسًا﴾ أي قنط أن يعود فيحصل له بعد ذلك خير.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: على ناحيته وعلى نيته ودينه، وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرِيقٌ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا تخفى عليه خافية.^(١)

إجابته رضي الله عنه على السؤال عن الروح:

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرث في المدينة، وهو متوكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه. قال فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قال: فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ١٣٩ - ١٤١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٣٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) [الصفات: ١٧١]، ج ٨/ ١٨٨؛ ورواه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح، وقوله تعالى: (يسألونك عن الروح)، الآية، ج ٨/ ١٢٨.

وعن ابن عباس ؓ قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، قال: وأنزل الله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكُلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ [الكهف: ١٠٩].^(١)

وقيل فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامَ وَالْبَحْرِ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [القمان: ٢٧]. أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يحر إليهم شيئاً، فأتاه جبريل فقال له: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فأخبرهم النبي ﷺ بذلك.

﴿وما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وما أطلعكم من علمه تعالى إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ﷻ. والمعنى أنه علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه أمر الروح مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى.^(٢)

حفظ الله للوحي مع رسوله ﷺ تحدي الإنس والجن بالقرآن:

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ (٨٦) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ (٨٧) ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب (١٨)، ج ٥/٣٠٤، حديث رقم: ٣١٤٠.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/١٤١ - ١٤٤: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٣٥ - ١١٣٧.

ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ [الإسراء].

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. تنزيل من حكيم حميد. ﴿وَلَنُشَنِّئَنَّ لِنُذْهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وفيه الخبر عن فضل الله على نبيه ﷺ بتثبيت القرآن معه وبقائه وعدم ذهابه، مع قدرة الله على ذلك.

ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتضافروا فإن هذا أمر لا يستطيع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال له ولا عدل له. ولا يستبعد أنها رد على من قال: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ الآية، أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً أي جحوداً للحق وردا للصواب.^(١)

تحدي المشركين للرسول ﷺ والدفاع عنه:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ١٤٤ - ١٤٥: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٣٧.

عن ابن عباس ؓ: أنه اجتمع نفر من قريش بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة - خلفها - ، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه.

فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء - رأي - ، وكان عليهم، حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنّتهم حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك. وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك. لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفّته الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة، فما بقي من قبّيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك ربياً تراه قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبركك منه أو نعذر فيك.

فقال رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئكم بما جئكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً. فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم. أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً، فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك

به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثت، إنما جئكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن قبلوا ما جئكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ: ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم ذلك. فقالوا: يا محمد أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً،

فقد أعذرنا إليك يا محمد. أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلك أو تهلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم. وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبدالمطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من عذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وايم الله لو فعلت بذلك لظننت أني لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاتته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباحدهم إياه.^(١)

وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيئوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطالبون ذلك كفرًا وعناداً له، فقليل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيتهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة؟ فقال: بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة.

وقوله تعالى: ﴿حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ ينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عيوناً معيناً في أرض الحجاز هاهنا وهاهنا،

(١) ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٣٧ - ١١٣٨.

وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوه وطلبوا، ولكن له ﷻ الإرادة كيف يشاء.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهوي وتدلي أطرافها، فاجعل ذلك في الدنيا وأسقطها كسفًا، أي قطعًا.

وأما نبي الرحمة ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد به لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبدالله بن أمية الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً وأنا ب إلى الله ﷻ.^(١)

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زَخْرَفٍ﴾ قالوا من ذهب ﷻ أو ترقى في السماء ﷻ أي تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﷻ ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﷻ أي مكتوب فيه. وقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أي تنزه ﷻ وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ما سألتكم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم. وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتكم إلى الله ﷻ.^(٢)

بشريته ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ٩٤ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَكٌ يَمْشُوكَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج ٢/ ٢٧٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ١٤٥ - ١٥١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٣٧ - ١١٣٩.

السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ [الإسراء].

يقول تعالى: ﴿وما منع الناس﴾ أي أكثرهم ﴿أن يؤمنوا﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً. والآيات في هذا كثيرة. ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ منه.

ولهذا قال تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين﴾ أي كما أنتم فيها ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ أي من جنسهم. ولما كنتم أنتم بشرًا بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة.^(١)

قال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٩٦﴾ [الإسراء].

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به: إنه شاهد علي وعليكم، عالم بما جئكم به. وقوله تعالى: ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي عليمًا بهم وبمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة.^(٢)

الهدى من الله:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا ۖ وَصُمًّا ۖ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿٩٧﴾ [الإسراء].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/١٥١ - ١٥٢: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٣٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/١٥٢: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٣٩ - ١١٣٧.

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه تعالى في خلقه ونفوذ حكمه وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه أي يهدونهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم.^(١)

روى الإمام أحمد رضي الله عنه عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال: قام أبو ذر رضي الله عنه فقال: يا بني غفار، قولوا ولا تحلفوا، فإن الصادق المصدوق حدثني أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار...^(٢)

الرزق من الله تعالى:

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَا مَسَكُكُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل لهم يا محمد: لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكنكم خشية الإنفاق، أي تخافون الفقر خشية أن تذهبوها مع أن خزائنه ﷻ لا تفرغ ولا تنفد أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي بخيلاً مقتراً على نفسه وعلى الآخرين. وقد جاء في الصحيحين: "يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً واضل سبيلاً)، ج ٥/١٤؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٢/٣٥٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/١٥٤ - ١٥٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٤٠.

يغض ما في يمينه".^(١)

القرآن حق ليقراه ﷺ على الناس:

قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (١٠٥) ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ (١٠٦) [الإسراء].

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد أنه بالحق نزل، أي متضمناً للحق، وعلم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه. وقوله تعالى: ﴿وبالحق نزل﴾ أي ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يُشب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع في المملأ الأعلى. وقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك﴾ أي يا محمد ﴿إلا مبشراً ونذيراً﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين ونذيراً لمن عصاك من الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿وقرأنا فرقناه﴾ فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفزقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، وبالتشديد، أي أنزلناه آية آية مبيناً ومفسراً، ولهذا قال تعالى: ﴿لتقرأه على الناس﴾ أي لتبلغه الناس وتتلوه عليهم، أي ﴿على مكث﴾ أي مهل ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ أي شيئاً بعد شيء.^(٢)

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (وكان عرشه على الماء)، ج ٢١٣/٥؛ (ولفظه ولم يغض ما في يده)؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وبتبشير المنفق بالخلف، ج ٧٨/٣؛ انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٥٤/٨ - ١٥٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١١٤٠/٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٦١/٨ - ١٦٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١١٤٢/٢.

السجود والتسبيح عند التلاوة للقرآن:

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ۖ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝ (١٠٩)﴾ [الإسراء].

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أي سواء آمنتم به أم لا ، فهو حق في نفسه أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله. ولهذا قال تعالى: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾ أي من صالحى أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم وقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إذا يتلى عليهم﴾ هذا القرآن ﴿يخرون للأذقان﴾ جمع ذقن وهو أسفل الوجه ﴿سجدا﴾ أي لله ﷻ شكراً على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً أن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب. ولهذا يقولون: ﴿سبحان ربنا﴾ أي تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة ، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ ، ولهذا قالوا: ﴿سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾. وقوله تعالى: ﴿ويخرون للأذقان يبكون﴾ أي خضوعاً لله ﷻ وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله ﴿ويزيدهم خشوعاً﴾ أي إيماناً وتسليماً.^(١)

دعوة الله بأسمائه الحسنی وتنزيهه عن الولد:

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ۝ (١١١)﴾ [الإسراء].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ١٦٣ - ١٦٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٤٢.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله ﷻ، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنی﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن، فإنه سبحانه ذو الأسماء الحسنی.

روى ابن عباس ؓ وغيره: أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: يا رحمن يا رحيم. فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين، فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ عن ابن عباس ؓ قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة، ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾، قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿ولا تخافت بها﴾ عن أصحابك، فلا تُسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾^(١) وزاد: فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك فيفعل أي ذلك شاء.

وعن ابن عباس ؓ قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه. فكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقاً منهم، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع. فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً. فأنزل الله ﷻ ﴿ولا تجهر

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها)، ج ٥/٢٢٩؛ صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب التوسط في القراءة في الصلاة الجهرية بين الجهر والإسرار إذا خاف من الجهر مفسدة، ج ٢/٣٤.

بصلاتك ﴿ فيتفرقوا عنك ﴾ ولا تخافت بها ﴿ فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم فلعله يرعوي إلى بعض ما يسمع فينتفع به ، ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ﴾ لما اثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنی نزه نفسه عن النقائص فقال تعالى: ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ﴾ بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ﴿ ولم يكن له ولي من الدن ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له ، ومدبرها ومقدرها وحده لا شريك له. فهو لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ١٦٥ - ١٧٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٤٢ - ١١٤٤.

سورة الكهف

حمد الله على تنزيل القرآن وما به من بشارة:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ
بِأَسْأَ شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا
﴿٢﴾ مَّا كَثُتْ فِيهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣﴾﴾ [الكهف].

الله ﷻ المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة. ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد ﷺ، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، واضحاً بيناً جلياً نذيراً للخلق، بشيراً للمؤمنين، ولهذا قال تعالى: ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً ولهذا قال: ﴿قيماً﴾ أي مستقيماً؛ ﴿لينذر بأساً شديداً من لدنه﴾ أي لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره بأساً شديداً، عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة ﴿من لدنه﴾ أي من عند الله، الذي لا يعذب عباده أحد، ولا يوثق وثاقه أحد. ﴿ويبشر المؤمنين﴾ أي بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾، أي مثوبة من عند الله جميلة ﴿ما كثر في فيه أبداً﴾ وهو الجنة خالدين فيه ﴿أبداً﴾ دائماً لا

زوال له ولا انقضاء.^(١)

حرصه ﷺ على إيمان الناس:

قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ [الكهف].

باخع أي مهلك نفسك يا محمد بحزنك عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن الكريم ﴿أَسَفًا﴾ يقول تعالى: لا تهلك نفسك أسفًا وجزعًا ولا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها. ولا تذهب نفسك عليهم حسرات. ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا دارًا فانية مزينة بزينة زائلة. وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.^(٢)

أخباره ﷺ بحديث أصحاب الكهف:

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف].

هذا إخبار من الله تعالى لنبيه ﷺ وللأمة كلها عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي ليس أمرهم عجيبيًا في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ١٧٣ - ١٧٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٤٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ١٧٧ - ١٧٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٤٥.

ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف، فقد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك.

قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم وما أظهرت من حجج على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم، والكهف هو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما الرقيم فهو واد قريب من بيت المقدس، وليس ببعيد عن عمان في الأردن - حيث اشتهر كهف بالمنطقة بنسبته لهم - كما يرجح الكثيرون.^(١)

وقد زرتة بنفسي، والله أعلم بصحة ذلك.

علم الله وحده بعدد أصحاب الكهف:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٢٢).

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعف القولين الأولين بقوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد. ثم حكى الثالث تعالى وسكت عليه بقوله تعالى: ﴿وَتَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فدل على صحته، وأنه هو الواقع في

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ١٧٩ - ١٨٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٤٦؛

وانظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣/ ٦٠.

نفس الأمر. وقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا يحتاج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لا فائدة منه، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي من الناس.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أنا من القليل الذي استثنى الله، كانوا سبعة. وعدتهم سبعة.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كانوا ليلهم ونهارهم في عبادة الله ييكون ويستغيثون بالله، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مُرَاءَ ظَاهِرٍ﴾ أي سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، أي من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.^(١)

تعليمه ﷺ إستثناء مشيئة الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِّشَأْنٍ إِيَّايَ فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ﴾ [الكهف].

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ، علام الغيوب الذي يعلم كل شيء.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٢٠٥ - ٢٠٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٥١.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٥١.

وذكر في سبب نزول هذه الآية، في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف ((غداً أجيبكم))، فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وجاء قوله تعالى: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ قيل معناه إذا نسيت الاستثناء، فاستثنى عند ذكرك له.

عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت﴾ أن تقول إن شاء الله. والله تعالى أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان. وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان. فذكر الله تعالى سبباً للذكر، ولهذا قال تعالى: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ وقوله تعالى: ﴿وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك.^(١)

علم الله بمدة أصحاب الكهف:

قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) [الكهف].

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله تعالى وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد تسع سنين بالقمرية، وهي الثلاثمائة سنة بالشمسية كما قيل! فإن تفاوت ما بين كل مئة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال: بعد الثلاث مئة وازدادوا تسعاً.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٢٠٨ - ٢٠٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٥١ - ١١٥٢.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وهو توقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ له غيب السماوات والأرض ﴿أي لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلع عليه من خلقه. وهذا إخبار من الله ﷻ. وهو علام الغيوب.

وقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَاسْمِعْ﴾ أي أنه لبصير بهم سميع لهم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم سميعاً بصيراً. وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر، الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس سبحانه جل شأنه.^(١)

أمره ﷺ بتلاوة الوحي والصبر مع المؤمنين:

قال تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) [الكهف].

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ﴿لا مبدل لكلماته﴾، أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل ولا مبدل. وقوله تعالى: ﴿ولن تجد من دونه ملتحدًا﴾ ملجأ ولا ولياً ولا مولى. يقول تعالى: يا محمد أتل ما أوحى إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله إلا إليه، وقوله تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾،

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٢١٠ - ٢١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٥٢.

أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيًا من عباد الله سواء كانوا فقراء أم أغنياء، أقوياء أم ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشراف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم، وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه.^(١)

دعوته للحق وتهديد الكافرين بها:

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل للناس هذا الذي جئكم به من ربكم هو الحق، الذي لا مرية فيه ولا شك، ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد. ولهذا قال تعالى: ﴿إنا أعتدنا﴾ أي أרصدنا ﴿للظالمين﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نارًا﴾ أحاط بهم سرادقها ﴿أي سورها وحائطها﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ الآية، الماء الغليظ مثل رديء الزيت كالدم والقيح الذي انتهى حره، وقيل ماء جهنم أسود، وهي سوداء وأهلها سود. وهو أسود منتن غليظ حار. ولهذا قال تعالى: ﴿يشوي الوجوه﴾ أي من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه.

يقول الله تعالى: ﴿بئس الشراب﴾ يصيبهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٢١٢ - ٢١٦: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٥٢ - ١١٥٣.

حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بئس الشراب﴾ أي بئس هذا الشراب ، ﴿وساءت مرتفقاً﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق.

ضرب له ﷺ مثل بصاحب الجنة:

قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّثْلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ۖ (٣٢) كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۖ (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۖ (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف].

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، اضرب لهم يا محمد مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخيل، المحدث في جنباتهما وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع ثمر مقبل في غاية الجودة، ولهذا قال تعالى: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ أي أخرجت ثمرها، ﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي ولم تنقص منه شيئاً، ﴿وفجرنا خلالهما نهراً﴾. فالأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا، ﴿وكان له ثمر﴾ ثمار جمع ثمرة، فقال أي صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يحاوره، أي يجادله، ويخاصمه يفتخر عليه ويتراأس ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ أي أكثر خدماً وحشماً وولداً. وأمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفر.

وقوله تعالى: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ أي بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكار المعاد، ﴿قال ما أظن أن تبديد هذه أبداً﴾؛ اغتراراً منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار، والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفسى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف؛ ذلك لقله عقله وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال تعالى حكايةً عنه: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أي كائنة ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾، أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكون لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا وكأنه يشير إلى الدنيا.^(١)

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۖ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٣٨ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَنَّا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝٤١﴾ [الكهف].

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعتزاز: ﴿أكفرت بالذي خلقك من تراب﴾ الآية. وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. أي كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جليلة، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً، ثم وجد وليس

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج٨/٢٢٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج٢/١١٥٥.

وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابة. فليعم أن إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء. ولهذا قال المؤمن: ﴿لكننا هو الله ربّي﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿ولا أشرك بربي أحداً﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال تعالى حكاية عنه: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً﴾ هذا حضّ وحث على ذلك، أي هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت.^(١)

عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ويرسل عليها﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبديد ولا تفسى ﴿حسباً من السماء﴾، مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها. ولهذا قال

(١) انظر: الهيتمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ١٠/ ١٤٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، ج ٨/ ٧٤؛ وانظر: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، ج ٧/ ١٦٢.

تعالى: ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي بلقاً تراباً أملس لا يثبت فيه قدم، وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَصْبِحُ مَاؤُهَا غُورًا﴾ أي غائراً في الأرض، وهو ضد النابع الذي يعد على وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها.

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٤٤) [الكهف].

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بثماره وأمواله. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسابان على جنته التي اغتربها وألهته عن الله ﷻ، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ يصفق ليضرب يديه ببعضهما [بكفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً. ولم تكن له فئَةٌ﴾ أي عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً هنالك الولاية لله الحق﴾ أي في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله، فلا منقذ له منه. ﴿هنالك الولاية لله الحق﴾ المعنى هنالك الموالاة لله، أي هناك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب.

كما تعني أن الحكم لله الحق، ثم قال تعالى: ﴿هو خير ثواباً﴾ أي جزاء ﴿وخير عقباً﴾ أي الأعمال التي تكون لله ﷻ، ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير.

ضرب المثل في الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ

نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ [الكهف].

يقول تعالى: ﴿واضرب لهم﴾ يا محمد للناس ﴿مثل الحياة الدنيا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلف به نبات الأرض﴾ أي ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله أصبح ﴿هشيمًا﴾ يابسًا ﴿تذروه الرياح﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وكان الله على كل شيء مقتدرًا﴾، أي هو قادر على هذه الحال وهذه الحال. وكثيرًا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بهذا المثل وفي الحديث الصحيح "الدنيا حلوة خضرة... الحديث".^(١)

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ أي الإقبال عليه ﷺ والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم، والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملاً﴾.

عن ابن عباس ؓ: الباقيات الصالحات سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهذا لا يمنع أن المقصود الأعمال الصالحة المتقبلة عمومًا.^(٢)

إعراض الكفار عن هدي النبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، ج ٨/ ٨٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٢٢٨ - ٢٣٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٥٦ - ١١٥٧.

عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾ [الكهف].

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها، أي تناساها وأعرض عنها، ولم يصغ لها ولا ألقى إليها بالاً، ﴿ونسي ما قدمت يداه﴾ من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي أغطية وغشاوة ﴿أن يفقهوه﴾، أي لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي صمماً مغنوياً عن الرشاد، ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً﴾. هم لا يجيبون دعوتك يا محمد إلى الهدى.

وقوله تعالى: ﴿وربك الغفور ذو الرحمة﴾ أي ربك يا محمد ورب العالمين غفور ذو رحمة واسعة، ﴿لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب﴾.

والآيات في هذا كثيرة. ثم أخبر تعالى أنه يحلم ويسترويفغر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها. ولهذا قال تعالى: ﴿بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾، أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل.

وقوله تعالى: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية، أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم، ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾، أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين، لا يزيد ولا ينقص. وكذلك أنتم أيها المشركون المعاندون للرسول ﷺ احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتهم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذري.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٢٤٣ - ٢٤٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٦٢.

جوابه ﷺ لسؤال عن ذي القرنين:

قال تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف].

يقول تعالى **لنبيه ﷺ**: ﴿ويسألونك﴾ يا محمد ﴿عن ذي القرنين﴾ أي عن خبره. وقد بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألونهم ما يمتحنون به النبي ﷺ.

وروي أنه سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين. فقال: كان عبداً ناصحاً لله، فناصره.

ويقال: إنه سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب.

وقوله تعالى: ﴿إنا مكنا له في الأرض﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم. وقوله تعالى: ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: يعني علماً. وقيل: منازل الأرض وأعلامها.

فقد يسر الله تعالى له الأسباب والطرق والوسائل التي أعانته على فتح الأقاليم والبلاد والأراضي، وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٢٧٠ - ٢٧٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٧٠.

إخباره ﷺ بأهل الأعمال الخاسرة ومصيرهم:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٠٥ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠٦﴾ [الكهف].

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ قال: هم اليهود والنصارى، الذين كذبوا محمدًا ﷺ.^(١)

ولا شك أن هذه الآية الكريمة تشمل كل من يكفر بمحمد ﷺ، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، وهي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ أي نخبركم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ثم فسرهم، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء وأنهم مقبولون.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ أي لا ننقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير.

(١) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً)، ج ٢٣٥/٥ - ٢٣٦.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢٩٢/٨ - ٢٩٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١١٧٥/٢.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقرءوا إن شئتم ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ذلك جزاؤهم بما كفروا﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء؛ بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوا.^(٢)

إخباره ﷺ بعظم كلمات الله:

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفْدِكَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿ولو جئنا بمثله﴾ أي بمثل البحر آخر ثم آخر، وهلم جرا بحور تمده ويكتب بها لما نفدت كلمات الله.

وقد أنزل الله ذلك ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾ يقول تعالى: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر المداد، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم)، ج ٢٣٦/٥؛ صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مقدمة كتاب صفة القيامة والجنة والنار، ج ١٢٥/٥.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٢٩٢/٨ - ٢٩٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١١٧٥/٢ - ١١٧٦.

إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.^(١)

بشريته ﷺ وتفضيله بالوحي:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾ [الكهف].

﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتكم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر. ولولا ما أطلعني الله تعالى عليه، وإنما أخبركم ﴿أنما إلهكم﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إله واحد﴾ لا شريك له، ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ أي ما كان موافقاً لشرع الله ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾، وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له. وهذان ركنَا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ.

عن ابن عباس ؓ قال: قال رجل: يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾.^(٢)

عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ يرويه عن الله ﷻ أنه قال تعالى: أنا خير

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٢٩٨ - ٢٩٩: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٧٦.

(٢) انظر: الحاكم، المستدرک، کتاب الجهاد، ج ٢/١٢٢، حديث رقم: ١٥٢/٢٥٢٧.

الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه، وهو للذي
أشرك.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٢٩٩ - ٣٠٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٧٦ - ١١٧٨.

سورة مريم

توحيد ﷻ لله وأمره بذلك:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٣٦) فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ [مريم].

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿قول الحق الذي فيه يمترون﴾، أي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال تعالى: ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً، ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، أي إذا أراد شيئاً فإنما يأمرك به فيصير كما يشاء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله تعالى ربه وربهم، وأمرهم بعبادته فقال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي هذا الذي جئكم به عن الله صراط مستقيم، أي قويم من اتبعه رشد وهُدي، ومن خالفه ضل وغوى. وهذا الكلام يقوله عيسى عليه السلام ويقولوه محمد ﷺ، فالرسالة واحدة، ومنها الإقرار بالعبودية لله. وقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى عليه السلام بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم، وهم جمهور اليهود - عليهم لعائن الله -

على أنه ولد زانية، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: بل هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقالت طائفة أخرى: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله تعالى إليه المؤمنين. ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ اختلفوا في عيسى عليه السلام فصاروا أحزاباً.

وذكر علماء التاريخ من النصارى وغيرهم أن قسطنطين الأول (٣٣٧م) جمعهم في محفل كبير من مجامعهم المشهورة عندهم ومنها نيقية وخلقيدونية، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومئة وسبعين أسقفًا، فاختلفوا في عيسى ابن مريم عليه السلام اختلافًا متباينًا جدًا، فقالت كل شُرذمة فيه قولاً، فمئة تقول فيه شيئاً، وسبعون تقول فيه قولاً آخر، وخمسون تقول شيئاً آخر ومئة وستون تقول شيئاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاث مئة، وثمانية منهم اتفقوا على قول وصمموا عليه، فمال إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هي الخيانة العظيمة. ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء، وابتدعوا بدعا كثيرة، وحرفوا دين المسيح عليه السلام وغيروه. فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها، بلاد الشام والجزيرة والروم. فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثنتي عشرة ألف كنيسة. وبنت أمه هيلانة كنيسة قمامة على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي يزعم اليهود والنصارى أنه المسيح. وقد كذبوا، بل رفعه الله إلى السماء.^(١)

وقوله تعالى: ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أن له ولداً، ولكن أنظرهم تعالى

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٨٧ - ١١٨٨.

إلى يوم القيامة، وأجلّهم؛ حلمًا وثقة بقدرته عليهم، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه.

عن رسول الله ﷺ أنه قال: لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيه^(١).

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)).^(٢)

تحذيره ونذارته ﷺ من يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ (٤٠) [مريم].

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار يوم القيامة: إنهم يكونون أسمع شيء وأبصره، ولهذا قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعني يوم القيامة ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ثم سيكونون مطيعين، حيث لا ينفعهم ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي أنذر يا محمد الخلائق يوم الحسرة ﴿إِذْ

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الصبر في الأذى...، ج ٧/٩٦، ورواية

مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لا أحد أصبر على أذى من

الله ﷻ، ج ٨/١٣٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٣٤٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٨٧ - ١١٨٨.

قضي الأمر ﴿أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار، وصار كل إلى ما صار إليه مخلصاً فيه﴾، ﴿وهم﴾ أي اليوم ﴿في غفلة﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿وهم لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون به.

في حديث طويل عن أبي سعيد الخدري وفيه: أنه ﷺ قرأ: وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة، وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا وهم لا يؤمنون.^(١)

﴿يوم الحسرة﴾ من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده. وقوله تعالى: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا مثقال ذرة.^(٢)

تذكره ﷺ بقصة إبراهيم عليه السلام مع والده:

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢﴾ يَتَّبِعْتَنِي إِذْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣﴾ يَتَّبِعْتَنِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤﴾ يَتَّبِعْتَنِي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥﴾ [مريم].

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم﴾ واتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (وأنذرهم يوم الحسرة)، ج ٥/٢٣٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٣٤٣ - ٣٤٦: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٨٨ - ١١٨٩.

خليل الرحمن ﷺ. الذين هم من ذريته ويدعون أنهم على ملته مع أبيه، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه، كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال ﷺ: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾، أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ يقول ﷺ: وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك؛ لأنني ولدك فاعلم أنني قد أطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا أطلعت عليه ولا جاءك، ﴿فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ أي طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب. ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به. وقوله تعالى: ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله. ﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾ أي على شركك وعصيانك لما أمرك به ﴿فتكون للشيطان ولياً﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصرًا ولا مغيثًا إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك.^(١)

تذكيره ﷺ بموسى ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝٥١ وَنَذَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [مريم].

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل ﷺ وأثنى عليه، عطف بذكر الكلیم موسى ﷺ، لحمد ﷺ ولأتمته معه فقال تعالى: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً﴾ كان مصطفى، ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ جمع الله له بين الوصفين، فهو من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٣٤٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٨٩.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ أي الجبل ﴿الْأَيْمَنِ﴾ من موسى عليه السلام حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة فرآها تلوح، فقصدها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه عند شاطئ الوادي، فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناداه، عن ابن عباس عليه السلام: ﴿وقربناه نجياً﴾ قال: أدنى فكلم.

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه، فجعلناه نبياً. قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعته في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبياً، عن ابن عباس عليه السلام: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب نبوته له.^(١)

تذكيره ﷺ بإسماعيل عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ [مريم].

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، ذكره الله محمد ﷺ وللأمة معه وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد مع الله ومع الناس.

فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن مخالفته من الصفات الذميمة. وقد أثنى الله تعالى على عبده ورسوله إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به.^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل عليه السلام؛ لأنه وصف بالنبوة والرسالة.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٣٥٠ - ٣٥١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٩٠ - ١١٩١.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٩١.

وثبت أن رسول الله ﷺ قال: ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم)).^(١)

﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾ هذا من الثناء الجميل والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابراً على طاعة ربه ﷻ.^(٢)

تذكيره ﷺ بإدريس عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ ^(٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ^(٥٧) [مريم].

ذكر لرسول الله ﷺ إدريس عليه السلام بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً.

في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة.^(٣)

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إدريس كان خياطاً، فكان لا يغرز إبرة إلا قال: سبحان الله، فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه.

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، ج ٥٨/٧؛ سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، ج ٥٨٣/٥، حديث رقم: ٣٦٠٥. (وتكرر للمناسبة).

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣٥١/٨ - ٣٥٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١١٩١/٢ - ١١٩٢.

(٣) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب المعراج، ج ٢٤٨/٤ - ٢٤٩.

عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى، فهو في السماء الرابعة، عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها وقيل الجنة.^(١)

صبره ﷺ على عبادة الله وحده:

قال تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ٦٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ٦٥ [مريم].

ذلك الجواب لمحمد ﷺ، عن ابن عباس رضي الله عنه احتبس جبرائيل عن رسول الله ﷺ فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فأتاه جبريل وقال: يا محمد ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾ قيل: المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا، وما خلفنا أمر الآخرة. ﴿وما بين ذلك﴾ ما بين النفختين. وقيل: ﴿ما بين أيدينا﴾ ما يستقبل من أمر الآخرة ﴿وما خلفنا﴾ أي ما مضى من الدنيا ﴿وما بين ذلك﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿وما كان ربك نسياً﴾ إن الله لم يكن لينسى شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف، الذي لا معقب لحكمه ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾ هل تعلم له سمياً عن ابن عباس رضي الله عنه: هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٣٥٢ - ٣٥٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٩٢.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٣٥٨ - ٣٦٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٩٥ - ١١٩٦.

وعيد الله للكفار والشیاطین:

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۖ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الرب ﷻ بنفسه الكريمة أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشیاطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني من كل أمة أو مجموعة، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾^(١). لنزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ فالرب ﷻ أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب^(٢).

إمهال أهل الضلالة:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ۖ﴾ [يونس: ٧٥] وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَلَقِيتُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا [مريم: ٧٦].

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٩٦ - ١١٩٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٣٦٢ - ٣٦٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١١٩٦ - ١١٩٧.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على حق: إنكم على باطل: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أي منا ومنكم ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أي فيمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقي ربه وينقضي أجله، ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يصيبه ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ بغتة تأتيه ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جَنَدًا﴾، في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى فليدعه الله في طغيانه. وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه.

تذكيره ﷺ بهدى الله:

قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ ﴿٧٦﴾ [مريم].

عندما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه أخبر بزيادة المهتدين هدى. ﴿وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ﴾ ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي جزاء ﴿وخير مردًا﴾ أي عاقبة ومردًا على صاحبها.

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عودًا يابسًا فحط ورقه، ثم قال ﷺ: إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح. خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن. هن الباقيات الصالحات. وهن من كنوز الجنة. فكان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا ذكر هذا الحديث قال: لأهلن الله، ولأكبرن الله، ولأسبحن الله، حتى إذ رأني الجاهل حسب أني مجنون.^(١)

(١) انظر: سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب (٩٨)، ج ٥/٥٤٤، حديث رقم: ٣٥٣٣؛ انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٣٧٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١١٩٩ - ١٢٠٠.

تأمله ﷺ في المعاندين من قريش:

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۗ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۗ﴾ (٧٨) ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۗ﴾ (٧٩) ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۗ﴾ (٨٠) [لمريم].

عن خباب بن الارت رضي الله عنه قال: كنت رجلاً قيناً [حداداً] وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه منه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۗ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۗ﴾^(١) وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه فذكر الحديث.^(٢)

وقال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۗ﴾ قال: موثقاً.^{(٣) (٤)}

فضرب الله مثله في القرآن، فقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ۗ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۗ﴾ وحيداً، وقوله تعالى: ﴿لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۗ﴾ تكبراً وتجبراً.

﴿أطلع الغيب﴾ إنكار على هذا القائل ﴿لأوتين مالا وولدا﴾ يعني يوم

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٥/١١٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال...)، ج ٥/٢٣٧.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال...)، ج ٥/٢٣٧.

(٤) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٣٧٤ - ٣٧٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٠٠ - ١٢٠١.

القيامة، أي أعلم ماله في الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك، ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال تعالى: ﴿أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: لا إله إلا الله فيرجو بها.

وقوله تعالى: ﴿كلا﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما يتمناه وكفره بالله العظيم، ﴿ونمد له من العذاب مداً﴾ أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا. ﴿ونرثه ما يقول﴾ أي من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولداً زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يسلب منه الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿ويأتينا فرداً﴾ أي من المال والولد.

قال مجاهد: ﴿ونرثه ما يقول﴾ لا مال له ولا ولد. ويفقد كل ما جمع من الدنيا وما عمل فيها، قال ﴿ويأتينا فرداً﴾ قال: فرداً من ذلك لا يتبعه من ماله قليل ولا كثير.^(١)

تذكيره ﷺ بامهال الله للمعاندين الكفرة:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزْأًا ۚ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعْدُهُمْ عَذَابًا ۝٨٤﴾ [مريم].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزْأًا﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه: تغويهم إغواءً، وتحرضهم على محمد وأصحابه. وتدفعهم إلى

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٣٧٤ - ٣٧٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٢٠٠ - ١٢٠١.

الكفر والمعاصي لله، وتطغيهم طغياناً، ﴿فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً﴾ أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿إنما نعد لهم عداً﴾ أي إنما نوخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى الله، إنما نعد لهم عداً: السنين والشهور والأيام والساعات. وأنفاسهم في الدنيا.^(١)

بشارته ﷺ للمتقين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۖ إِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ۖ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۖ﴾ [مريم].

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهي الأعمال التي ترضي الله ﷻ لتتابعها الشريعة المحمدية - يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة. وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أحب فلاناً فأحبه قال فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء في الأرض)).^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٣٧٩ - ٣٨٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٠١.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده، ج ٨/٤٠ - ٤١.

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: حبًّا، وقال مجاهد عنه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾، قال: محبة في الناس في الدنيا يحبهم ويحبهم إلى خلقه المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسِرْنَاهُ﴾ يعني القرآن الكريم ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل، ﴿لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي المستجيبين لله، المصدقين لرسوله ﷺ، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ أي عوجًا عن الحق مائلين إلى الباطل، لا يستقيمون الألد الكذاب. وقال الحسن البصري ﴿قَوْمًا لَّدَا﴾ صمًّا، صم الآذان مغلقي القلوب فجارًا. ومنهم مشركو قريش.

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أمة وجيل كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿هَلْ تَحَسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي هل ترى منهم أحدًا أو تسمع لهم ركزًا: هل ترى عينًا أو تسمع صوتًا، والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٣٨٥ - ٣٨٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٠٣ - ١٢٠٥.

سورة طه

القرآن سعادة له ﷺ ولأمته:

قال تعالى: ﴿طه ١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۖ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾﴾ [طه].

طه: قيل: إنها كلمة نبطية معربة معناها يا رجل، والحديث لمحمد ﷺ ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾. روي أنه لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾، فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم، فقد أراد الله ﷻ به خيراً كثيراً.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾: ما جعله الله ﷻ شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة، له ﷻ ولمن تبعه، ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾، إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله ﷺ رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر، ويُنْتَفِعَ بما يُسْمَعُ من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله تعالى: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك، رب كل شيء ومليكه القادر على

ما يشاء، الذي خلق الأرض بكل ما فيها، وخلق السماوات العلى. وقد جاء في الحديث الذي صححه. وقوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل.

وقوله تعالى: ﴿له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾، أي الجميع ملكه، وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيتته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإله لا إله سواه. ولا رب غيره. وقوله تعالى: ﴿وما تحت الثرى﴾ كل ما تحت الثرى من ماء ونفط وغاز ومعادن وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ أي أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسماوات العلى الذي يعلم السر وأخفى، السر ما أسره ابن آدم في نفسه، ﴿وأخفى﴾ ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، فالله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غداً. وقال مجاهد ﴿وأخفى﴾ يعني الوسوسة، وما هو عالمه مما لم يحدث به نفسه. وقوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنی﴾ أي الذي أنزل عليك القرآن. هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنی والصفات العلى.^(١)

تذكيره ﷺ بشيء من قصة موسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ﴾ [طه].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٣٨٧ - ٣٩٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٠٥ - ١٢٠٧.

من هنا شرع سبحانه في ذكر قصة موسى لمحمد ﷺ وأمته، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه تعالى إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم. وسار بأهله قاصداً بلاد مصر بعد ما طال الغيبة عن أهله أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب. وجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً كما جرت العادة به. فجعل لا يقدح شيئاً ولا يخرج منه شرر ولا شيء. فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً، أي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: ﴿إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس﴾ أي شهاب من نار.

وقوله تعالى: ﴿بقبس﴾ دل على وجود الظلام، وقوله تعالى: ﴿أو أجد على النار هدى﴾ أي من يدلني على الطريق. وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها.^(١)

تذكيره ﷺ بالأنبياء ﷺ:

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ ﴿١١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ ﴿١٢﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ۖ ﴿١٣﴾﴾ [طه].

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع كذلك نقص عليك الأخبار

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٣٩٤ - ٣٩٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٢٠٧.

الماضية، كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا وقد آتيناك من لدنا، أي من عندنا ذكراً، وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد ﷺ كتاباً مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه.

ولهذا قال تعالى: ﴿من أعرض عنه﴾ أي كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً ونهياً وابتغى الهدى من غيره فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم. ولهذا قال تعالى: ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾ أي إثماً. وهذا عام في كل من بلغه القرآن الكريم من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، فكل من بلغه القرآن الكريم فهو نذير له وداع. فمن اتبعه هُدي ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقي في الدنيا والنار موعده يوم القيامة. ^(١)

أمره ﷺ بالصبر والتسبيح:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه].

لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة. ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ مسلماً له: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ أي من تكذيبهم لك، ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس﴾ يعني صلاة الفجر ﴿وقبل غروبها﴾ يعني صلاة العصر. عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: ((إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٤٥٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٢٥.

رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا))، ثم قرأ هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ آثَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أي من ساعاته فتهجد به، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾ في مقابلة آثاء الليل ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾. كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. وفي الصحيح يقول الله تعالى: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: إني أعطيتكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً.^(١)

تذكيره ﷺ برزق الله والرضى فيه:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَكَ إِلَى مِمَّا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٣١) وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (١٣٢) [طه].

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تنظر إلى هؤلاء المترفون وأشباهم ونظراؤهم وما فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور. ﴿أزواجا منهم﴾، يعني الأغنياء، فقد آتاك خيراً مما آتاهم.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/ ٤٧١ - ٤٧٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٢٢٩ - ١٢٣٠. والحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار، ج ٧/ ٢٠٠؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، ج ٨/ ١٤٤.

وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله ﷺ في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف. كما قال تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾.

وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما دخل على رسول الله ﷺ في المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجاً على رمال حصير، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ معلقة، فابتدرت عيناه عمر رضي الله عنه بالدمع، فقال له رسول الله ﷺ: ((ما يبكيك يا عمر؟)) فقال: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال ﷺ: أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا. فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله. ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

وقوله تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ أي استتقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها.

وقوله تعالى: ﴿لا نسئلك رزقاً نحن نرزقك﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، وقال تعالى: ﴿لا نسئلك رزقاً نحن نرزقك﴾. أي لا نكلفك الطلب.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من كانت الدنيا همه ففرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة)).^(١)

(١) انظر: سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (٣٠)، ج ٤/٦٤٢، حديث رقم: ٢٤٦٥.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة. وهي الجنة لمن اتقى الله.^(١)

تحدي الكفار لله ولرسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۚ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِي ۚ﴾ (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا ۚ فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ الصَّحْبُ الْصَرِيطُ السَّوِي وَمَنِ اهْتَدَىٰ ۚ﴾ (١٣٥) [طه].

ثم قال تعالى: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾، أي لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لقالوا: ﴿ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال تعالى: ﴿فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾، يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون، ثم قال تعالى: ﴿قل﴾ أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده: ﴿كل متربص﴾ أي منا ومنكم، ﴿فتربصوا﴾ أي فانظروا، ﴿فستعلمون من أصحاب الصراط السوي﴾ أي الطريق المستقيم ﴿ومن اهتدى﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٤٧٨ - ٤٨٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٣٠ - ١٢٣١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٨/٤٨١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٣١.

سورة الأنبياء

إتهامه ﷺ بالسحر والشعر:

قال تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢) ﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ (٣) ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٤) ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِئْنَا نَبَايَةَ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٥) ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) [الأنبياء].

هذا تنبيه من الله ﷻ على اقتراب الساعة ودنوها ، وأن الناس في غفلة عنها ، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها.

ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله. والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار ، فقال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ﴾ أي جديد إنزاله ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي قائلين فيما بينهم خفية ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبياً؛ لأنه بشر مثلهم ، فكيف اختُص بالوحي دونهم ، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ ، أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر ، فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي الذي يعلم ذلك لا تخفى عليه

خافية. وهو الذي أنزل هذا القرآن الكريم المشتتل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

وقوله تعالى: ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوالكم والعليم بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعيد. وقوله تعالى: ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه﴾ هذا إخبار عن تغت الكفار والحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن الكريم، وحيرتهم فيه وضلالهم عنه، فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، وقوله تعالى: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ يعنون كناقاة صالح وآيات موسى وعيسى ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون﴾ أي ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيهم الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى أبهر وأقطع وأقهر مما شوهده مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.^(١)

هو رجل كمن قبله من الأنبياء ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء].

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسول ﷺ بأن الرسل رجال من البشر: ﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم﴾ أي جميع الرسل الذين

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣ - ٦: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٣٢ - ١٢٣٣.

تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة، لهذا قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي اسألوا أهل العلم من الأمم، كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أم ملائكة؟ فقد كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه، إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.^(١)

توحيدہ ﷺ لله كالأنبياء قبله:

قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

يقول تعالى: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل﴾ يا محمد ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي دليلكم على ما تقولون، ﴿هذا ذكر من معي﴾ يعني القرآن الكريم ﴿وذكر من قبلي﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له. والفطرة شاهدة بذلك أيضاً. والمشركون لا برهان لهم. وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.^(٢)

تذكيره ﷺ بأنه بشر لا خلود له:

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٦/٩ - ٧: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٣٣.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/١٥ - ١٧: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٣٥.

نَفْسٍ ذَائِقَةً الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَشَرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ [الأنبياء].

يقول تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك﴾ أي يا محمد ﴿الخلد﴾ أي في الدنيا، بل كل من عليها فان ﴿أفان مت﴾ أي يا محمد ﴿فهم الخالدون﴾ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا، بل كل إلى الفناء. وقوله: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، بالشدة والرخاء، بالصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، ﴿والينا ترجعون﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم.^(١)

استهزاء المشركين به ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّخَذُواكَ إِلا هُزُواً أَلَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وإذا رآك الذين كفروا﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿إن يتخذونك إلا هزوا﴾ أي يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ يعنون أهدا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ أي وهم كافرون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ والحكمة في ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٢٥ - ٢٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٣٧.

صلوات الله وسلامته عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال تعالى: ﴿سأريكم آياتي﴾ أي نعمتي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فلا تستعجلون﴾^(١).

تذكير المستهزئين به ﷺ بما حل بأمثالهم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(٤١) ﴿قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(٤٢) ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾^(٤٣) [الأنبياء].

يقول تعالى مسلماً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب. ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾، يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، مبيناً تعالى نعمته على عبده في حفظه بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال تعالى: ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ أي بدلاً من الرحمن يعني غيره. وقوله تعالى: ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه. ثم قال تعالى: ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا، ولا كما زعموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لا يستطيعون نصر

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٢٦ - ٢٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٣٧.

أنفسهم ﴿أَنْ هَذِهِ الْأَلِهَةُ الَّتِي اسْتَدَّوْا إِلَيْهَا غَيْرَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا هُمْ مَنَا يَصْحَبُونَ﴾ لَا يَصْحَبُونَ مِنَ اللَّهِ بِخَيْرٍ. وَلَا هُمْ مَنَا يَمْنَعُونَ.^(١)

إنذاره ﷺ للمشركين بالوحي:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾^(٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوَلِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ^(٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ^(٤٧) [الأنبياء].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي قل يا محمد إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله تعالى إليّ، ولكن لا يجدي هذا لمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدنيا. وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾، فهناك دقة متناهية وكاملة في الحساب والعدل من الله تبارك وتعالى مع الخلق.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٣٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٣٨ - ١٢٣٩.

إرساله ﷺ رحمة للعالمين:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجحدتها خسر في الدنيا والآخرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله ادع على المشركين. قال: "إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة".^(١)
وفي الحديث الآخر: "إنما أنا رحمة مهداة".^(٢) وقد رفع الله به أناساً تبعوه ووضع به آخرين.^(٣)

إنذاره ﷺ للمشركين بالوحي واستعانته بالله:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ (١١١) قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢) [الأنبياء].

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي متبعون على ذلك مستسلمون

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، ج ٢٤/٨.

(٢) انظر: الحاكم، المستدرک، کتاب الإیمان، ج ٩٠/١، حديث رقم: ١٠٠/١٠٠.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/١٠٠ - ١٠١: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٥٧.

منقادون له، ﴿فإن تولوا﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فقل آذنتكم على سواء﴾ أي أعلمتكم أنني حرب لكم كما أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني، أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ اليهود على السواء، وهكذا ها هنا ﴿فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء﴾ أي أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون﴾ أي هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده، ﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ أي إن الله تعالى يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في جوارهم وأسرارهم. وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل. وقوله تعالى: ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين، فلعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى. ﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق.

كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالاً ﴿قال رب احكم بالحق﴾. وقوله تعالى: ﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك. والله المستعان عليكم في ذلك.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/ ١٠١ - ١٠٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٢٥٨.

سورة الحج

تذكيره ﷺ بسجود الخلائق لله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝۱۸﴾ [الحج].

يخبر تعالى نبيه محمدًا ﷺ وأُمَّته معه أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً. وسجود كل شيء مما يختص به، فقال تعالى هاهنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي من الملائكة في أقطار السماوات والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطيور. وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربية خلقها الله ﷻ مسخرة.

وفي حديث الكسوف ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أي الحيوانات كلها، وقوله تعالى: ﴿وَكثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ﴾

(١) صحيح مسلم، كتاب الكسوف، باب ما عرض لرسول الله ﷺ في صلاة الكسوف... ج ٣/٣١. واللفظ له؛ انظر رواية البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، ج ٤/٧٥ - ٧٦.

العذاب ﴿أي ممن امتنع وأبى واستكبر﴾ ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴿٣٤﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار)).^(١)

بشارته ﷺ للمخبتين الذاكرين الصابرين المنفقين:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَافِرُونَ﴾ وَلِحَدِّثِ الْفُلَّ وَحَدِّثِ الْفُلَّ وَأَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ [الحج].

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل. ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ قال: عيداً يذبح فيه القربان لله. وقيل محجاً وهي مكة.

وقوله تعالى: ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾. ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسعى وكبر ووضع رجله على صفاحهما.^(٢)

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، ج ١/٦١؛

انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/١٢٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٦٥ - ١٢٦٦.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل والتسمية والتكبير، ج ٦/٧٧ - ٨٧.

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: ((قلت أو قالوا: يا رسول الله ما هذه الأضاحي؟ قال: سنة أبيكم إبراهيم. قالوا: ما لنا منها؟ قال: بكل شعرة حسنة قال فالصوف؟ قال "بكل شعرة من الصوف حسنة")^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَالِهَكُمْ إِلَهَ وَاحِدٍ فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أي معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أي أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته. ﴿وبشر المخبتين﴾ المطمئنين المتواضعين الوجلين الراضين بقضاء الله المستسلمين له، الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا، وأحسن بما يفسر بما بعده وهو قوله تعالى: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ أي من المصائب.

﴿والمقيمي الصلاة﴾ أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه. ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهلهم وأرقائهم وفقرائهم ومحاوليهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله.^(٢)

تذكيره ﷺ بما أصاب الأنبياء قبله:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج].

(١) انظر: سنن ابن ماجه، كتاب الأضاحي، باب ثواب الأضحية، ج ٢/ ١٠٤٥، حديث رقم:

٣١٢٧؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٤/ ٣٦٨؛ الحاكم. المستدرک، ج ٢/ ٤٢٢، حديث رقم:

٣٤٦٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/ ١٥٠ - ١٥١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٢٦٦ - ١٢٦٧.

يقول تعالى مسلماً نبيّه محمداً ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح﴾ - إلى أن قال تعالى -: ﴿وكُذِّبَ موسى﴾ أي مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات، ﴿فأمليت للكافرين﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثم أخذتهم فكيف كان نكير﴾، أي فكيف كان إنكارهم عليهم ومعاقبتهم لهم؟!

وعند مسلم في صحيحه، عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾^(١).

الرد على مستعجلي العذاب:

قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(١٧) ﴿وَكَأَنِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾^(١٨) [الحج].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ أي هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر.

وقوله تعالى: ﴿ولن يخلف الله وعده﴾ أي الذي قد وعد من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه.

وقوله تعالى: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾، أي هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه؛ لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/١٦٧ - ١٦٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٨٠؛ والحديث رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج ١٩/٨.

وأملئ، ولهذا قال تعالى بعد هذا: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَالْيَّ الْمَصِيرَ﴾.

عن ابن عباس ؓ، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض. ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَدْبِرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾^(١).

نذارته ﷺ للناس أجمعين:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٤٩) ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٥٠) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٥١) [الحج].

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، أي إنما أرسلني الله ﷻ إليكم نذيراً لكم، بين يدي عذاب شديد، وليس لي من حسابكم من شيء. أمركم إلى الله سبحانه إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار. ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أَيَّ آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَقُوا إِيمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ﴾ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم، قال بعضهم: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/ ١٧١ - ١٧٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٢٨١ - ١٢٨٢.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ، معاجزين مراغمين، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وهي النار الحارة الموجهة، الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها.^(١)

إحكام الله آياته لرسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٤﴾ [الحج].

﴿ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾.

وروي أجرى الشيطان بين الناس ما لم يصح عن النبي ﷺ فرددتها ألسنتهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية، فدحر الله الشيطان.

وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته وحفظه من الفرية. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾. فلما بين الله قضاءه وبرأه

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/ ١٧٣ - ١٧٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٢٨٢.

مما أشاعه الشيطان، انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم على المسلمين، واشتدوا عليهم.

والعصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله ﷺ تمنع من كيد الشيطان ومكره، وخطئه الآيات على الناس.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ فيه تسلية من الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

قال البخاري رحمه الله قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾: إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ، فَيُبْطِلُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴿ثُمَّ يَحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ يقول: إِذَا حَدَّثَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ. وقالوا: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ يعني إِذَا قَالَ، وَيُقَالُ ﴿أُمْنِيَّتُهُ﴾ قِرَاءَتُهُ أَيْ تَلَا وَقَرَأَ كِتَابَ اللَّهِ وَ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أَيْ فِي تَلَاوَتِهِ، ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ إِذَا تَلَا. وقوله ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع أي فيبطل الله ﷻ ما ألقى الشيطان. وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة. ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله. وإنما كان من الشيطان. قال ابن جريج: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون، ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِم﴾ هم المشركون.

وقيل هم اليهود ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أي من الحق والصواب، ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به﴾ أي وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحينا إليك يا محمد هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه، وحرسه أن يختلط به وغيره، بل هو كتاب حكيم ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾.

وقوله تعالى: ﴿فيؤمنوا به﴾ أي يصدقوه وينقادوا له، ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي تخضع وتذل له قلوبهم. ﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ أي في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه. وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.^(١)

تذكيره ﷺ بتسخير الله للناس ما في السماوات والأرض:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝٦٣ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ ۝٦٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ۝٦٥ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾ [الحج].

هذا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه تعالى يرسل الرياح فتثير سحاباً، فيمطر على الأرض الجرز التي لا نبات فيها، وهي هامة يابسة سوداء ممحلة. وقوله تعالى: ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ أي خضراء بعد يباسها ومحولها.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/ ١٧٤ - ١٧٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٢٨٢ - ١٢٨٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، ولا يخفى عليه خافية، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه وكل شيء فقير إليه عبد لديه، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي من حيوان وجماد وزروع وثمار، من إحسانه وفضله وامتنانه ﴿وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي بتسخيره وتسييره، أي في البحر العجاج وتلاطم الأمواج تجري الفلك بأهلها بريح طيبة ورفق وتؤدة فيحملون فيها ما شاءوا من تجارات وبضائع ومنافع من بلد إلى بلد وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه.

قال تعالى: ﴿وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي مع ظلمهم، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف؟ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ﴾ أي يوم القيامة. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي جحود.^(١)

منسك رسول الله ﷺ والرد على من يجادل:

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأُمْرِ وَادْعُ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/ ١٨٤ - ١٨٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٢٨٥ - ١٢٨٦.

إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾
 اللَّهُ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ [الحج].

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم ولكل نبي منسكاً. وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لخيراً أو لشر، قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها، فإن كان كما قال تعالى من أن المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكاً فيكون المراد بقوله تعالى فلا ينازعنك في الأمر أي هؤلاء المشركون ﴿هم ناسكوه﴾ أي فاعلوه. فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق. ولهذا قال تعالى: ﴿وادع إلى ربك إنك لعلی هدی مستقیم﴾ أي طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

تذكيره ﷺ بعظيم علم الله:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٧٠﴾ [الحج].

يخبر تعالى نبيه ﷺ والأمة معه عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السماوات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى عليم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت عن عبدالله بن

عمرو ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء.^(١)

في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: ((أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة)).^(٢)

قال ابن عباس ؓ: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مئة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش: اكتب، فقال القلم: وما أكتب؟ قال: علمي في خلقي إلى يوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة، فذلك قوله للنبي ﷺ: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾. وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه يسير لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾.^(٣)

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى ؑ، ج ٥١/٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، ص ٨٥٠، حديث رقم: ٤٧٠٠؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٣١٧/٥؛ سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة ن)، ج ٤٢٤/٥، حديث رقم: ٣٣١٩.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٨٦/٩ - ١٨٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٢٨٧/٢.

سورة المؤمنون

إباحة الطيبات لرسول الله ﷺ وأمته:

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۖ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون].

أمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال، ومنهم محمد ﷺ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء ﷺ بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً. فجزاهم الله عن العباد خيراً.

وفي الصحيح ((وما من نبي إلا رعى الغنم))، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: ((نعم كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة)).^(١)

وفي الصحيح: أن داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده.^(٢)

قال ﷺ: ((ألا تأكل إلا طيباً، ولا تعمل إلا صالحاً)).^(٣)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَا

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم في قراريط، ج ٣/٤٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ج ٣/٩.

(٣) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٢٩٧.

أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴿، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب فأني يستجاب لذلك﴾.^(١)

وقوله تعالى: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾. وقوله تعالى: ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً﴾ أي الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾، أي يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون. ولهذا قال تعالى متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أي في غيهم وضلالهم ﴿حتى حين﴾ أي إلى حينهم وهلاكهم. وقوله تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾، يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا ليس الأمر كما يزعمون. ثم قال تعالى: ﴿بل لا يشعرون﴾. فيمكر الله بالقوم في أموالهم وأولادهم.

معرفتهم لرسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ^(٦٨) ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ^(٦٩) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ الْكَرِهُونَ﴾ ^(٧٠) ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ ^(٧١) ﴿بَلْ أَتَيْنَهُمُ

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، ج ٣/ ٨٥ - ٨٦.

بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ
الرِّزْقَيْنِ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ
الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُودُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ
﴿٧٥﴾ [المؤمنون].

يقول تعالى منكرًا على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم
وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل
الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في
الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن
يقابلوا نعمة الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها
آناء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع
الرسول ﷺ ورضي عنهم.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ ففي القرآن زاجر عن معصية الله لو
تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه منه فهلكوا عند ذلك.

ثم قال تعالى منكرًا على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ
فَهُمْ لَهُ مَنكُرُونَ﴾ أي أفهم لا يعرفون محمدًا وصدقه وأمانته وصيانيته التي
نشأ بها فيهم، أي أفقدرون على إنكار ذلك والمباهاة فيه. ولهذا قال جعفر
بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث فينا رسولاً
نعرف نسبه وصدقه وأمانته.^(١)

وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سألته

(١) انظر: ابن هشام السيرة النبوية، ج ١/ ٣٣٤ - ٣٣٨؛ وكتابي "رسول الله وخاتم النبيين"،
ج ٣/ ٣٢٢.

وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.^(١)

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾، يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ أنه تقول القرآن الكريم أي افتراه من عنده، أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن الكريم فإنه قد اتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله، إن استطاعوا ولا يستطيعون أبد الأبد. ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ يعني كراهة أكثرهم للحق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾. الحق هو الله ﷻ، والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور وفق ذلك لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، أي لفساد أهوائهم واختلافها. وفي هذا كله تبين لعجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتديره لخلقه، تعالى وتقدس، فلا إله غيره ولا رب سواه، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ أي القرآن ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مَعْرُضُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً﴾ أجراً وجعلاً ﴿فَخَرَجَ رِبْكَ خَيْرٌ﴾ أي أنت يا محمد لا تسألهم أجره ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيلاً ثوابه.

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ج ١/٤؛ وكتابي "رسول الله وخاتم النبيين"، ج ٣/٧١٢.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ﴾ أي لعادلون جائرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضَرٍّ لِلْجَوِّ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له، ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم. فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ولو كان كيف يكون.

تذكيره ﷺ بعظيمة الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ (٨٧) ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ (٨٩) ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠) [المؤمنون].

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو، ولا تتبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له. ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الألوهية فعبدوا غيره مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً. فاعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى قال ﷻ: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾

أي من ممالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمار وسائر صنوف المخلوقات ﴿إن كنتم تعلمون سيقولون لله﴾ أي فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك كذلك ﴿قل أفلاتذكرون﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرزاق لا لغيره.

﴿قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم﴾؟ أي من هو خالق العالم العلوي، بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له في سائر الإفطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم أي الكريم الكبير العالي الحسن البهي، فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر، وقوله تعالى: ﴿سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾ أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به.

﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ أي بيده الملك والتصرف ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ أي متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: ((لا والذي نفسي بيده)).^(١)

فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وهو يجبر ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون﴾. كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره، فليس لمن دون الله أن يجبر عليه. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وهو يجبر ولا يجار عليه﴾ أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه، الذي لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان وما لم يشأ لم

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين رسول الله ﷺ، ج ٢١٧/٧؛ ومسلم، صحيحه، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب تحريم سب الصحابة ﷺ، ج ١٨٨/٧.

يكن، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجبر ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له، ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال. وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال.

تعوذه ﷻ بالله:

قال تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعُدُّهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون].

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿رب إما تريني ما يوعدون﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم. وقوله تعالى: ﴿وإننا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ أي لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن.

ثم قال تعالى مرشداً له إلى العمل النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء إليه، ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾. وهذا فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم القبيح وعلمه بهم وبما يصفون.

وقوله تعالى: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يستعيذ من الشياطين؛ لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف. وقوله تعالى: ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أي في شيء من أمري. ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور؛ وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع: ((باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون)).^(١)

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١٣٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٣٨) [المؤمنون].

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له، أي لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾ متوعداً من أشرك به غيره وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له، أي لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾ فيحصل له ما ورد قوله تعالى: ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ أي الله يحاسبه على ذلك. ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفران محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة اللطف، ومنها التسديد في الأقوال والأفعال.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب كيف الرقي، ص ٦٩٨، حديث رقم: ٣٨٩٣، واللفظ له، والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب (٩٤)، ج ٥٤١/٥، حديث رقم: ٣٥٢٨.

سورة النور

أمره ﷺ للمؤمنين بغض البصر وحفظ الفروج:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين يوصله الرسول محمد ﷺ أن يفيضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح الله لهم النظر إليه، بعيداً عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعاً.

عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: ((سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري)).^(١)

عن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: ((يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة)).^(٢)

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إياكم والجلوس على الطرقات)). قالوا: يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: ((إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه)). قالوا: وما حق الطريق يا

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب نظر الفجأة، ج ٦/ ١٨٢.

(٢) سنن الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في نظرة المفاجأة، ج ٥/ ١٠١، حديث رقم:

رسول الله؟ فقال: ((غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)).^(١)

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: النظر سهام سم إلى القلب، ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا وبحفظه من النظر. ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي أظهر لقلوبهم وأنقى لدينهم. وقيل من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته.

قال رسول الله ﷺ: وإن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم من تركها مخافتى أبدلتها إيماناً يجد حلاوته في قلبه.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. يعلم ذلك كله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تمنى

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون. فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم)، ج ٧/١٢٦ - ١٢٧: صحيح مسلم، كتاب السلام، باب من حق الجلوس على الطريق رد السلام، ج ٧/٣: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الجلوس بالطرقات، ص ٨٧٣، حديث رقم: ٤٨١٥.

(٢) انظر: الحاكم، المستدرک، ج ٤/٣٤٩، كتاب الرقاق، حديث رقم: ٧٨٧٥.

وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)).^(١)

أمره ﷺ للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج والحشمة:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيكَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور].

هذا أمر من الله تعالى للرسول ﷺ بأن يقول للنساء المؤمنات تمييزاً لهن عن صفة نساء الجاهلية وأفعال المشركين. وكان سبب نزول هذه الآية ما روي عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: حدث أن أسماء بنت مرشدة كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ الآية.

فقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجال الأجانب بشهوة.

(١) صحيح البخاري، كتاب القدر، باب: (وحرام على قرية أهلكتها أنهم لا يرجعون)، [الأنبياء: ٩٥]، ج ٧/٢١٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٠٢ - ٣٠٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٢٧ - ١٣٢٨.

عن أم سلمة رضي الله عنها حدثته أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة رضي الله عنها، قالت فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ: ((احتجبا منه. فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: أو عميا وان أنتما؟ ألستما تبصرانه)).^(١)

ويجوز نظرهن إلى الأجنب بغير شهوة كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت.^(٢)

وقوله تعالى: ﴿ويحفظن فروجهن﴾ عن الفواحش وألاً يراها أحد.

وقوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجنب إلا ما لا يمكن إخفاؤه.

والزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجنب وهي الظاهر من الثياب. والكفين عند الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ يعني المقانع يعمل لها

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في قوله تعالى: (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن)، ص ٧٣٥، حديث رقم: ٤١١٢؛ سنن الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال، ج ١٠٢/٥، حديث رقم: ٢٧٧٨؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٢٩٦/٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل، ج ١٤٧/٦؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لامعصية فيه في أيام العيد، ج ٢٢/٣؛ الإمام أحمد في مسنده، ج ٢٤٧/٦.

صفات ضاربات على صدورهن؛ لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها؛ ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية، فإنهن لم يكنَّ يفعلن ذلك، بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء. وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن. وقال في هذه الآية الكريمة ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ والخمر جمع خمار وهو ما يخمر به أي يغطى به الرأس وهي التي تسميها الناس المقانع أو الخمار.

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿وليضربن﴾ وليشددن ﴿بخمرهن على جيوبهن﴾ يعني على النحر والصدر فلا يرى منه.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها.^(١) وقوله تعالى: ﴿ولا يبدین زینتهن إلا لبعولتهن﴾ أي أزواجهن ﴿أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناءهن أو أبناء بعولتهن أو بني إخوانهن أو بني إخوانهن أو بنو أخواتهن﴾، كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزینتها، ولكن من غیر اقتصاء وتبهرج.

في هذه الآية الكريمة: ﴿ولا يبدین زینتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن﴾ حتى فرغ منها، وقال بعضهم: لم يذكر العم ولا الخال لأنهما ينعتان لأبنائهما، ولا تضع خمارها عند العم والخال، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره.

(١) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن)، ج ١٣/٦؛ سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب في قوله تعالى: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن)، كتاب التفسير، تفسير سورة النور، ص ٧٣٤، حديث رقم: ٤١٠٢.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ نَسَائِهِنَّ﴾ يعني تظهر بزینتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة؛ لئلا تصفهن لرجالهن. فنساء أهل الذمة أشد فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع. وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتتزجر عنه. وقد قال رسول الله ﷺ: ((لا تباشر المرأة المرأة تتعتها لزوجها كأنه ينظر إليها)).^(١)

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَوْ نَسَائِهِنَّ﴾ قال: نساؤهن المسلمات ليس المشركات من نسائهن، وليس للمرأة المسلمة أن تتكشف بين يدي مشركة.

عن ابن عباس ؓ: ﴿أَوْ نَسَائِهِنَّ﴾ قال هن المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح وما لا يحل أن يراه إلا محرم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعني من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها، وإن كانت مشركة لأنها أمتها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾، يعني كالأجراء والتابع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم وله وخوث، ولا هم لهم إلى النساء ولا يشتهونهن، قال ابن عباس ؓ: "هو المغفل الذي لا شهوة له".

وقوله تعالى: ﴿أَوْ الطُّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يُظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾، يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن. فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء. فأما إن كان مرافقاً، أو قريباً منه، بحيث يعرف

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لا تباشر المرأة المرأة فتعتها لزوجها، ج ١٦٠/٦.

ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسنااء فلا يُمكن من الدخول على النساء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الآية كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوته ضربت برجلها الأرض، فيعلم الرجال طنينه، ويدخل في ذلك المشية التي تلفت النظر لمؤخرة المرأة وما أكثرها اليوم مع الملابس الحديثة. فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك. وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي، كما أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتم الرجال طيبها.^(١)

عن ميمونة بنت سعد أن رسول الله ﷺ قال: ((الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها)).^(٢)

وقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي افعلوا ما أمركم الله تعالى به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى عنه، والله تعالى هو المستعان.^(٣)

تذكيره ﷺ بتسبيح الخلق لله ﷻ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَوَّغَتْ كُلُّ قَدْعَةٍ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٠٣ - ٣١١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٢٨ - ١٣٣١.

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في كراهية خروج النساء في الزينة، ج ٣/٤٧٠، حديث رقم: ١١٦٧. الرافلة بالزينة هي المثلثة بلبسها وترينها.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٠٣ - ٣١١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٢٨ - ١٣٣١.

صَلَاتُهُ، وَتَسْبِيحُهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ [النور].

يخبر تعالى نبيه ﷺ والأمة معه أنه يسبح له من في السماوات والأرض أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد ، وقوله تعالى: ﴿والطير صافات﴾ أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبد بتسبيح ألهمها وأرشدنا إليه ، وهو يعلم ما هي فاعلة. ولهذا قال تعالى: ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي كل قد أرشده ﷺ إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله ﷻ. ثم أخبر تعالى أنه عالم بجميع ذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ولهذا قال تعالى: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾. ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا معقب لحكمه. ﴿والى الله المصير﴾ أي يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء فهو الخالق المالك ، فله الحكم في الدنيا والآخرة ، وله الحمد في الأولى والآخرة.^(١)

تذكرة بنعمة المطر:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَرٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاقِبُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور].

يذكر تعالى نبيه ﷺ وعباده أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة ، وهو الإزجاء ، ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي يجمعه بعد تفرقه ، ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي متراكماً ، أي يركب بعضه بعضاً ، ﴿فترى الودق﴾ أي

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٣٦ - ٣٣٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٤٠.

المطر ﴿يخرج من خلاله﴾ أي من خلله. وروي عن بعض السلف: يبعث الله الميثرة فتقم الأرض قمًا.^(١) ثم يبعث الله الناشئة فتتشئ السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب.

وقوله تعالى: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ ذهب بعض المفسرين إلى أن معناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد، ولعل المراد الجو البارد.

وقوله تعالى: ﴿فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿فيصيب به﴾ أي بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد، فيكون قوله تعالى: ﴿فيصيب به من يشاء﴾ رحمة لهم، ﴿ويصرفه عن من يشاء﴾ أي يؤخر عنهم الغيث، ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿فيصيب به﴾ أي بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نشر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم، ويصرفه عن من يشاء رحمة بهم.

وقوله تعالى: ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالآبصار﴾ أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته.

وقوله تعالى: ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ أي يتصرف فيهما، فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلاً، ويدخل هذا على هذا. والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه، ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي لدليلاً على عظمته تعالى.^(٢)

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٣٤٠ - ١٣٤١.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/ ٣٣٧ - ٣٣٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٣٤٠ - ١٣٤١.

الإعراض عن الله ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) [النور].

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون. يقولون قولاً بالسنتهم ﴿آمنّا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك﴾، أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون. ولهذا قال تعالى: ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾. وقوله تعالى: ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾ الآية، أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه.

وقوله تعالى: ﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾ أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين. وهو معنى قوله ﴿مذعنين﴾ وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله؛ لأنه موافق لهواه؛ ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿أفي قلوبهم مرض﴾ الآية، يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأياً ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم، وما هو منطوق عليه من هذه الصفات.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَوَّلُكُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك.

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ورسوله الذين لا يبغيون ديناً سوى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي سمعاً وطاعة. ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال تعالى: ﴿وَأَوَّلُكُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وذلك ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيما أمراه به، وترك ما نهياه عنه، ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل. وقوله تعالى: ﴿فَأَوَّلُكُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة.^(١)

أمر العباد بطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) [النور].

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ: لئن

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٤٠ - ٣٤١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٤١ - ١٣٤٢.

أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَقْسَمُوا﴾ أي لا تحلفوا.

وقوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ قيل معناه طاعتكم طاعة معروفة، أي قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه. وكلما حلفتكم كذبتكم. فهم من سجيته الكذب حتى فيما يختارونه.

وقيل المعنى في قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أي ليكون أمركم طاعة معروفة، أي بالمعروف من غير حلف ولا أقسام، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف، فكونوا أنتم مثلهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، لا يروج عليه شيء من التدليس، بل هو خبير بضمائر عباده وإن أظهرها خلافها.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾؛ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ هذه مهمة رسول الله ﷺ ودوره، وهي البلاغ، والهداية من الله تعالى.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٤١ - ٣٤٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٤٢.

تذكيره ﷺ بمصير الكافرين:

قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٥٧) [النور].

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أي لا تظن يا محمد أن ﴿الذين كفروا﴾ أي خالفوك وكذبوك ﴿معجزين في الأرض﴾ أي لا يعجزون الله، بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب. ولهذا قال تعالى: ﴿وماؤاهم﴾ أي في الدار الآخرة ﴿النار ولبئس المصير﴾ أي بئس المآل مآل الكافرين، وبئس القرار وبئس المهاد.^(١)

الأمر بالاستئذان من الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٢) [النور].

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه. فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ من صلاة الجمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك. أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه والحال هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته. وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين، ثم أمر رسوله ﷺ إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ﴾ الآية.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٤٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٤٤.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: ((إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة)).^{(١)(٢)}

الأمر بالأدب مع الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور].

عن ابن عباس رضي الله عنه: كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ: في أن يهاب نبيه ﷺ، وأن يبجل وأن يحترم وأن يسود. فنزلت: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ فيشرف ب: يا نبي الله يا رسول الله. ويعرف قدره.^(٣)

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في التسليم عند القيام وعند القعود، ج ٦٢/٥ - ٦٣؛ سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في السلام إذا قام من المجلس، ص ٩٤١، حديث رقم: ٥٢٠٨.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣٥٨/٩ - ٣٦٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٣٤٨/٢.

(٣) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٣٦٠/٩ - ٣٦١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٣٤٨/٢.

سورة الفرقان

نذارته ﷺ بالفرقان:

قال تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقِيرًا ﴿٢﴾ [الفرقان].

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم ﷺ من القرآن العظيم، وقال هاهنا ﴿تبارك﴾ البركة معناها مفهوم، وبركته ﷺ مستقرة ثابتة الدائمة ﴿الذي نزل الفرقان﴾ نزل القرآن مفصلاً في مناسبات مختلفة منجماً متفرقاً محكماً، وسوراً بعد سور، وهذا أبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه ﷺ؛ لأن الكتب المتقدمة ربما كانت تنزل جملة واحدة، وسماه هاهنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال، والغي والرشاد والحلال والحرام.

وقوله تعالى: ﴿على عبده﴾ هذه صفة مدح وثناء لرسول الله ﷺ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء.

وقوله تعالى: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي إنما خص الرسول ﷺ بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم وقال ﷺ: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي))^(١) فذكر منهن أنه كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة.

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)، ج ١/١١٣؛ وانظر: صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، مقدمة - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج ٢/٦٣.

فالذي أرسلني هو مالك السماوات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو الذي يحيي ويميت. وهكذا قال هاهنا: ﴿الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾، ونزه نفسه سبحانه عن الولد وعن الشريك. ثم أخبر أنه ﴿خلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتديبره وتسخيره وتقديره. سبحانه وتعالى.^(١)

الدفاع عن الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلماً وَزوراً﴾ ٤ ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ ٥ ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ ٦ ﴿[الفرقان].

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿إن هذا إلا إفك﴾ أي كذب ﴿افتراه﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ أي واستعان على جمعه بقوم آخرين، فقال الله تعالى: ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ أي فقد افتروا قولاً باطلاً، وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون. ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها﴾ يعنون كتب الأوائل أي استنسخها ﴿فهي تملى عليه﴾ أي تقرأ عليه ﴿بكراً وأصيلاً﴾ أي في أول النهار وآخره.

وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه، فإنه علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعرف شيئاً من

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٦٣ - ٣٦٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٤٩ - ١٣٥٠.

الكتابة ولا القراءة، لا في أول عمره ولا في آخره. وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده ﷺ إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة. وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وأمانته، وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة. حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره وإلى أن بعث الأمين؛ لما يعلمون من صدقه وبره. فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها. وচারوا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون ساحر، وتارة يقولون شاعر، وتارة يقولون مجنون، وتارة يقولون كذاب. وقال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا وافترؤا: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية، قل لهم يا محمد أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ أي الله تعالى الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ دعاهم إلى التوبة والإنابة وإخبارهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى.^(١)

دفاع الله عن رسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُوبُ مَعَهُ نَذِيرًا ۚ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٦٤ - ٣٦٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٥٠ - ١٣٥١.

مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ [الفرقان].

يخبر تعالى عن تغت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق، بلا حجة ولا دليل منهم. وإنما تعللوا بقولهم: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ يعنون الرسول ﷺ أنه ﷺ يأكل الطعام كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه، ﴿ويمشي في الأسواق﴾ أي يتردد فيها وإليها؛ طلباً للتكسب والتجارة، ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾. يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله تعالى فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه. كما قالوا ﴿أو يلقي إليه كنز﴾ أي كنز ينفق منه، ﴿أو تكون له جنة يأكل منها﴾ أي تسير معه حيث سار. وهذا كله سهل يسير على الله تعالى، ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة ﴿وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾.

قال الله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا﴾ أي جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر، وكلها أقوال باطلة. كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك. ولهذا قال تعالى: ﴿فضلوا﴾ عن طريق الهدى ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾، وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال حيثما توجه؛ لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً.

ثم قال تعالى مخبراً نبيه ﷺ أنه إن شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال تعالى: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ الآية. وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً كبيراً كان أو صغيراً.

روت عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ: لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة.^(١)

وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خيّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً.^(٢) فأنزل الله ﷻ في ذلك ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ أي إنما يقول هؤلاء هذا تكذيباً وعناداً، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً، بل إن تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال. ﴿وأعتدنا﴾ أي أرصدنا ﴿للمن كذب بالساعة سعيراً﴾ أي عذاباً أليماً حاراً، لا يطاق في نار جهنم. والسعير: واد من قيح جهنم. وقوله تعالى: ﴿إذا رأتهم﴾ أي جهنم ﴿من مكان بعيد﴾ يعني في مقام المحشر. ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ أي حنقاً عليهم، زفيراً من شدة غيظها بأمر الله، على من كفر بالله.

وقوله ﷻ: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين﴾ يعني مكثفين مربوط بعضهم لبعض ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة. ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً﴾ الآية. فيقال لهم لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً، وفي قوله تعالى: ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً﴾ الآية، أي لا تدعوا اليوم ويلاً

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١/٤٦٥.

(٢) انظر: الإمام أحمد في مسنده، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ج ٢/٢٣١.

واحدًا، وادعوا ويلاً كثيراً. والثبور هو الهلاك. كما يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار.^(١)

تأكيدہ ﷺ لما وعد الله به المتقين:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا ۝١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ [الفرقان].

يقول تعالى: قل يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيق مقرنين، لا يستطيعون حراكاً ولا استتصاراً ولا فكاكاً مما هم فيه. أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده؟ التي أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا. وجعل مآلهم إليها ﴿لهم فيها ما يشاؤون﴾ من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً، بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ولا ييغون عنها حولاً. وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم. ولهذا قال تعالى: ﴿كان على ربك وعداً مسؤولاً﴾ أي لا بد أن يقع أي وعد حقاً من الله ﷻ.

وفي قوله تعالى: ﴿كان على ربك وعداً مسؤولاً﴾ أن الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾، وقيل: المؤمنون يرجون ربهم ﷻ ويدعونه: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا، فذلك قوله تعالى: ﴿وعداً مسؤولاً﴾.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٦٦ - ٣٧١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٥١ - ١٣٥٢.

أكله الطعام ﷺ كغيره من الأنبياء:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

يقول تعالى مخبراً نبيه ﷺ عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين: أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذية به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة. وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والخوارق الباهرة والأدلة الظاهرة ما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاؤوا به من الله. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم من يطيع ممن يعصي. ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي بمن يستحق أن يوحى إليه. ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك.

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ لو شاء الله ﷻ أن يجعل الدنيا مع رسله فلا يخالفون لفعل، ولكن قد أراد أن يبتلي العباد بهم ويبتليهم بهم.^(١)

مصير من أذى الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيَّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْيَلًا﴾ [٢٧] ﴿يَوَيْلَ لِي لِمَ أَخَذْتُ فَأُلَاقًا خَلِيلًا﴾ [٢٨] ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [٢٩] [الفرقان].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٧٦ - ٣٧٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٥٣.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ، وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم، حيث لا ينفعه الندم، وعص على يديه حسرة وأسفاً. وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أم أمية بن خلف أم أخيه أبي أم غيرهم من الأشرقياء فإنها عامة في كل ظالم. فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعص على يديه قائلاً: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة. ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿بعد إذ جاءني﴾ أي بعد بلوغه إلي. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ أي يخذله عن الحق ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه.^(١)

شكواه ﷺ من هجر للقرآن:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١) [الفرقان].

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ((يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً))، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن الكريم ولا يستمعونه. فكانوا إذا ثلّوا عليهم القرآن الكريم أكثروا من اللغط والكلام في غيره؛ حتى لا يسمعه. فهذا من هجرانه وترك الإيمان به وعدم تصديقه، وترك تدبره وتفهمه كل من هجرانه. وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/ ٣٨٤ - ٣٨٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٣٥٧.

أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره، وكل ما يؤدي إلى هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب.

وقوله تعالى: ﴿وَكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين﴾ أي كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن كذلك كان في الأمم الماضين، لأن الله جعل لكل نبي عدوا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم. ثم قال تعالى: ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ أي لمن اتبع رسوله وآمن بكتابيه وصدقته واتبعه فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة، وإنما قال تعالى: ﴿هادياً ونصيراً﴾: لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن الكريم، فلهذا قال تعالى: ﴿وَكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين﴾ الآية.^(١)

تشبيث فؤاده ﷺ بالقرآن:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۝٣٢ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ [الفرقان].

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيههم، حيث قالوا: ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ أي هلا أنزل على محمد ﷺ هذا الكتاب الذي أوحى إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة، كالنوراة والإنجيل والزيور وغيرها من الكتب الإلهية؟

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٨٥ - ٣٨٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٥٧.

فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في سنوات بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام؛ ليثبت قلوب المؤمنين به. ولهذا قال تعالى: ﴿لَنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، بيناه تبييناً وأوضحنا تلاوته وحكمه. وفسرناه لك. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يا محمد بحجة وشبهة ﴿إِلَّا جُنَّاتِكَ بِالْحَقِّ وَآحَسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم.

عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يا محمد بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿إِلَّا جُنَّاتِكَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، أي إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم. وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله ﷻ بالقرآن صباحاً ومساءً، وليلاً ونهاراً، سفرًا وحضرًا. وكل مرة كان يأتيه الملك ﷻ بالقرآن لا كإنزال كتاب من قبله من الكتب المتقدمة. فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فالقرآن الكريم أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله تعالى. وقد جمع الله للقرآن الكريم الصفتين معاً، ففي الملائكة الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً، بحسب الوقائع والحوادث.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جُنَّاتِكَ بِالْحَقِّ وَآحَسَنَ تَفْسِيرًا﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٨٦ - ٣٨٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٥٧ - ١٣٥٨.

استهزاء المشركين برسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۚ﴾ (٤١) **إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۚ﴾ (٤٢) **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۚ﴾ (٤٣) **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۚ﴾ (٤٤) [الفرقان].******

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه يعلنونه بالغيب والنقص، فقال تعالى هنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي على سبيل التنقيص والازدراء. قبحهم الله. ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ يعنون أنه كاد يشيهم عن عبادة الأصنام، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها.

ثم قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾، ثم بين تعالى لنبيه منبهاً أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال فإنه لا يهديه أحد إلا الله ﷻ، ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي مهما استحسنت من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه، ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، قال ابن عباس ؓ: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ الآية، أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام

الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم.^(١)

تذكيره ﷺ بحركة الليل والنهار:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۚ﴾^(٤٥) ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾^(٤٦) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾^(٤٧) [الفرقان].

من هاهنا شرع الله تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي دائماً لا يزول. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده، أي دليلاً تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي الظل. وقيل الشمس ﴿يَسِيرًا﴾ أي سهلاً، قال ابن عباس رضي الله عنه: يسيراً سريعاً خفياً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه، ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٩٢ - ٣٩٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٥٩.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٩٣ - ٣٩٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٦٠.

أمره ﷺ بجهاد الكافرين:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٥٦﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٧﴾ [الفرقان].

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ يدعوهم إلى الله ﷻ، ولكننا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغهم.

وفي الحديث: ((بعثت إلى الأحمر والأسود)).^(١) ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة)) ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ يعني القرآن الكريم.^(٢)

تبشيريه ونذارته ونزاهته ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۝٥٨﴾ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَيْرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان].

ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، مبشرًا بالجنة لمن أطاع الله، ونذيرًا بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم. وإنما أفعل ذلك ابتغاء

(١) انظر: رواية صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، مقدمة - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج ٢/٦٣؛

انظر: الإمام أحمد في مسنده، ج ٥/١٦٢. من حديث أبي ذر رضى الله عنه.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٣٩٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٦١.

وجه الله تعالى، ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي طريقاً ومسلكاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به.

ثم قال تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ أي في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك. وقوله تعالى: ﴿وسبح بحمده﴾ أي اقرن بين حمده وتسبيحه. ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك)) أي أخلص له العبادة والتوكل.

وقوله تعالى: ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ أي بعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة. وقوله تعالى: ﴿الذي خلق السماوات والأرض﴾ الآية، أي هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه، الذي خلق بقدرته السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ أي يدبر الأمر، ويقضي الحق، وهو خير الفاصلين. ولهذا قال تعالى: ﴿فسئل به خبيراً﴾.

أمره ﷺ العباد بالدعاء:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان].

ثم قال تعالى: ﴿قل ما يعبؤا بكم ربي﴾ أي لا يبالي ولا يكثرث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلاً.

عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿قل ما يعبؤا بكم ربي﴾ الآية، يقول: لولا إيمانكم. وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم

مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين.
 وقوله تعالى: ﴿فقد كذبتكم﴾ أيها الكافرون، ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ أي
 فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، يعني مقتضياً لعذابكم
 وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٤٢٧ - ٤٢٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٦٨ - ١٣٦٩.

سورة الشعراء

حرصه ﷺ على إيمان الخلق:

قال تعالى: ﴿طَسَّرَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء].

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاحِعٌ﴾ أي مهلك ﴿نَفْسِكَ﴾ يا محمد مما تحرص وتحزن عليهم ﴿إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾. وهذه تسلية من الله تعالى لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، ﴿لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ﴾ أي قاتلها نفسك وباذلها.^(١)

تذكيره ﷺ بآيات الله في النبات:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء].

قال أحد السلف: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي دلالة على قدرة الخالق سبحانه للأشياء الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره، وارتكبوا نهيه. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي بخلقه فلا يعجل على من عصاه، بل يؤجله وينظره، ثم يأخذه

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٤٣٠ - ٤٣١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٦٩.

أخذ عزيز مقتدر. فهو عزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره، رحيم بمن تاب إليه وأناب. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي بخلقه، فلا يعجل على من عصاه، بل يؤجله وينظره، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.^(١)

تذكيره ﷺ بنجاة موسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾^(٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ^(٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ^(٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ^(٦٨) [الشعراء].

قال تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ أي أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم الإسلام والتوحيد، فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده، فلم يبق منهم رجل إلا هلك.

فلما خرج آخر أصحاب موسى، وتكامل أصحاب فرعون، انطم عليهم البحر، فما رئي سواد أكثر من يومئذ، وغرق فرعون لعنه الله.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين، لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي بخلقه فلا يعجل على من عصاه، بل يؤجله ويُنظره، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. فهو ﷺ عزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره. كما فعل بفرعون، رحيم بمن تاب إليه وأناب حيث أنجى موسى ومن معه.^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٤٣٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٦٩ - ١٣٧٠.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٤٥١ - ٤٥٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٧٤.

تذكيره ﷺ بإبراهيم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۖ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۖ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ [الشعراء].

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليته إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته؛ ليقصدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبرؤ من الشرك وأهله، فإن الله تعالى أتى إبراهيم عليه السلام رشده من قبل، أي من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ﷻ. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ أي مقيمين على عبادتها ودعائها، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ؟ قَالُوا: بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون. فهم على آثارهم يهرعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير فلتخلص إليّ بالمساءة، فإني عدو لها لا أبالي بها ولا أفكر فيها.^(١)

تذكيره ﷺ بعزة الله سبحانه:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۖ﴾ [الشعراء].

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٤٥١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٧٤.

بعد الحديث عن تفصيلات قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه جاء تذكير لمحمد عليه السلام بعزة الله ورحمته وأن الرحمة ليست من ضعف، بل مع عزته عليه السلام.

تذكيره عليه السلام بنجاة نوح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (١١٦) ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ (١١٧) ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْتُ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٨) ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (١١٩) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ (١٢٠) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٢١) ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٢) [الشعراء].

لما طال مقام نبي الله نوح عليه السلام بين أظهرهم، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد، قالوا في الآخر: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك، ﴿لتكونن من المرجومين﴾ أي لنرجمنك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله له، فقال عليه السلام: ﴿رب إن قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ الآية، وقال هاهنا ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين﴾ والمشحون هو المملوء بالأمّعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، أي أنجيناه نوحاً ومن اتبعه كلهم، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾. تذكير لمحمد عليه السلام بعزة الله عليه السلام ورحمته.^(١)

تذكيره عليه السلام بهلاك قوم هود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (١٣٦) ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٤٦٢ - ٤٦٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٧٨.

الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ [الشعراء].

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود عليه السلام له بعد ما حذرهم وأنذرهم، ورغبهم ورهبهم، وبين لهم الحق ووضحه، ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ أي لا نرجع عما نحن فيه وهو قولهم: ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾ قرأ بعضهم: ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾ بفتح الخاء وتسكين اللام، يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين.

وقرأ آخرون: ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾ بضم الخاء واللام، يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا: ﴿وما نحن بمُعَذِّبِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله. وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، أي ريحاً شديدة الهبوب، ذات برد شديد جداً، فكان سبب إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة. واسم مدينتهم إرم.

وقد كانت الريح تأتي الرجل منهم فتقتله وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه، فتشده دماغه وتكسر رأسه وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعر، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحضروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ الآية. ﴿إن

في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿أي العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين﴾^(١).

تذكيره ﷺ بهلاك قوم شعيب الكليل:

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٨٩) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩٠) ﴿وَلِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٩١) [الشعراء].

في قوم شعيب وهم مدين قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ إنه كان عذاب يوم عظيم. وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله تعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام، لا يمكنهم منه شيء. ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر. فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. قال ابن عباس ؓ: فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين^(٢).

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في عدة مواطن، كل موطن بصفة تناسب السياق، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابَ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ إنه كان عذاب يوم عظيم.

وورد أن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب: أخذتهم الرجفة في

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٤٣٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٦٩ - ١٣٧٠.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٤٣٤؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٦٩ - ١٣٧٠.

دارهم حتى خرجوا منها. فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم، فأرسل الله عليهم الظلة، فدخل تحتها رجل فقال: ما رأيت كاليوم ظلاً أطيّب ولا أبرد من هذا، هلموا أيها الناس، فدخلوا جميعاً تحت الظلة، فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا جميعاً. فهذا هو ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾.

قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أي العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.^(١)

نزول القرآن على قلبه ﷺ بلسان عربي:

قال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ (١٩٣) ﴿نزل به الروح الأمين﴾ (١٩٣) ﴿على قلبك لتكون من المنذرين﴾ (١٩٤) ﴿بلسان عربي مبين﴾ (١٩٥) [الشعراء].

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿وإنه﴾ أي القرآن، ذكره في أول السورة في قوله تعالى: ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث﴾ الآية ﴿لتنزيل رب العالمين﴾ أي أنزله الله عليك وأوحاه إليك، ﴿نزل به الروح الأمين﴾ وهو جبريل عليه السلام.

أي نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملاء الأعلى ﴿على قلبك﴾ يا محمد سالماً من الدنس والزيادة والنقص ﴿لتكون من المنذرين﴾، أي لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له.

وقوله تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾ أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٤٧٣ - ٤٧٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٨١.

أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل؛ ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعدر، مقيماً للحجة دليلاً إلى المحجة.

قال رجل: يا رسول الله، بأبي وأمي، ما أفصحك، ما رأيت الذي هو أعرب منك. قال: فقال: حق لي وإنما أنزل القرآن بلساني، والله يقول: ﴿بلسان عربي مبين﴾^(١).

نذارته ﷺ لعشيرته وتواضعه للمؤمنين وتوكله على الله:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾^(٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ^(٢١٤) وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنْ بَرِئْتُ مِمَّا تَعْمَلُونَ^(٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ^(٢١٧) الَّذِي يَرْفَعُ جَبَلًا تَقُومُ^(٢١٨) وَتَقْلُبُ فِي السَّجْدِينَ^(٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(٢٢٠) [الشعراء].

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ وأمته معه بعبادته وحده لا شريك له، ومخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين، أي الأدنين إليه، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه ﷻ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾. وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فرد من أجزائها.

وفي صحيح مسلم: ((والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))^(٢).

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٤٧٥ - ٤٧٦؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٨٢.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته، ج ١/٩٣.

عن ابن عباس ؓ قال: لما أنزل الله ﷻ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا، فصعد عليه، ثم نادى: ((يا صباحاه))، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: ((يا بني عبدالمطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أصدقتموني؟)) قالوا: نعم. قال: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد))، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله ﷻ ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ﴾.^(١)

وعن عائشة ؓ قالت: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: ((يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبدالمطلب، يا بني عبدالمطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم)).^(٢)

عن علي ؓ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ جمع النبي ﷺ من أهل بيته، فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا، قال: وقال لهم: من يضمن عني ديني ومواعيدي، ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي؟ فقال رجل: يا رسول الله أنت كنت بحراً من يقوم بهذا، قال: ثم قال الآخر - ثلاثاً - قال: فعرض ذلك على أهل بيته، فقال علي: أنا.^(٣)

روي: لما نزلت هذه الآية التي تبدأ بأهل بيته وفصيلته؛ شق ذلك على المسلمين، فأنزل الله تعالى: ((واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)).

وتعني ألن جانبك وكلامك لمن اتبعك من المؤمنين.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ((.. وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب))، ج ٩٥/٦.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ((وأنذر عشيرتك الأقربين))، ج ١٣٣/١.

(٣) انظر: رواية الإمام أحمد في مسنده، ج ١١١/١.

وقوله تعالى لنبيه **محمداً** ﷺ ولأمته: ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ أي في جميع أمورك، فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعل كلمتك. وقوله تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ أي هو معتك بك حين تقوم إلى الصلاة ولو كنت وحدك، وعلى حالاتك.

وقوله تعالى: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ في الصلاة يراك وحدك، ويراك في الجمع.

وقوله تعالى: ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم.^(١)

تذكيره ﷺ بالشياطين والأفاكين معهم:

قال تعالى: ﴿هَلْ أَنتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۖ (٢٣١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٣٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ۖ (٢٣٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۖ (٢٣٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۖ (٢٣٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۖ (٢٣٦) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا ۖ (٢٣٧) مِن بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ۖ (٢٣٨)﴾ [الشعراء].

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رؤى من الجان، فنزه الله ﷻ جناب رسوله ﷺ عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به ﷺ إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين، فإنهم ليس لهم أمر في مثل هذا القرآن العظيم وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة. ولهذا قال الله

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/ ٤٨٠ - ٤٨٧؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/ ١٣٨٦.

تعالى: ﴿هل أنبئكم﴾ أي أخبركم ﴿على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم﴾ أي كذوب في قوله وهو الأفاك ﴿أثيم﴾ وهو الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان، وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة ﴿يلقون السمع﴾ أي يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها كذباً كثيراً، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس، فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه؛ بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: إن النبي ﷺ قال: ((إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنها سلسلة على صفوان، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء)).^(١)

وقوله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ يتبعهم الضلال، ويقال كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئام من الناس ولهذا فئام من الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين)، ج ٥/٢٢١.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنه: في كل لغو يخوضون وفي كل فن من الكلام، وقيل أوديتهم التي يهيمون فيها مرة في شتمه فلائاً، ومرة في مدحة فلائاً. فالشاعر يمدح قومًا بباطل ويذم قومًا بباطل.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أكثر قولهم يكذبون فيه. فهم يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم، فيتكثرون بما ليس لهم.

والمراد من هذا أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، فقال تعالى هاهنا: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٤] إلى أن قال تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ تَنْزَلَ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ روي: لما نزلت ﴿وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك - وهم شعراء - إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون، فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي ﷺ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال ﷺ: أنتم ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال ﷺ: أنتم ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال: أنتم.

وذكروا الله كثيراً في كلامهم، وفي شعرهم.

وقوله تعالى: ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ قال ابن عباس ؓ: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين.

ثبت أن رسول الله ﷺ قال لحسان ؓ: اهجهم - أو قال - هاجهم وجبريل معك.^(١)

وقد قال كعب بن مالك ؓ للنبي ﷺ: إن الله ﷻ قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فقال ﷺ: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل. وقوله تعالى: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ يعني من الشعراء وغيرهم، فهذه الآية عامة في كل ظالم.^(٢)

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، ج ١٠٩/٧؛ باب هجاء المشركين؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة ؓ، باب فضل حسان بن ثابت ؓ، ج ١٦٣/٧.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤٨٧/٩ - ٤٩٣؛ ابن كثير، تفسيره، ج ١٣٨٧/٢ - ١٣٩٠.

سورة النمل

تلقيه ﷺ القرآن من عند الله الحكيم العليم:

قال تعالى: ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل].

﴿تلك آيات﴾ أي هذه آيات ﴿القرآن وكتاب مبين﴾ أي بين واضح، ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقته، وعمل بما فيه.

ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي يكذبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ أي حسناً لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة، ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ أي ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر.

وقوله تعالى: ﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي ﴿وانك﴾ يا محمد ﴿لتلقى﴾ أي لتأخذ ﴿القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أي من عند حكيم عليم، أي حكيم في أمره ونهيه، عليم بالأمور: جليلها وحقيرها،

فخبره هو الصدق المحض.^(١)

تذكيره ﷺ بعاقبة المفسدين من قوم صالح ﷺ والناجين منهم:

قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤُهُ مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل].

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح، ووصل بهم الحال أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقاربه إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي مدينة ثمود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي تسعة نفر، ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ﴾، وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كباراءهم ورؤساءهم.

فهؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض، بكل طريق يقدر على.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي تحالفوا على قتل نبي الله صالح ﷺ ليلاً غيلةً، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، حيث تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٤٩٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٩٠.

وقومهم أجمعين. وذكر لنا أنهم بينما هم متوجهون إلى صالح ليفتكوا به إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم. وقيل هم الذين دبروا عقروا الناقة، قالوا حين عقروها: لنبيتن صالحاً وأهله فنقتلهم ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به من علم، فدمرهم الله أجمعين.

فهؤلاء بعدما عقروا الناقة قالوا: هلم فنقتل صالحاً، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً كنا قد ألحقناه بناقته، فأتوه ليلاً لبيبتوه في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة.

﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلک بيوتهم خاوية﴾ أي فارغة ليس فيها أحد، ﴿بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.^(١)

تذكيره ﷺ بحمد الله وتوحيده وآياته:

قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِمَعِ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾^(٦٠) [النمل].

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول: ﴿الحمد لله﴾ على نعمه على عباده النعم التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأنه يُسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبيأؤه الكرام، ومن تبعهم من عباده المؤمنين، عليهم من الله أفضل

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٩/٥٣٢ - ٥٣٥؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٣٩٩ - ١٤٠٠.

الصلاة والسلام، ومنهم أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم أجمعين. فالله تعالى أمر رسوله ﷺ ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر أن يحمدوه على جميع أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار.

فأصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه ﷺ. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى، ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أَمِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾ أي خلق تلك السماوات في ارتفاعها وصفائها. وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة. وخلق الأرض وما جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار، والفيافي والقفار، والزروع والأشجار، والثمار والبحار، والإنسان والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي جعله رزقاً للعباد ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أي بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي منظر حسن وشكل بهي ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي لم تكونوا تقدر على إنبات أشجارها. وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، فهم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق. وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق. ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أي إله مع الله يعبد؟ وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق.

ومن المفسرين من يقول معنى قوله تعالى: ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ تأكيد أنه هو

المتفرد به، فيقال فيه انكار عليهم كيف يعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير؟

أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

عدم الحزن على الكافرين وكفاية مكرهم:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَّآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [النمل].

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين إنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً. ثم قال تعالى: ﴿لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل﴾ أي ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً، وقولهم: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ يعنون ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أي أخذه قوم عمن قبلهم من كتب يتلقاه بعض عن بعض وليس له حقيقة. قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء: ﴿سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي المكذبين بالرسول وبما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره كيف حلت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته،

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ٤/١٠ - ٥: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٠٠ - ١٤٠١.

ثم قال تعالى مسلماً نبيّه ﷺ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي في كيدك، ورد ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.^(١)

تحذيره ﷺ لنكري البعث:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧١) ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٧٢) [النمل].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أن يكون قرب لكم بعض الذي تستعجلون، في قوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾؛ لأنه ضمن معنى عجل لكم.^(٢)

فضل الله على الناس وعلمه بهم:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٤) [النمل].

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي في إسباغته نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم سبحانه الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر.

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٠٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٠ - ١١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٠٤.

ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السماوات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ يعني وما من شيء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾^(١).

حديث القرآن عن بني إسرائيل:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^(٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ^(٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ^(٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ^(٧٩) [النمل].

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني إسرائيل، وهم حملة التوراة والإنجيل، ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه. فاليهود افتروا والنصارى غلوا، فجاء القرآن الكريم بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي في انتقامه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي في جميع أمورك وبلغ رسالة ربك ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ أي أنت على الحق الواضح البين، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة وحققت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية^(٢).

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١١ - ١٢؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٠٤.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٢ - ١٣٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٠٤ - ١٤٠٥.

إسماعه ﷺ للمؤمنين:

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۚ وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨١) [النمل].

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ أي لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفي آذانهم وقر الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة، الخاضع لله ولما جاء عنه على السنة الرسل.^(١)

تصوير يوم القيامة له ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلُّ أَتَوَهٌ دَاخِرِينَ﴾ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٨) [النمل].

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور، وفي حديث الصور: إن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع من في السماوات ومن في الأرض ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه في الحديث: ثم ينفخ في الصور ... وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطراً كأنه الطل - أو قال: الظل، فتتبت منه أجساد

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٢ - ١٣٠؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٠٤ - ١٤٠٥.

الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون.^(١)

والنشور من القبور لجميع الخلائق، ولهذا قال تعالى: ﴿وكل أتوه داخرين﴾ وداخرين أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره.

... فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقول الله ﷻ: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها. فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم في اللديغ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم.

وقوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب أي تزول عن أماكنها.

وقوله تعالى: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿الذي أتقن كل شيء﴾ أي أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.^(٢)

جزاء أصحاب الحسنات وأصحاب السيئات:

قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ

(١) انظر: رواية مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض، ونزول عيسى وقتله إياه، وذهاب أهل الخير والإيمان، وبقاء شرار الناس وعبادتهم الأوثان، والنفخ في الصور، وبعث من في القبور، ج ٨/٢٠١ - ٢٠٢.
(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٨ - ٢١: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٠٧ - ١٤٠٨.

بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ [النمل]. ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ، فقال: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ ومن ذلك الإخلاص، ومنه: لا إله إلا الله، وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها. ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾، كما قال تعالى في آية أخرى. ولهذا قال تعالى: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾. وفي قوله: ﴿ومن جاء بالسَّيِّئَةِ﴾ يعني بالشرك الذي يوقع في النار وغيره مما يغضب الله. ^(١)

توحيدہ ﷺ لله الذي حرم مكة وله كل شيء:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ [النمل].

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ وأمرأ له أن يقول: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء﴾. وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، وقوله تعالى: ﴿الذي حرّمها﴾ أي الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدرًا بتحريمه لها.

عن ابن عباس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: ((إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها)). ^(٢)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/١٨ - ٢١؛ ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٠٧ - ١٤٠٨.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحرم، ج ٢/١٥٧.

وقوله تعالى: ﴿وله كل شيء﴾ أي هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو، ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له. وقوله تعالى: ﴿وأن أتلوا القرآن﴾ أي على الناس أبلغهم إياه. أي أنا مبلغ ومنذر، ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾، أي لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخلصوا من عهدتهم وحساب أمهم على الله تعالى: ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها﴾ أي لله الحمد ﷻ الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾.^(١)

(١) انظر: الطبري، تفسيره، ج ١٠/٢٤ - ٢٥: ابن كثير، تفسيره، ج ٢/١٤٠٨.